شَرْحُ

فِي

العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

-الطبعة الأولىٰ-

مِن جُهود علماء الدِّيار الأردُنِّيَّة :

شَرْحُ

القَصِيدَةِ العَجْلُونِيَّةِ

في

العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ

لقاضي (عجلون) - وخطيبها -

الإمام الفقيه عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد

الزُّهَيريِّ، التِّبريزيِّ، الشَّافعيِّ

المُتوفَّى سنة (٧٤٠هـ) - رحمه الله - تعالى -

ضَبْطُ، وتَعلِيقُ، وشَرْحُ

علي بن حسن بن علي الحلبي الأثري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله؛ فَلا مُضِلَّ لَه، وَمَنْ يُضْلِلْ؛ فَلاَ هَادِيَ لَه.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله -وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه-.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتابُ الله، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّار.

وبعد:

فإنَّ ما عَبَّرَ عنهُ العُلماءُ والأُدباءُ والشُّعراءُ -قديمًا وحديثًا- بِـ(أغراضِ الشِّعرِ وصُنُوفِه)[1]، هو عبارةٌ عن: «وِجهاتِ الأقاويلِ الشِّعريَّةِ، وما يكونُ الكلامُ مَنُوطًا

(١) «العُمدة» (٢/ ١٣) -لابن رَشيق-.

بِهِ مِن الأشياءِ المَقصُودِ وَصْفُها، أو الإخبارُ عنها»[١].

«ومِـن أَوَّلِ أغـراضِ الـشِّعرِ: أنْ يَكُـونَ في: المـواعظِ، والأمثـالِ، والآدابِ، والأخلاقِ، والحَثِّ علىٰ الجِهادِ، أو الإنفاقِ، أو خِلالِ الخَيْرِ المُتنوِّعَةِ.

وكـذلك: مـا يُرَقِّـقُ القُلـوبَ؛ مِـن شِـعرِ الزُّهـدِ، والقَناعـةِ، والتَّـذكيرِ بـالآخرةِ والجَزاءِ»[٢].

وأَعلَىٰ ذلك -كُلِّهِ- وأَهَمُّهُ: الشِّعرُ الخاصُّ بعقيـدةِ الـسَّلَفِ الـصَّالحِ، ونَـشْرِها، وتَوضيحِها، والانتصارِ لها.

ومِن ذلك -في التَّاريخِ الإسلاميِّ -كثيرٌ- جدًّا- ولله الحمدُ-.

ولَعَلَّ مَنظُومَةَ «الكافِيَـة الـشَّافِيَة في الانْتِصارِ لِلفِرقَةِ النَّاجِيَـة» -للإمـامِ ابـنِ قـيِّم الجوزيَّة -رَحِمَهُ اللَّهُ- في أَكْثَر مِن خَمْسَةِ آلافِ بَيْتٍ -مِن أَوضحِ مِثالٍ علىٰ هذا النَّوعِ مِن الشِّعرِ العقائِديِّ الجَلِيلِ.

وفي كتابِ «المنظوماتِ العَقَدِيَّةِ -عند أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ- حتىٰ نهايـةِ القَـرنِ الثامنِ الهِجريِّ» -وهُو كِتابٌ مُهِمٌّ -لخالد النّمر- جَمْعٌ ودراسـةٌ لأكثرَ مِـن أربعـينَ مَنظومـةً / قـصيدةً شِـعريَّة في بـابِ الاعتقـادِ الـسُّنِّيِّ الـصَّحيح -بعيـدًا عـن عقائـد المُبتدِعَة والخُرافِيِّين-!

وإنْ كانَ فاتَهُ شَيْءٌ يَسيرٌ مِن أشباهِ هذه القصائدِ ونظائرِها -مِمَّا هُـو «في طَيَّـاتِ

(١) «مِنهاجُ البُلغاء وسِراجُ الأُدباء» (ص٢١٦) -لحازمٍ القِرْطاجَنِّي-.
(٢) «خُطبةُ الجُمعةِ ودَوْرُها في تربيةِ الأُمَّة» (ص٢٩)-للأخِ الدُّكتور عبد الغنيّ مُزهِر التميمي-.

الكُتُبِ؛ قَلَّما يُفْطَنُ لها، أو يُنَبَّهُ عليها»[١]-.

مِن ذلك: هذه «**القصيدةُ العَجْلُونِيَّةُ**» -الفريدَةُ النَّافعةُ -كما سيأتي- إنْ شاءَ اللهُ-.

... فهِيَ قصيدةٌ شعريَّةٌ رائعةٌ مِن «الشِّعرِ العِلميِّ»[٢] الرَّائقِ، الَّذِي يُنْتَفَعُ به علىٰ أكثرَ مِن وَجْهٍ، وفي أكثرَ مِن سَبيلٍ -رَوْنَقًا جَميلًا، ومعنًىٰ فائِقًا، وتَوجيهًا سَليمًا-.

وكَأنَّ ناظِمَها -رَحْمَةُ الله عليه- نَظَمَها -مَعْنًىٰ ورَوِيًّا، وقافِيَةً- علىٰ نَسَقِ قَصيدةِ «**خَلِّ ادِّكارَ الأَرْبُعِ**...»[٣] -الشَّهيرةِ- لِلعَلَّامةِ اللُّغويِّ أبِي محمدٍ القاسمِ بنِ عَلِيٍّ الحَريريِّ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥١٦هـ) -رحمةُ الله عليه- في خاتِمَةِ (مَقَامتِه) الخمسين -آخِرَ «مقاماتِهِ» -الأَشْهَرِ في عالَمِ الأَدَبِ-.

إلَّا أنَّ ناظِمَنَا -رَحِمَهُ اللهُ- زادَ عليها -إضافةً للتَّوجيهاتِ التعبُّدِيَّةِ، والتَّنبيهاتِ الأخلاقيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ-: قواعدَ عقائديَّة، وأُصولًا إيمانيَّةً -مُهِمَّةً -غايةً-؛ فَوق ما فِيها مِن الوَعْظِ والتَّذكِيرِ -أوَّلَها-.

وللبيانِ والتَّوضيحِ -والدُّخول فيما يُحيطُ بهذِهِ «**القصيدةِ العَجلُونِيَّةِ**» مِن حَيثيَّاتٍ وتَنبيهات- أقولُ:

---

(١) «المنظومات العقائديَّة» (ص١٠)!

(٢) «تاريخ آداب العرب» (٣/ ٥٤، ١٠٠) -لمُصطفَىٰ صادق الرَّافعيّ-.
والسَّابِقُ إلىٰ نَشْرِ هذه «**القَصيدةِ العَجلُونِيَّةِ**» هو الأخُ المُكَرَّمُ الشيخ محمّد زياد التُّكْلَة -وفَّقَهُ اللهُ- في كتابِه «مجموعة رسائل تراثيَّة» (١/ ٣٩)؛ فجزاهُ اللهُ خيرًا.
وبعدَ انتهائي مِن تأليف كتابي -هذا-، وقُبَيْل إرسالِه للطِّباعة-: وَقفتُ علىٰ شَرْحٍ مُختَصَرٍ لهذه «القصيدة» بعُنوان: «**المنظومة التِّبريزيَّة في العقيدة الصَّحيحة السُّنِّيَّة**» -في نحوِ مِئةِ صَفحةٍ-، مَطبوعًا طَبعةً خَيريَّةً -وَقفِيَّةً- (سَنَة ١٤٢٥هـ) -لِفضِيلة الدُّكتور مَرزوق بن هَيَّاس الزَّهراني -حفظهُ الله- وجزاهُ اللهُ خيرًا-.

(٣) ستأتِي جُمَلٌ مِنها -وشَرحِها-بَعدَ صَفحاتٍ يَسِيرةٍ -إنْ شاءَ اللهُ-.

إِنَّ مِن أَشْهَرِ «الأساليبِ الأدبيَّةِ»[١] -المُتداوَلَةِ بين الأُدباءِ والعُلماءِ -قديمًا وحديثًا - غير الشِّعرِ-: أُسلُوبَ (المَقاماتِ):

و«(المَقاماتُ)؛ هي: المَجالِسُ، وواحدتُها: (مَقامَةٌ).

والحديثُ يُجْتَمَعُ له، ويُجْلَسُ لاسْتِماعِهِ يُسمَّىٰ: (مَقامَةً)، و: (مَجْلِسًا)؛ لأنَّ المُستَمِعِين للمُتحدِّث ما بين قائمٍ وجالِسٍ، ولأنَّ المُتحدِّثَ يَقومُ بِبَعضِه -تارةً-، ويَجلِسُ -تارةً أُخرَىٰ-.

كما أنَّ (المَقامَةَ) هي: المَجلِسُ يَقومُ فيه الخَطيبُ يَحُضُّ علىٰ فِعلِ الخَيْرِ»[٢].

ومِن أَفْضَلِ هذه «المقامات» -«الشَّهيرةِ في أَيدِي النَّاس»[٣]-: «مقاماتُ الحَريريِّ» -القاسمِ بنِ عليِّ بنِ مُحمَّدٍ البَصْرِيِّ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥١٦هـ) -رَحِمَهُ اللَّهُ-؛ وهو «العلَّامةُ البارِعُ ذُو البَلاغتَيْن»[٤].

---

(١) «الفنُّ ومذاهبُه في النَّثْرِ العربيِّ» (ص٢٩٩) -شوقي ضَيْف-.

(٢) «البَديعُ عند الحريريِّ» -مقال لِمحمَّد بيلُو أحمد أبو بكر، منشور في «مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة» -بالمدِينَةِ المُنَوَّرة-: (عدد: رجب - شهر ذي الحِجَّة / سَنَة ١٤٠٠هـ).

(٣) «نُزهة الألِبَّاء في طبقات الأُدباء» (ص٢٧٨) -لكمال الدِين الأنباري-.

(٤) «سِيَر أعلام النُّبَلاء» (١٩/ ٤٦٤) -للذَّهَبِيِّ-.

وَنَقَلَ الحافظُ السُّيُوطِيُّ في «تاريخ الخُلفاء» (ص٢٠٦-٢٠٧) عن الإمامِ الذهبيِّ -المُتوفَّىٰ (سَنَةَ ٧٤٨هـ) -بخطِّه- قولَهُ: «مَن كانَ فَرْدَ زَمانِهِ في فَنِّهِ»؛ فذَكَرَ مِنهُم: (الحريري في «مقاماتِه»).

(فائدة): المقصودُ بِـ(البلاغتَيْن): (الشِّعرُ والنَّثرُ) -كما في تَعليقِ العَلَّامَةِ الزِّرِكْلِيِّ في «الأعلام» (٧/ ١٦٦) -لَهُ-.

=

وقد تَرْجَمَ لهُ الإمامُ ابنُ كَثير في «البداية والنِّهاية» (١٦/ ٢٦٠)، وقال: (مُؤلِّفُ «المَقاماتِ» -الّتي سارَت بها الرُّكبان، وكَادَ يُرْبِي فيها علىٰ سَحْبان[1]-...).

ثم نَقَلَ عن الإمامِ ابنِ الجَوزِيِّ -كَمَا في «المُنْتَظَم» (١٧/ ٢١٤) -لَهُ- قَوْلَهُ: (صَنَّفَ «المقاماتِ» -المَعرُوفَةَ-؛ مَن تَأمَّلَها عَرَفَ قَدْرَ مُنشِئِها...).

وممَّا يَدُلُّ علىٰ مَكَانَتِهِ الكُبْرَىٰ -في زَمانِهِ-:

ما رَواهُ الحافظُ أبو طاهِرٍ السِّلَفِيُّ في «مُعجَم السَّفَر» (١٤٢٣)، قال: «سمعتُ أبَا مُحمَّدٍ هِبَةَ اللهِ بْنَ الحُسَيْنِ بنِ تَغْلِبَ الواسِطِيَّ -المَعروفَ بِـ(ابنِ المُوَذَا) -التَّاجِرَ - بدِيارِ مِصرَ -سَنَةَ عِشرينَ وخَمسِ مِئة- يقولُ: «حَضَرْتُ القاسِمَ بنَ عليٍّ الحريريَّ -صاحبَ «المَقاماتِ» -بالبَصْرَةِ- ودَخَلَ عليهِ رَئيسٌ مِن رُؤَسائِها-، فقال: (إنْ قَصَدْتَ بفضْلِكَ، وإنْ قُصِدْتَ فلِفَضْلِكَ)».

وقال ياقُوتُ الحَمَوِيُّ في «مُعجَم الأُدباء» (٥/ ٢٢٠٢):

«لَهُ تصانِيفُ تَشهدُ بفضلِهِ، وتُقِرُّ بنُبْلِه، وكَفاهُ شاهِدًا كتابُ «المَقاماتِ»، الّتي بَزَّ

=

وقيل -بَدَلَ أَحدِهما-: «حُسْن الخَطّ» - كما في «ديوان المعاني» (٢/ ٨٦) -للعسكري-.

وقد فاتَ هذا اللَّفظُ (المُثنَّىٰ) مُؤلِّفَ كتابِ «مُعجَم الألفاظ المُثنَّاة»! -وقَبْلَهُ كِتابَ: «جَنَىٰ الجنَّتَيْنِ فِي تَمْيِيزِ نَوْعَيِ المُثَنَّيَيْنِ»!-!

(١) هو «سَحْبان وائل؛ الّذِي يُضْرَبُ به المَثَلُ في البَلاغَةِ».

«الإكمال» (٤/ ٣٦٧) -لابنِ ماكولا-، و«المؤتلف» (٣/ ١٣٤٢)-للدارَقُطْنِي-.

وانظُر «تاريخ دمشق» (٢٠/ ١٤٣) -لابنِ عَساكِر-، و«تَاج العَرُوس» (٣/ ٤٤) -لِلزَّبِيدِيِّ-.

بها علىٰ الأوائِلِ، وأَعْجَزَ الأواخِرَ».

وَطَوَّلَ في مَدْحِهِ، والثَّناءِ عليه، وذِكْرِ مَناقِبِهِ...

وقال الحافِظُ أبُو عَمْرِو ابنُ الصَّلاحِ في «طبقاتِ الفُقهاءِ الشافعيَّة» (٢/ ٦٦٢): «ولقد بَلَغَتْ به هذه «المَقاماتُ» أعلىٰ المقاماتِ، وأَحَلَّتْهُ مِن عُلُوِّ الذِّكْرِ وبُعْدِ الصِّيتِ بأرفعِ الدَّرجاتِ».

وقال عبدُ القادِرِ البَغدادِيُّ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (١٠٩٢هـ) في «خِزانة الأدب» (٣/ ١١٧) -عن هذه «المقامات»-: «اشتملَتْ علىٰ شيءٍ كثيرٍ مِن كلامِ العربِ -مِن لُغاتِها، وأمثالِها، ورُموزِ أسرارِ كلامِها-.

ومَن عَرَفَها حَقَّ معرفتِها: استدلَّ بها علىٰ فَضْلِه، وكَثْرَةِ اطِّلاعِه، وغَزارَةِ مادَّتِه».

ولو أَرَدْنا تَتَبُّعَ كَلامِ العُلماءِ فيه -رَحِمَهُ اللهُ- وفي «مقاماتِهِ»- لَطالَ بنا المَقام، وكَثُرَ الكَلام[1]...

... حتَّىٰ قالَ الأديبُ اللُّبنانِيُّ النَّصرانِيُّ الشَّهيرُ لُوَيْس شيخو في كتابِهِ «مَجانِي الأدَب في حدائقِ العَرَب» (٤/ ١٨١):

«لَمْ أَرَ في كُتُبِ العَرَبِيَّةِ والأدَب، ولا في تَصانِيفِ العَجَمِ والعَرَب كتابًا أحسَنَ تأليفًا، وأَعجبَ تَصنيفًا، وأَغربَ تَرْصيفًا، وأَشملَ للعجائبِ العربيَّةِ، وأجمعَ للغرائبِ الأدبيَّةِ، وأَكْثَرَ تضمُّنًا لأمثالِ العربِ، ونُكَتِ الأدَبِ: مِن «المَقامات»: الّتي

(١) ولَمَّا كُنتُ أجمعُ نُقولاتِ أهلِ العِلْمِ حَول هذِه «المَقامات»، ومُؤلِّفها: اجتمعَ عندي -حولَها- فوائدُ كثيرةٌ -جدًّا-؛ لعلِّي أَنْشَطُ لِجَمْعِها، وتحريرِها: في مناسبةٍ أُخرىٰ -بإذنِ الله-.

أنشأها الإمامُ جَمالُ العَصرِ، وكمالُ الدَّهرِ: أبو محمدٍ القاسِمُ بنُ عليٍّ الحَريريُّ البَصْرِيُّ -بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَه، وطيَّبَ مَهْجَعَه -إنشاءً فاخِرًا، وكتابًا باهِرًا، وتصنيفًا عجيبًا مُعْجِزًا(!)، وتأليفًا عزيزًا مُعْوِزًا.

نَعَم؛ كتابٌ بديعٌ، له قَدْرٌ رَفيعٌ، قد تمَّت حَسَنَاتُه، ودلَّت علىٰ الإعجازِ (!) آياتُه...»[١].

«وتَبْلُغُ عدةُ «مقاماتِه» خمسين[٢]، وهي -كُلُّها- حكاياتٌ دراميَّةٌ[٣].

وإنْ كان الحريريُّ لَم يَقصِدْ بها إلىٰ القَصَصِ مِن حيثُ هو، وإنَّما قَصَدَ بها إلىٰ تعليمِ النَّاشئةِ الأساليبَ الأدبيَّةَ.

وقد بناهَا علىٰ الرِّوايةِ؛ إذ يَروِي الحارثُ بنُ همَّامٍ أحاديثَها، ويقولُ ابنُ خَلِّكان[٤]: إنّه عَنَىٰ بهذا (الحارِثِ) نَفْسَهُ؛ أخْذًا مِن قولِهِ ﷺ: «**كُلُّكُم حارِثٌ، وكُلُّكُم هَمَّام**»[٥]، **والحارِثُ**: الكاسِبُ، .....

---

(١) وفِي وَصفِها بِـ(الإعجازِ) ما فِيهِ!!!

(٢) وقد سمَّاها ابنُ خَيْر في «فِهْرِستِه» (١٠١٧ و١٣٤٣): «كتاب الخمسين مقامة».

(٣) «**(الدّرامَا)**: هي نَوعٌ مِن النُّصُوصِ الأدَبِيَّةِ المُؤسَّسَةِ علىٰ مَبدأِ الصِّراعِ والتَّناقُضِ، وتَختلِطُ فيهَا كُلُّ المُشاعِرِ الإنسانِيَّةِ القابِلَةِ لِلتَّشخِيصِ..».

كما في مَقالَةِ «العَرَب وفَنّ (الدّراما)» -لِحَكِيم مَرزُوقِي -المَنشُورةِ في «مجلَّة العرَب» (١٥/ ١١/ ٢٠١٦)-.

وانظُر كِتاب «القِيَم في المُسَلْسَلاتِ التِّلفازِيَّة» (ص٩٩) -لِمُساعد بنِ عبدِ الله المُحَيَّا-.

(٤) في كتابِه «وَفَيات الأعيان» (٤/ ٦٤).

(٥) قال الحافظُ ابنُ كَثير في «البداية والنِّهاية» (١٦/ ٢٦٠): (كذا قال القاضي [ابنُ خَلِّكان]، =

والهَمَّامُ: كَثيرُ الاهتِمَامِ[١].

أمَّا الأديبُ المُتسوِّلُ -الّذي تُروَىٰ عنهُ «المقامات»-؛ فهو أبو زَيدٍ السَّرُوجِيُّ، وهو مِن أهلِ الكُدْيَةِ[٢]، الّذين احترَفُوا التَّسوُّلَ، مُتَّخِذِين وسيلتَهُم إلىٰ ذلك: الخَلْبَ[٣]؛ بصَوْغِ اللِّسان، وسِحْرِ البيان»[٤].

=

وإنَّما اللَّفظُ المَحفوظُ: «**أَصدَقُ الأسماء: حارثٌ وهمَّام**»).

قُلتُ: وهو مَروِيٌّ في «سُنَن أبي داود» (٤٩٥٠)، و«مسند أحمد» (١٩٠٣٢)، و«الأدب» -المُفرَد- (٨١٢) - للبُخاريِّ- وغَيرِها-.

وانظُر «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» (٩٠٤) -لشيخِنا الإمامِ الألبانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

(فائدة): أَرْجَحُ الأقوالِ في ضَبطِ حَرف (الخاء) مِن: (خَلِّكَان): الفَتح.

وانظُر لطيفةً في ذلك -وسَبَبِه-: «النُّور السَّافِر» (ص٣٤٧) -لِمُحْيِي الدِّين العَيْدَروس-.

(١) قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «دَرْء تعارُض العَقل والنَّقل» (٩/ ٣٧٣):

«(الحارِثُ) هو: الكاسبُ، و(الهَمَّام) هو: الَّذِي يُكثِرُ الهَمّ -والّذي هو أوَّلُ الإرادةِ-.

فالإنسانُ مُتحرِّكٌ بالإرادةِ، وكُلُّ مُريدٍ لا بُدَّ له مِن مُراد.

والّذي يَجِبُ أنْ يَكُونَ هو المُرادَ المَقصودَ بالحَرَكاتِ هو اللهُ؛ فصلاحُ النُّفوسِ وسَعادتُها وكمالُها في ذلك..».

وانظُر «بَصائِر ذَوِي التَّمْيِيز» (٥/ ٣٤٥) -لِلفِيرُوزآبادِي-.

(٢) هي «شِدَّةُ الدَّهر» -كما في «القامُوس المُحيط» (ص١٣٢٧) -لِلفِيرُوزآبادِي-.

والمَقصُودُ بِها -هُنا-: التَّسَوُّل، وسُؤالُ النَّاسِ تَكَفُّفًا.

وانظُر «تصحيح التَّصحيف» (ص٤٩٢) - للصَّلاح الصَّفدي-.

(٣) هو «الخِداعُ» -كما في «القاموس المحيط» (ص٨١).

(٤) «الفَنُّ ومذاهبُه في النَّثر العربيِّ» (ص٢٩٩) -للدُّكتور شوقي ضَيف-.

□ نُبذَة تَاريخيَّة:

قال القَلْقَشَنْدِيُّ في «صُبْحِ الأَعْشَىٰ في صِناعَةِ الإنشا» (١٤/ ١٢٥) -تَحتَ عُنوان: «فُنُونٌ مِن الكِتابَةِ يَتداوَلُها الكُتَّابُ -وتتَنافَسُ في عَمَلِها-؛ ليسَ لها تَعَلُّقٌ بِكتابةِ (الدَّواوين السُّلطانِيَّة) -ولا غَيْرِها-»:

«(**المَقامات**): جَمْعُ (مَقامة) -بفَتْحِ المِيم-؛ وهي -في أَصلِ اللُّغَةِ-: اسمٌ للمَجلِسِ، والجَماعةِ مِن النَّاس.

وسُمِّيَت الأُحدُوثَةُ مِن الكَلامِ: (مَقامَة)؛ لِأَنَّها تُذْكَرُ في مَجلِسٍ واحِدٍ، يَجتمعُ فيهِ الجَماعةُ مِن النَّاسِ لِسماعِها.

أمَّا (المُقامَةُ) -بالضَّمِّ-؛ فبِمَعنَىٰ: الإقامَةِ[1]».

واعْلَم أنَّ أوَّلَ مَن فَتَحَ بابَ عَمَلِ (المَقاماتِ): عَلَّامَةُ الدَّهرِ، وإمامُ الأَدَبِ، البَدِيعُ الهَمَذانِيُّ[2]، فعَمِلَ «مَقاماتِه» المَشهُورةَ، المَنسُوبَةَ إليهِ.

وهي في غايَةٍ مِن البَلاغَةِ، وعُلُوِّ الرُّتْبَةِ في الصَّنْعَةِ.

ثُمَّ تَلاهُ الإمامُ أبُو محمدٍ القاسِمُ الحَرِيريُّ؛ فعَمِلَ «مَقاماتِهِ» الخَمسِين -المَشهُورة-؛ فجاءَت نِهايَةً في الحُسْنِ، وأتَت علىٰ الجُزءِ الوافِرِ مِن الحَظِّ، وأَقْبَلَ

---

(١) انظُر «نُكَت وتَنبيهات في تَفسِير القُرآن المَجِيد» (٣/ ٤٣٧) -لابنِ عَرَفَة-.

(٢) المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٩٨هـ) -رَحِمَهُ اللهُ-.

تَرْجَمَهُ ياقُوتُ في «مُعجَم الأُدَباء» (١/ ٢٣٤)، والثَّعالِبِيُّ في «يَتِيمَة الدَّهْر» (٤/ ٢٥٦).

وحَوْلَ «مَقاماتِهِ»؛ انظُر «الدَّلِيل إلىٰ المُتُون العِلمِيَّة» (ص٦٨٢) لِفَضِيلَةِ الأَخِ الكَبِيرِ المُكَرَّمِ الشَّيخ عبدِ العزيزِ بنِ قاسِم -نَفَعَ اللهُ بِهِ-.

عليها الخاصُّ والعامُّ، حتَّىٰ أَنْسَت «مَقاماتِ البَدِيعِ»، وصَيَّرَتْها كالمَرفُوضَةِ.

علىٰ أنَّ الوَزِيرَ ضِياءَ الدِّينِ بنَ الأَثِيرِ[١] - في «المَثَلِ السَّائِرِ» -لَمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ، ولا عامَلَهُ بالإنصافِ، ولا أَجْمَلَ مَعَهُ القَولَ! فإنَّه قد ذَكَرَ أنَّهُ لَيسَ لهُ يَدٌ في غيرِ «المقاماتِ»!

حتَّىٰ ذَكَرَ عن الشَّيخِ أَبِي مُحمَّدٍ أَحمدَ بنِ الخَشَّابِ[٢] أنَّهُ كان يَقُولُ: (إنَّ الحَرِيريَّ رَجُلُ «مَقامات»)؛ أيْ: أنَّهُ لَم يُحْسِنْ مِن الكَلامِ المَنثُورِ سِواهَا؛ فإنْ أَتَىٰ بِغَيْرِها فلا يَقُولُ شيئًا!

وذُكِرَ أنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَغدادَ، ووَقَفَ علىٰ «مَقاماتِه»، قِيل: هذا يُسْتَصْلَحُ لِكتابةِ الإنشاءِ في (دِيوانِ الخِلافَةِ)، ويَحْسُنُ أَثَرُهُ فيهِ، فأُحضِر، وكُلِّف كِتابَةَ كِتابٍ، فأُفحِمَ،

---

(١) المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٦٣٧) -رَحِمَهُ اللهُ-.
تَرْجَمَتُهُ في «وَفَيَات الأعيان» (٥/ ٣٨٩)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/ ٢٥٨) -للذَّهبِيِّ-.
وانظُر «المَثَل السّائر..» (ص٣٩) -لَهُ-.
وتَعَقَّبَهُ الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ في «نُصرَة الثَّائر» (ص٥٦- فما بَعْد)، ومِمَّا قال: (أصاب ابنُ الخَشَّاب في أَقَلِّ القَلِيل)، فلْيُنظَر.

(٢) اسمُهُ: عبدُ الله بنُ أَحمدَ بنِ أَحمدَ بنِ أَحمدَ بنِ عَبدِ الله بنِ نَصْرِ بنِ الخَشَّاب.
وقد تُوُفِّيَ سَنَةَ (٥٦٧هـ) -رَحِمَهُ اللهُ-.
وهُو مُتَرْجَمٌ في «سِيَرِ أَعلامِ النُّبَلاء» (٢٠/ ٥٢٣) -لِلذَّهَبِيِّ-.
ولابْنِ الخَشَّاب «انْتِقادٌ» علىٰ «المَقاماتِ»!
ورَدَّ عليهِ ابنُ بَرِّي -مُنْتَصِرًا للحَرِيرِيِّ-.
وللدُّكتُور خالد كَبِير علال -وفَّقَهُ اللهُ- مَقالٌ مَنشُورٌ علىٰ(شبكة الإنترنت)-بِتاريخ: (١١/ ١٢/ ٢٠١١) -في المُحاكَمَةِ بَيْنَهُما-.

ولَم يَجْرِ لِسانُهُ في طَوِيلِهِ ولا قَصِيرِه؛ حتَّىٰ قالَ فيهِ بعضُهم[١]:

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الفَرَسْ … يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ مِنَ الهَوَسْ
أَنْطَقَهُ اللهُ بالمُشَانِ[٢] وفِي … بَغْدَادَ أَضْحَىٰ المَلْجُومَ بالخَرَسْ!

واعْتُذِرَ عَنهُ بِأنَّ «المَقاماتِ» مَدارُها -جَمِيعِها- علىٰ حِكايَةٍ تَخْرُجُ إلَىٰ مَخْلَصٍ؛ بِخِلافِ المُكاتَبَاتِ: فإنَّها بَحْرٌ لا سَاحِلَ لَهُ -مِن حَيثُ إنَّ المَعانِيَ تَتَجَدَّدُ فِيها بِتَجَدُّدِ حَوادِثِ الأَيَّامِ، وهِي مُتَجَدِّدَةٌ علىٰ عَدَدِ الأَنفاسِ[٣]-...»[٤].

(١) هُو أَبُو القاسِم عَلِيُّ بنُ أَفْلَح -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥٣٥هـ) -رَحِمَهُ اللهُ-.
كما نَصَّ عَليهِ ابنُ خَلِّكَان في «وَفَيَاتِ الأَعيان» (٤/ ٦٥).
وهُو مُتَرْجَمٌ عِندَهُ (٣/ ٣٨٩) -فِيهِ-.

(٢) قالَ ابنُ كَثِيرٍ في «البِدايةِ والنِّهايَة» (١٦/ ٢٦١): «هُو مَكانٌ بالبَصْرَةِ».
قُلتُ:
وأَكثَرُ مَن رَوَىٰ البَيْتَ الثَّانِي مِن هذا الشِّعر -مِن المُؤرِّخِين- رَواهُ بِلَفظ:
أَنْطَقَهُ اللهُ بالمُشانِ وَقَدْ … أَلْجَمَهُ في العِراق بالخَرَسْ
كَمَا في «إِنْباه الرُّواة» (٣/ ٢٦)، و«سِيَر أعلام النُّبَلاء» (١٩/ ٤٦٤)، و«أعيان العَصر» (٤/ ٤٦٨) -وغيرِها-.

(٣) وقال القَلْقَشندِيُّ في «صُبْحِ الأَعشَىٰ» (١/ ٨٦) -أيضًا-:
«تَنَقَّصَ الوَزِيرُ ضِياءُ الدِّينِ بنُ الأَثِير -في «المَثَل السَّائر»- «المَقامات الحريريَّة»، وازْدَرَاهَا؛ جانِحًا إلىٰ أَنَّها صُوَرٌ مَوضُوعَةٌ في قَوالِبِ حِكاياتٍ مَبْنِيَّةٍ علىٰ مَبدأٍ ومَقْطَعٍ، بِخِلافِ الكتابةِ؛ فإنَّ أَحوالَها غيرُ مُتناهِيَةٍ، ولو رُوعِيَ حالُ ما يَكتُبُه الكاتِبُ -في أدنَىٰ مُدَّةٍ- لَكانَ مِثلَ «المَقاماتِ»- مَرَّات-».

(٤) وقد ذَكَرَ القَلْقَشَندِيُّ -المُتوفَّىٰ (سَنَةَ ٨٢١هـ)- في «صُبح الأعشَىٰ» (١/ ٥١١)-الحَريريَّ
=

❑ (لطيفةٌ):

في (المقامة السَّادسة والأربعين) -مِن «مقامات الحريري» (ص٤٩٩)-وهي «المقامة الحلبيَّة»-: ذَكَرَ الحريريُّ بَيْتَي شِعْرٍ جَعَلَا الإمامَ ابنَ كَثيرٍ -وغيرَه مِن العُلماءِ- يَهتمُّونَ بِهِما-؛ فقد قالَ -رَحِمَهُ اللهُ- في «البداية والنِّهاية» (١٦/ ٦٨٣) -في ترجمة (القاضي أَبِي الحَسَن عليِّ بن جابِرِ بنِ زُهَيْر بنِ عليّ البَطائِحِيِّ) -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥٩٤هـ) -ما نَصُّهُ-:

«وقد سَمِعَ مِن شَيخِهِ أبِي عَبدِ الله بنِ النَّبيه يُنشِدُ -لِنَفْسِهِ- مُعارِضًا لِلحَرِيرِيِّ- في بَيْتَيْهِ اللَّذَيْنِ زَعَمَ أَنَّهُمَا لا يُعَزَّزَانِ بِثالِثٍ -لَهُما-، وهُمَا قَوْلُهُ:

سِمْ سِمَةً يُحْمَدُ آثَارُهَا ... واشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَىٰ وَلَوْ سِمْسِمَهْ
والمَكْرُ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ ... لِتَقْتَنِيْ السُّؤْدُدَ والمَكْرُمَه

فقال ابنُ النَّبيه:

مَا الأَمَةُ الوَكْعَاءُ بَيْنَ الوَرَىٰ ... أَحْسَنُ مِن حُرٍّ أَتَىٰ مَلْأَمَهْ
فَمَهْ إِذَا اسْتُجْدِيتَ عَنْ قَوْلِ (لَا) ... فَالحُرُّ لا يَمْلَأُ مِنْهَا فَمَهْ»[1]

=
و«مَقاماتِه» في (مَن كان فَرْدًا في زَمانِهِ -بحيثُ يُضرَبُ بِهِ المَثَلُ في أَمثالِهِ-).
وكَرَّرَهُ في (١١/ ٣٠٤) -في سِياقٍ قَرِيبٍ مِنهُ-.
وقد نَقَلَ عنهُ في مَواضِعَ مِن كِتابِهِ (١/ ٨٧، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٩)، و(٢/ ٢٩٣ و٣٠٥ و٣٠٦)، و(٥/ ٤٣٨)، و(١٤/ ٢٥٣).
وتَعَقَّبَهُ في (٢/ ٣١٦)، و(١٤/ ١١٣) -منهُ-.
وقارِن بِمَا تقدَّم عن الإمامِ الذَّهبِيِّ (ص١٦).
(١) وانظُر «نهاية الأرب في فُنون الأدب» (٧/ ١١٢) -للنُوَيرِيِّ-.

وقال ابنُ دِحْيَةَ في «المُطْرِب مِن أشعارِ أهلِ المَغرِب» (ص٢٣٨) -في ترجمة (أبي القاسم السُّهَيلِيِّ)-:

«قال لي -يومًا-: يا عَجَبًا للحَرِيرِيِّ! حيثُ يَقول -في بَيْتَيه-: قد أَمِنَّا أنْ يُعَزَّزَا بِثالِث! فقد جاءَ مَن عَزَّزَهُما بِثالثٍ، ورابِعٍ، وخامِسٍ، وسادِسٍ، وسابِعٍ، وثامِنٍ، وتاسِعٍ، وعاشِرٍ، وحادِي عَشَر، وثانِي عَشَر!![1]»!

وقال السُّيوطِيُّ في «بُغية الوُعاة» (٢/ ٢٥٩) -مُتَعَقِّبًا الحَرِيريَّ-: «وأَكثَرَ النَّاسُ بِتعزِيزِها».

وفي كتاب «الذَّيل والصِّلَة لِكتابَي (الموصول)، و(الصِّلَة)» (٢/ ٥٠) -للمرَّاكشيّ-: سَوْقٌ لِعَدَدٍ مِن الاستِدراكاتِ الشِّعريَّةِ علىٰ هذَيْنِ البَيْتَين -مُنتقِدًا لها-!!

وانظُر «مُعجَم الأدباء» (٤/ ١٦١٦) -لياقوت الحَمَوِيِّ-.

وهذا مُلَخَّصُ نَصٍّ -مُهِمٍّ -جدًّا- مِن مَقامَةٍ مِن «مقاماتِه» الخمسين -والّتي هي الأخيرةُ في«مقاماتِه»!-، وعنوانُها:

---

(١) وفي «البدر الطّالع» (١/ ١٤٤) -في ترجمة (إسماعيل بن أبي بكر الشَّرْجيّ)- المُتوفَّىٰ سَنَة (٨٣٧هـ): أنّه أَوْصَلَ استدراكاتِه عليها إلىٰ خمسِينَ بَيْتًا!

المقامة البصريَّة[١]

والّتي ضَمَّنها قصيدتَهُ الرَّائعةَ «**خَلِّ ادِّكارَ الأَرْبُعِ..**» -المُتَقَدِّمَةَ الإشارةُ إليها-.

... ومِمَّا قال -فِيها-:

«حَكَىٰ الحارِثُ بنُ هَمَّام[٢]؛ قال: أُشْعِرْتُ[٣] -في بعضِ الأَيَّام- هَمًّا بَرَّحَ[٤] بِيَ اسْتِعارُه[٥]، ولاحَ عَلَيَّ شِعارُه[٦]:

وكُنتُ سَمِعتُ أنَّ غِشيَانَ مَجالِسِ الذِّكْر يَسْرُو[٧] غَوَاشِيَ الفِكْر[٨]؛ فلَم أُرَ

---

(١) والحواشي -هُنا- مُنْتَقاةٌ مِن «شَرحِ الشَّرِيشي» علىٰ «المقامات» (٥/ ٣٤٣-٣٧٦).

وما زِدتُه عَلَيها: رَمَزْتُ له بحَرْفِ (ع) -إشارةً إلىٰ اسْمِي-.

وقد أَضَعُهُ -للتَّمييزِ- بَيْنَ مَعقوفَتَيْنِ.

وكُنتُ -مُنذُ سَنواتٍ- شَرَحتُ هذه (القَصيدَةِ) = «**خَلِّ ادِّكَارَ الأَربُعِ..**» -شَرْحًا مُتوسِّطًا-، ودَفَعْتُهُ للطِّباعَةِ، ثُمَّ ... كأنَّهُ (جَحَدَهُ) طابِعُهُ ! و.. و..!!

لا مُفَرِّجَ إلَّا الله ...

(٢) وهو الرَّاوي -المُفْتَرَضُ- لِهذِه «المَقاماتِ» -كُلِّها-.

وانظُر ما تَقَدَّمَ (ص١٢).

(٣) أُلْبِسْتُ.

(٤) شَقَّ واشْتَدَّ.

(٥) تَوَقُّدُهُ في القَلْبِ.

(٦) **لاحَ**: ظَهَرَ؛ يُريدُ: أنَّهُ لَبِسَ الهَمَّ كالشِّعار.

والشِّعار: ثَوبٌ يَلِي الجَسَد.

والشِّعار: علامة القَوم في الحَرْب، فمعناهُ: عَبَسَ وَجْهُهُ مِن شِدَّةِ الهَمِّ.

(٧) **يَسْرُو**: يُزيلُ.

(٨) ما يَغشاهُ ويَدْخُلُ عليه مِن الهَمِّ.

لإطفاءِ ما بِي مِن الجَمْرَة إلَّا قَصْدَ الجامِعِ بالبَصْرَة...

فانْطَلَقْتُ إليهِ غَيْرَ وَان[١]، ولا لاوٍ[٢] علىٰ شَان.

فلمَّا وَطِئْتُ حَصَاه، واسْتَشْرَفْتُ أَقْصَاه: تَرَاءَىٰ لي شيخُنا السَّرُوجِيُّ[٣] -لا رَيْبَ فِيه، ولا لَبْسَ يُخْفِيه[٤]-، فانْسَرَىٰ[٥] بِمَرْآهُ هَمِّي، وَارْفَضَّتْ[٦] كَتِيبةُ غَمِّي[٧].

وحينَ رَآنِي[٨]، وبَصُرَ بمَكانِي، قال: يا أهلَ البَصْرَةِ -رَعاكُمُ اللهُ[٩] ووَقَاكُم[١٠]-، وقَوَّىٰ تُقاكُم[١١]؛ فما أضْوَعَ رَيَّاكُم[١٢]، وأَفْضَلَ مَزَاياكُم[١٣]...

---

(١) غَير مُتمهِّل.

(٢) لا يَلتفِت.

(٣) وهو (أبو زَيد): الشَّخصِيَّةُ المُفْتَرَضَةُ؛ الّذي تَدُورُ علىٰ قَصَصِهِ وحِكاياتِهِ هذِه «المقاماتُ» -كُلُّها- (ع).

(٤) يَسْتُرُهُ.

(٥) زالَ وانْكَشَفَ.

(٦) تَفَرَّقَت.

(٧) **كَتِيبةُ غَمِّي**؛ أي: عَسْكَرُهُ.

والمقصودُ: الكَثْرَةُ (ع).

(٨) قولُهُ: وحينَ رآنِي؛ يُريد: أنَّ السَّرُوجِيَّ عَلِمَ أنَّ ابنَ هَمَّام يَعْرِفُ مَكْرَهُ النَّاسُ في كُلِّ بَلَدٍ، فخَشِيَ ألَّا يُسْمَحُ له بخِداعِ أهلِ بَلَدِهِ، فأخَذَ يَمدَحُ البَصْرَةَ وأهلَها -لِيُرضِيَهُ بذلك-.

(٩) حَفِظَكُم.

(١٠) كَفاكُم ما يُحْذَر.

(١١) خَوْفُكُم للهِ.

(١٢) **أَضْوَعَ رَيَّاكُم**: أَفْوَحَ رائحتكم.

(١٣) فَضائلَكُم الّتي خُصِصْتُم بها.

... وما مِن فَخْرٍ إلَّا ولَكُم فيه اليَدُ الطُّولَىٰ[١]، والقِدْحُ المُعَلَّىٰ[٢]، إلَّا وأنتُم أحَقُّ به وأَوْلَىٰ...

... وأمَّا أَنَا؛ فمَن عَرَفَنِي: فأنَا ذَاك، وشَرُّ المَعارِفِ مَن آذَاك.

ومَن لَم يُثْبِتْ عِرْفَتِي[٣]، فسَأَصْدُقُهُ صِفَتِي:

أَنَا الّذِي أَنْجَدَ وَأَتْهَم[٤]، وأَيْمَنَ وأَشْأَم[٥]، وأَصْحَرَ وأَبْحَر[٦]، وأَدْلَجَ وأَسْحَر[٧].

نَشَأْتُ[٨] بسَرُوج[٩]، ورَبِيتُ علىٰ السُّرُوج[١٠].

ثُمَّ وَلَجْتُ[١١] المَضايِق، وفَتَحْتُ المَغالِق، وأَذَبْتُ الجَوامِد، وأَمَعْتُ الجَلامِد[١٢].

---

(١) أي: القُدْرَة الكامِلَة (ع).

(٢) النَّصِيب الأَوْفَر (ع).

(٣) أي: مَن لَم يَعْرِفْنِي (ع).

(٤) أَتَىٰ نَجْدًا وتِهامَةَ.

(٥) أَتَىٰ اليَمَنَ والشَّام.

(٦) مَشَىٰ في الصَّحراء والبَحْر.

(٧) مشَىٰ باللَّيلِ والسَّحَر [الّذِي هُو آخِرُ اللَّيلِ (ع)].

(٨) كَبِرْتُ.

(٩) قال البَكْرِيُّ في «مُعجم ما اسْتُعْجِم» (٣/ ٧٣٧): «بَلَدٌ يَقْرُبُ مِن أَرضِ الجَزِيرَةِ».
وهي -الآن- تَقَعُ قُرْبَ (الفُراتِ) -في دولة تُركيا- شمال شرق مدينة (عين العرب) - السُّورية- (ع).

(١٠) الخُيول والفُروسية (ع).

(١١) دَخَلْتُ.

(١٢) مُفرَدُها: (جُلْمُود)، وهو: الصَّخر (ع).

سَـلُوا عنِّـي المَـشارِقَ والمَغـارِب، والمَناسِـمَ[١] والغَـوارِب[٢]، والمَحافِـلَ[٣] والجَحافِل[٤]، والقَبائلَ والقَنابِل[٥].

واسْتَوْضِـحُونِي[٦] مِـن نَقَلَـةِ الأَخْبَـار، ورُواةِ الأَسْـمار[٧]، وحُـدَاةِ[٨] الرُّكْبَـان، وحُذَّاقِ الكُهَّان؛ لِتَعْلَمُوا كَم فَجٍّ[٩] سَلَكْت[١٠]، وحِجابٍ هَتَكْـت[١١]، وكَـم أَلْبَـابٍ[١٢] خَدَعْت، وبِدَعٍ[١٣] ابْتَدَعْت.

ولكِنْ؛ فَرَطَ ما فَرَطَ[١٤] والغُصْنُ رَطِيب[١٥]،.....

(١) أَخْفَافُ الإِبِل.
(٢) مَقادِمُ ظُهورِها.
(٣) الجُمُوعُ.
(٤) الجُيُوشُ.
(٥) جَماعةُ الخَيلِ، واحدُها: قُنْبُلَة.
(٦) اطْلُبُوا بَيانَ أَمْرِي.
(٧) الأحاديث باللَّيل يُسْمَرُ عليها.
(٨) خُدَّام الإِبِل.
(٩) طريق في الجَبَل.
(١٠) دَخَلْتُ.
(١١) خَرَقْتُ.
(١٢) عُقول.
(١٣) جَمْعُ (بِدعة)؛ وهي: الشَّيْءُ المُبْدَع [المُخْتَرَع (ع)].
(١٤) أي: سَبَقَ ما سَبَق.
(١٥) ناعِم، وغُصْنُه: قامتُه.

والفَوْدُ[١] غِرْبِيب[٢]، وبُرْدُ[٣] الشَّبابِ قَشِيب[٤]!

فأمَّا الآنَ -وقَدِ اسْتَشَنَّ الأَدِيم[٥]، وتأَوَّدَ القَوِيم[٦]، واسْتَنارَ[٧] اللَّيلُ البَهِيم[٨]-؛ فلَيْسَ إلَّا النَّدَمُ -إنْ نَفَع-، وتَرْقِيعُ الخَرْقِ الَّذِي قد اتَّسَع.

فقصدتُكُم أُنْضِي الرَّواحِل[٩]، وأَطْوِي المَراحِل[١٠]؛ حتَّىٰ قُمْتُ هذا المَقامَ لَدَيكُم، ولا مَنَّ[١١] لي عليكُم؛ إذْ ما سَعَيْتُ إلَّا في حاجَتِي، ولا تَعِبْتُ إلَّا لِراحَتِي.

ولَسْتُ أَبْغِي[١٢] أُعْطِيَتَكُم[١٣]، بَل أَسْتَدْعِي أَدْعِيَتَكُم[١٤].

---

(١) ناحية الرَّأس.

(٢) أَسْوَد.

(٣) ثَوْب.

(٤) جديد.

(٥) يَبِسَ الجِلْدُ، والشَّنّ: القِرْبة البالِية اليابِسَة.

(٦) اعوجَّ المُعتدِل.

(٧) أضاء.

(٨) الشَّعْر الأَسْوَد.

(٩) أُهْزِلُ الإبِلَ [مِن كَثْرَةِ السَّفَرِ والتَّرْحال (ع)].

(١٠) أَقطعُ الأرضَ مُجتهِدًا [**والمَرْحَلَةُ**: اسمٌ لِمَسافَةٍ يَقْطَعُها المُسافِرُ في يَوْمِهِ (ع)].

(١١) إحسان.

(١٢) أَطلُبُ.

(١٣) اسْمٌ لِمَا يُعْطَىٰ.

(١٤) اسمٌ لِمَا يُدْعَىٰ.

فادْعُوا إلىٰ اللهِ بِتَوفِيقِي للمَتَاب، والإعدادِ للمَآب[١]؛ فإنَّه رَفيعُ الدَّرَجات، مُجيبُ الدَّعَوات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ[٢] عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[الشورى: ٢٥].

قال الرَّاوِي:

فَطَفِقَتِ[٣] الجَماعةُ تُمِدُّهُ بالدُّعاء[٤] -وهو يُقَلِّبُ وَجْهَهُ في السَّماء-؛ إلىٰ أنْ دَمَعَت أَجْفانُه، وبَدَا رَجَفانُه[٥]، فصاحَ: اللهُ أكْبَرُ؛ بانَتْ[٦] أَمارَةُ الاستِجابَة، وانْجابَتْ[٧] غِشاوَةُ الاسْتِرابَة[٨].

فجُزِيتُم -يا أهلَ البُصَيْرَةِ- جَزاءَ مَن هَدَىٰ مِن الحَيْرَة.

---

(١) الرُّجُوعُ.

قُلتُ:

ذَكَّرَتْنِي هذه (التَّوبةُ!) -مِن جهةٍ-ما!- بتوبة الشَّاعِرِ الأُرْدُنِّيِّ مُصطفَىٰ وهبي التَّل (عَرار) -رَحِمَهُ اللهُ- كَمَا نَظَمَها شِعْرًا (!) في دِيوانِه «عَشِيَّات وادِي اليابِس» (ص١٨)-!

لَكِنَّهُ سَرَعَان ما تَاب مِن تَوبَتِه!! ورَجَعَ إلىٰ سابِقِ سِيرتِهِ-كما نَظَمَ ذلك شِعْرًا طريفًا-أيضًا- في «عَشِيَّاتِهِ» (ص٢١)!!

(٢) يَمْحُو.

(٣) أي: أَخَذْتُ وجَعَلْتُ.

(٤) أي: تَصِلُ دُعاءَها بدُعائِه، وتَقولُ: (أَمْدَدْتَهُ بالمالِ)، إذا قَوَّيْتَهُ بِهِ.

(٥) اهْتِزازُه.

(٦) ظَهَرَتْ.

(٧) انْكَشَفَتْ وزالَتْ.

(٨) غِطاءُ الشَّكِّ.

فلَم يَبْقَ مِن القَوْمِ إلَّا مَن سُرَّ لِسُرُورِه، ورَضَخَ[١] لهُ بِمَيْسُورِه[٢].

فقَبِلَ عَفْوَ بِرِّهِم[٣]، وأَقْبَلَ يُغْرِقُ[٤] في شُكْرِهِم.

[ثُمَّ] قُلْتُ لَهُ:

لقدْ أَغْرَبْتَ في هذه النَّوْبَة[٥]؛ فمَا رَأْيُكَ في التَّوْبَة؟!

فقال: أُقْسِمُ بِعَلَّامِ الخَفِيَّات، وغَفَّارِ الخَطِيَّات: إنَّ شأنِي لَعُجاب؛ وإنَّ دُعاءَ قَومِكَ لَمُجاب.

فقُلْتُ: زِدْنِي إفْصاحًا[٦] -زادَكَ اللهُ صَلاحًا-!

فقالَ: لَقَد قُمْتُ فيهم مَقامَ المُرِيبِ[٧] الخادِع، ثُمَّ انْقَلَبْتُ[٨] مِنْهُم بقَلْبِ المُنِيب[٩] الخاشِع[١٠]!

---

(١) أَعْطَىٰ.

(٢) ما تَيَسَّرَ لهُ.

(٣) **وعَفْو بِرِّهِمْ**: فَضْلُ إحسانِهِم.

(٤) يُكْثِرُ الكَلامَ، ويُطْنِبُ في الشُّكْرِ.

(٥) المَرَّة (ع).

(٦) بَيانًا.

(٧) صاحِب الرِّيبَةِ والشَّكِّ.

(٨) رَجَعْتُ (ع).

(٩) الرَّاجِع إلىٰ اللهِ بِتَوبَتِهِ.

(١٠) هو الخاضِع.

فطُوبَىٰ لِمَن صَغَتْ[١] قُلُوبُهُم إِلَيه، ووَيْلٌ لِمَن باتُوا يَدْعُونَ عليه!

ثُمَّ وَدَّعَنِي وانْطَلَق، وأَوْدَعَنِي القَلَق.

فلَمْ أَزَل أُعانِي[٢] لِأَجْلِهِ الفِكَر، وأَتَشَوَّفُ[٣] إِلىٰ خِبْرَةِ[٤] ما ذَكَر.

[ثُمَّ] ارْتَحَلْتُ رِحْلَةَ المُعِدّ[٥]، وسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ المُجِدّ؛ حتَّىٰ حَلَلْتُ بِمَسْجِدِه، وقَرارَةِ[٦] مُتَعَبَّدِه[٧]، [وذلك] بِسَرُوج -بَعْدَ أنْ فارَقَها العُلُوج[٨]-].

فإذَا [أَبُو] زَيْدِها -المَعرُوف-، قَدْ لَبِسَ الصُّوف، وأَمَّ الصُّفُوف، وصارَ بِها الزَّاهِدَ المَوْصُوف، وقَدْ نَبَذَ[٩] صُحْبَةَ أَصْحَابِه، وانْتَصَبَ[١٠] في مِحْرَابِه[١١].

فَهِبْتُهُ مَهابَةَ مَن وَلَجَ[١٢] علىٰ الأُسُود، .....

---

(١) مَالَتْ.

(٢) أُقاسِي.

(٣) أَتَطَلَّعُ.

(٤) اخْتِبار.

(٥) الكامِلُ العُدَّة في السَّفَر.

(٦) المَوضِع الّذِي يَقَرُّ فيه.

(٧) مَوضِعُ عِبادتِه.

(٨) الرُّوم.

(٩) تَرَكَ.

(١٠) قامَ وَوَقَفَ.

(١١) **المِحْراب** -عند العَرَب-: سيِّد المَجالِس ومُقَدَّمُها وأَشْرَفُها.

وقِيل للقِبْلَةِ: مِحراب؛ لأنَّه أَشْرَفُ مَوضِعٍ في المَسْجِدِ.

(١٢) دَخَلَ.

وأَلْفَيْتُهُ[١] مِمَّن ﴿سِيمَاهُمْ [٢]فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ولَمَّا فَرَغَ مِن سُبْحَتِه[٣]، حَيَّانِي بمُسَبِّحَتِه[٤] -مِن غَيْرِ أنْ نَغَمَ[٥] بِحَدِيث، ولا اسْتَخْبَرَ عن قَديمٍ ولا حَدِيث-.

ثُمَّ أَقْبَلَ علىٰ أَوْرادِه[٦]، وتَرَكَنِي أَعْجَبُ مِن اجْتِهادِه، وأَغْبِطُ[٧] مَن يَهْدِي اللهُ مِن عِبادِه.

ولَم يَزَل في قُنُوتٍ[٨] وخُشُوع، وسُجُودٍ ورُكُوع، وإِخباتٍ[٩] وخُضوع: إلىٰ أنْ أَكْمَلَ إقامَةَ الخَمْس، وصارَ اليَومُ أَمْس.

فحِينَئِذٍ: انْكَفَأَ[١٠] بِي إلىٰ بَيْتِه، وَأَسْهَمَنِي[١١] في قُرْصِه وزَيْتِه.

---

(١) وَجَدْتُهُ.

(٢) عَلامَتُهُم.

(٣) نافِلَتِه.

(٤) **حَيَّانِي بمُسَبِّحَتِه**؛ أي: بِسَبَّابَتِه.

(٥) **نَغَمَ**: تَكَلَّمَ بكَلامٍ خَفِيٍّ.

(٦) **الأَوْرَاد**: جَمْعُ (وِرْد)؛ وهو: النَّصِيبُ مِن القُرآن يَقُومُ بِهِ الإنسانُ كُلَّ لَيْلَةٍ.

(٧) أَحْسُدُ، وأَتَمنَّىٰ أنْ أَكُونَ مِثْلَهُ.

قُلتُ: وهذا فَرْقُ ما بَيْنَ (الغِبطة) المحمودةِ، والحَسَدِ المذمُومِ؛ الّذي يَتَضَمَّنُ حُبَّ زَوالِ النّعمةِ.

(٨) يُقال: قَنَتَ الرَّجُلُ، إذا أَخَذَ في التَّعظيمِ والدُّعاءِ للهِ -تعالىٰ-.

(٩) تَذَلُّل.

(١٠) انْقَلَبَ [ورَجَعَ (ع)].

(١١) أَعطانِي سَهْمًا؛ أيْ: نَصِيبًا.

ثُمَّ نَهَضَ إلىٰ مُصَلَّاه، وتَخَلَّىٰ بِمُناجَاةِ مَوْلاه.

حتَّىٰ إذا الْتَمَعَ الفَجْر، وحَقَّ للمُتَهَجِّدِ الأَجْر: عَقَّبَ تَهَجُّدَهُ[١] بالتَّسْبِيح، ثُمَّ اضْطَجَعَ ضِجْعَةَ المُسْتَرِيح، وجَعَلَ يُرَجِّعُ[٢] بِصَوْتٍ فَصِيح:

خَلِّ[٣] ادِّكَارَ[٤] الأَرْبُعِ[٥] وَالمَعْهَـــدِ المُرْتَبِـــعِ[٦]

وَالظَّـــاعِنِ[٧] المُـــوَدِّعِ وَعَـــــدِّ عَنْـــــهُ وَدَعِ[٨]

وَانْـدُبْ[٩] زَمَانًـا سَـلَفَا[١٠] سَـوَّدْتَ فِيـهِ الـصُّحُفَا[١١]

---

(١) قِيامَهُ للصَّلاةِ.

(٢) يُزَيِّنُ ويُحَسِّنُ (ع).

(٣) اتْرُكْ، ودَعْ (ع).

(٤) تَذَكُّر.

(٥) المَنازِل.

(٦) **المَعْهَد**: هو المَوْضِع الَّذِي عَهِدْتَ فيه بَعْضَ أَمْرِك.

و**المُرْتَبِع**: الَّذِي تُقيمُ فِيهِ زَمَنَ الرَّبِيعِ (ع).

عَدّ: كُفّ.

(٧) هو: المُسافِر (ع).

(٨) اتْرُكْ.

(٩) ابْكِ

(١٠) ذَهَبَ وتَقَدَّمَ.

(١١) الكُتُب.

وَلَـــمْ تَـــزَلْ مُعْتَكِفَـــا[١] عَلَـــىٰ القَبِـــيحِ الـــشَّنِعِ[٢]
كَـــمْ لَيْلَـــةٍ أَوْدَعْتَهَـــا[٣] مَآثِمًـــــا[٤] أَبْـــــدَعْتَهَا[٥]
لِـــــشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَـــــا فِي مَرْقَـــــدٍ ومَـــــضْجَعِ

... إلىٰ أنْ قالَ:

وَكَـــمْ تَجَـــرَّأْتَ عَلَـــىٰ رَبِّ الـــسَّماوَاتِ العُـــلَا
وَلَـــــمْ تُرَاقِبْـــــهُ وَلَا صَـــدَقْتَ فِيمَـــا تَـــدَّعِي
فَـــالْبَسْ شِـــعارَ[٦] النَّـــدَمِ واسْكُبْ[٧] شَآبِيبَ الدَّمِ[٨]
قَبْـــلَ زَوَالِ القَـــدَمِ[٩] وقَبْـلَ سُـوءِ المَـصْرَعِ[١٠]

---

(١) **المُعْتَكِف**: المُقِيم.
(٢) الّذي يُتَحدَّثُ بِقُبْحِه.
(٣) أي: ضَمَّنْتَها وجَعَلْتَها فيه.
(٤) الذُّنُوب.
(٥) اخْتَرَعْتَها.
(٦) ثَوْب يُلْصَقُ بالجَسَدِ.
(٧) صُبّ.
(٨) دُفَع المَطَر، واحدُها: (شُؤبُوب)، فاستعارَها للدَّمِ، كما اسْتَعارَ الدَّمَ للدَّمْعِ.
(٩) هو: المَوْت (ع).
(١٠) مَوضِع السَّقْطَة، [وهو: نِهايةُ الحَياةِ (ع)].

وَاخْضَعْ خُضُوعَ المُعْتَرِفْ[١] ولُـذْ مَـلاذَ المُقْتَـرِفْ[٢]

وَاعْـصِ هَـواكَ وانْحَـرِفْ[٣] عنـهُ انْحِـرَافَ المُقْلِـعِ[٤]

... إلىٰ أنْ قالَ:

وَيْحَـكِ يـا نَفْـسُ احْرِصِـي علىٰ ارْتِيـادِ[٥] المَخْلَـصِ[٦]

وَطَـــاوِعِي وَأَخْلِـــصِي واسْـتَمِعِي النُّـصْحَ وَعِـي[٧]

وَاعْتَبِـرِي[٨] بِمَـن مَـضَىٰ مِـنَ القُـرُونِ[٩] وانْقَـضَىٰ[١٠]

وَاخْـشَيْ مُفاجَـاةَ القَـضَا[١١] وحَـاذِرِي[١٢] أنْ تُخْـدَعِي

---

(١) الْجَأْ.

مَلاذ: مَلْجَأ.

(٢) المُذْنِب.

(٣) مِلْ.

(٤) الّذي يُقْلِعُ عنِ المَعاصِي ويُفارِقُها.

(٥) أي: طَلَب.

(٦) المَنْجَىٰ.

(٧) احْفَظِي، وهو أَمْرٌ للمُؤنَّث مِن: (وَعَىٰ، يَعِي).

(٨) اتَّعِظِي.

(٩) الأُمَم السَّابِقَة.

(١٠) فَرَغَ وتَمَّ.

(١١) **القضاء** -هنا-: المَوت، ومُفاجَأته: إِتْيَانه علىٰ غَفْلَةٍ.

(١٢) خافِي.

وَانْتَهِجِي[١] سُبْلَ الهُدَىٰ[٢] وادَّكِرِي[٣] وَشْكَ الرَّدَىٰ[٤]
وَأَنَّ مَثْوَاكِ[٥] غَدَا فِي قَعْرِ لَحْدٍ[٦] بَلْقَعِ[٧]

... إِلَىٰ أَنْ قال:

فَيَا مَفَازَ[٨] المُتَّقِي ورِبْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِي[٩]
سُوءَ الحِسَابِ المُوْبِقِ[١٠] وَهَوْلَ[١١] يَوْمِ الفَزَعِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَغَىٰ[١٢] ومَنْ تَعَدَّىٰ[١٣] وطَغَىٰ[١٤]

---

(١) اسْلُكِي وامْشِي في نَهْج، وهو: الطَّرِيق البَيِّن.
(٢) **سُبل الهُدَىٰ**: طُرُق الرَّشَاد.
(٣) تَذَكَّرِي.
(٤) **وَشْك الرَّدَىٰ**: سُرْعَة المَوْتِ.
(٥) مَوضِع إِقامَتِكِ؛ لأنَّ المَثْوَىٰ والثَّواء: الإقامة، والمَثْوَىٰ: المَوضِع الّذي تُقِيم فيه.
(٦) شَقّ في جانِب القَبْر.
(٧) خَالٍ.
(٨) الخَلاص.
(٩) كُفِي.
(١٠) المُهْلِك.
(١١) خَوْف.
(١٢) ظَلَمَ.
(١٣) جاوَزَ الحَدَّ في جَوْرِه.
(١٤) جاوَزَ الحَدَّ في تَكَبُّرِه.

وَشَـبَّ[١] نِيـرانَ الـوَغَىٰ[٢] لِمَطْعَـــمٍ أَوْ مَطْمَـــعِ
يَـا مَـنْ عَلَيْـهِ المُتَّكَـلْ قَد زادَ ما بِي مِن وَجَلْ[٣]
لِمَا اجْتَرَحْتُ[٤] مِن زَلَلْ[٥] فِي عُمْـــرِيَ المُـــضَيَّعِ
فَـاغْفِرْ لِعَبْـدٍ مُجْتَـرِمْ[٦] وَارْحَـمْ بُكـاهُ المُنْسَجِمْ[٧]
فَأَنْـتَ أَوْلَـىٰ مَـن رَحِـمْ وَخَيْـرُ مُـدْعُوٍّ دُعِـي

قال الحارِثُ بنُ هَمَّام:

فلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُها بِصَوْتٍ رَقِيق، ويَصِلُها بِزَفِيرٍ وشَهِيق[٨]؛ حَتَّىٰ بَكَيْتُ لِبُكاءِ عَيْنَيْه -كما كُنْتُ -مِن قَبْلُ- أَبْكِي عَلَيْه-.

ثُمَّ دَنَوْتُ إِلَيْهِ كما يَدْنُو المُصافِح، وقُلْتُ: أَوْصِنِي -أَيُّها العَبْدُ النَّاصِح-.

---

(١) أَوْقَدَ.

(٢) الحَرْب.

(٣) خَوْف.

(٤) اكْتَسبت.

(٥) خطأ.

(٦) حامِلٌ للجُرْم (ع).

(٧) الدَّمْع النَّازِل (ع).

(٨) **زَفِير**: نَفْخ، **والشَّهيق**: رَدُّ النَّفَس مَع البُكاءِ بِصَوْتٍ.

فقال:

اجْعَلِ المَوْتَ نُصْبَ عَيْنِك، وهذا فِراقُ بَيْنِي وبَيْنِك.

فَوَدَّعْتُهُ وَعبَرَاتِي[١] يَتَحَدَّرْنَ مِن المَآقِي، وزَفَرَاتِي يَتَصَعَّدْنَ[٢] مِن التَّرَاقِي[٣].

وكانَت هذه خاتِمَةَ التَّلاقِي[٤]».

(١) دُمُوعِي.

(٢) يَتَرَفَّعْنَ.

(٣) العَظْمَان المُعْوَجَّان أَعْلَىٰ الصَّدْر.

(٤) آخِر لِقائِهِ.

وبعد:

فهذا النَّمَطُ الشِّعرِيُّ -علىٰ اختِلافِ أَوزانِهِ- يُسمَّىٰ: (التَّسْمِيط):

قال ابنُ مَعصُوم في «أنوار الرَّبيع في أنواع البَدِيع» (٦/ ١٩٠):

«(التَّسمِيطُ): مأخوذٌ مِن (السِّمْط) -بكَسْرِ السِّين المُهمَلَةِ، وسُكُونِ المِيمِ-، وهو: خيطُ النَّظْمِ؛ كأَنَّهُم جَعَلُوا القافِيَةَ كالسِّمْطِ، والأجزاءَ المُسجَّعَةَ بمنزِلَةِ حَبَّاتِ العِقْدِ.

أوْ: مِن (السِّمْط)؛ بمعنىٰ: القِلادة؛ كأَنَّهُم جَعَلُوا البَيْتَ بتَفْصِيلِهِ -بالأجزاءِ المُسجَّعَةِ- كالقِلادَةِ المُفصَّلَةِ بالجَواهِرِ المُناسِبَةِ[1].

وهو عِبارَةٌ عن: أنْ يَجْعَلَ الشَّاعِرُ البَيْتَ مِن قَصيدةٍ -أو كُلَّ بَيْتٍ مِنها-: أربعةَ أقسامٍ، ثلاثةً مِنها علىٰ سَجعٍ واحدٍ، مع مُراعاةِ القافِيَةِ في الرَّابِعِ»[2].

وقال الشَّرِيفُ الجُرجانِي في «التَّعريفات» (ص١٣٤):

«صَنْعَةُ (التَّسميطِ)؛ هي: أنْ يُؤتَىٰ -بعدَ الكَلِماتِ المَنثُورَة، أو الأبياتِ

(١) وَلَعَلَّهُ مِن أَجْلِ ذا: سَمَّىٰ أبو عُبيدٍ البَكْرِيُّ -المُتوفّىٰ سنة (٤٨٧هـ) -رَحِمَهُ اللَّهُ- كتابَهُ -في مُختارات الشِّعر-: «سِمْط اللَّآلِي..».

(٢) وانظُر «خِزانَة الأدَب وغايَة الأرب» (٢/ ٤٣١) -لابنِ حَجَّة الحَمَوِيِّ-، و«البُرهان في وُجُوه البيان» (ص١٦٠) -لأبِي الحُسَين الكاتِب-، و«دِيوان الدُّوبيت في الشِّعر العَرَبِيِّ» (ص٣١) -للدُّكتور كامل الشيبي-.

المَشطُورَة- بقافِيَةٍ أُخرَىٰ مَرعِيَّةٍ إلىٰ آخِرِها؛ كَقَوْلِ ابنِ دُرَيد[١]:

لَمَّـــا بَـــدَا مِـــن المَـــشِيبِ صَـــوْنُهُ وَبَـــانَ عَـــن عَـــصْرِ الـــشَّبابِ بَوْنُـــهُ

قُلْـــتُ لَهَـــا والـــدَّمْعُ هـــامٍ جَوْنُـــهُ إمَّـــا تَـــرَيْ رَأْسِـــيَ حـــاكَىٰ لَونُـــهُ

طُرَّةَ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَىٰ...).

وقال ابنُ رَشِيق القَيْرَوانِي في «العُمْدَة في مَحاسِنِ الشِّعْرِ وآدابِهِ» (١/ ١٨٠):

«والقافِيَةُ الّتي تُكَرَّرُ في (التَّسْمِيطِ) تُسَمَّىٰ: عَمُودَ القَصِيدةِ...».

وقالَ ابنُ مَعصُوم في «أنوار الرَّبيع»: (٦/ ١٩٥-١٩٦):

«وبَعْضُهُم يُسَمِّي كُلَّ ذلِكَ: (تَسْجِيعًا).

والصَّحيحُ: أنَّ بَينَهُما فَرْقًا، وهو: أنَّ (التَّسجِيعَ) يَلْزَمُ فيه أنْ يَكُونَ سَجْعُ أجزائِهِ علىٰ رَوِيِّ البَيْتِ، وأنْ تَكُونَ أَجزاؤُهُ مُتَّزِنَةً، وعَدَدُها مَحْصُورًا؛ بخِلافِ (التَّسمِيط).

وذَهَبَ الخَليلُ -رَحِمَهُ اللهُ-[٢] إلىٰ أنَّ (الشِّعْرَ المُسَمَّطَ) هو: الّذي يَكُونُ في صَدْرِ البَيْتِ أَبياتٌ مَشْطُورَةٌ[٣]، أو مَنْهُوكَةٌ[٤] مُقَفَّاةٌ، ثُمَّ تَجْمَعُها قافِيَةٌ مُخالِفَةٌ؛ لازِمَةٌ للقَصِيدَةِ حتَّىٰ تَنْقَضِي».

---

(١) عَلَّقَ الدُّكتور سُليمان العيوني -هُنا- بقولِه-: (الصَّواب: كتسميط «مقصورة ابن دُريد»).

(٢) «العَيْن» (٧/ ٢٢٣).

(٣) قالَ الشَّاعِرُ:

وَالبَيْتُ إنْ نَقَصْتَ مِنْهُ شَطْرَهُ فَذَلِكَ (المَشْطُورُ) فَافْهَمْ أَمْرَهُ

كَمَا في «العِقد الفَرِيد» (٦/ ٢٨٣) -لابنِ عَبْد رَبِّه-.

(٤) هُو «ما أُسقِطَ ثُلُثاهُ» -كما في «مُعجَم مَقالِيد العُلُوم» (ص١١٤) -لِلسُّيُوطِيِّ-.

... ثُمَّ ذَكَرَ أَمْثِلَةً عِدَّةً عليه؛ مِنها: أَبْياتٌ مِن قَصِيدَةِ (**خَلِّ ادِّكارَ الأَرْبُعِ**...) -المُتَقَدِّمِ ذِكْرُ أَجزاءٍ مِنها-.

(فائدةٌ):

قال الرَّافِعِيُّ في «تاريخ آداب العرب» (٣/ ٢٥٤) -عن (التَّسمِيط)-في الشِّعر-: «وهو نَوعٌ مُحْدَثٌ لَمْ يَصِحَّ وُرُودُهُ عن أَحَدٍ مِن العَرَب»[1].

(١) يُريدُ: مِن الشِّعْرِ الجاهِلِيِّ للعَرَبِ.

شُكْرٌ.. و.. دُعاءٌ

راسلتُ الأُستاذَ اللُّغويَّ الدُّكتور سُليمان بن عبد العزيز العُيُوني -وفَّقهُ اللهُ- طالبًا منهُ إبداءَ مُلاحَظاتِه علىٰ الجوانِب اللُّغويَّة في «شَرحِي» -هذا-.

ففَعَلَ -جَزاهُ اللهُ خيرًا-، وكَتَبَ لي -بتاريخ: (٢٥/ ٤/ ١٤٣٩هـ) -ما نَصُّهُ-:

«فقد أَسْعَدَنِي قِراءةُ الجانِبِ اللُّغويِّ في «شَرحِكُم للقصيدةِ العجلونيَّةِ».

وقد استفدتُ منهُ كثيرًا؛ فقد أَضْفَيْتُم عليه مسحةً أدبيَّةً، وفوائدَ منثورةً.

وقد ظَهَرَ لي بعضُ المَلحُوظاتِ الّتي آمُلُ أنْ تُعِيدَ فيها النَّظَرَ، وسوفَ أَذكُرُها بعدَ هذا المَكتوب...».

... فكانَت بِضْعًا وعِشرِين مَلحوظَةً -أكثرُها لُغَوِيٌّ-.

فجزاهُ اللهُ كُلَّ خَيْرٍ -في دينِه ودُنياه-.

شَرْحُ

القَصِيدَةِ العَجْلُونِيَّةِ

في

العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ

لقاضي (**عجلون**) - وخطيبها -
الإمام الفقيه عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد
الزُّهَيريِّ، التِّبريزيِّ، الشَّافعيِّ
المُتوفَّى سنة (٧٤٠هـ) - رحمه الله - تعالى -

نَصُّ (القَصيدةِ)
- كامِلةً -

١- كَمْ بَيْنَ بَانِ الأَجْرَعِ ورَامَةٍ ولَعْلَعِ

٢- مِن قَلْبِ صَبٍّ مُوجَعِ سَكْرَانَ وَجْدٍ لا يَعِي

٣- تَراهُ مَا بَيْنَ الحُلَلْ جَرِيحَ أَسْيافِ المُقَلْ

٤- فَارْفُق بِهِ ولا تَسَلْ عَن قَلْبِهِ المُضَيَّعِ

٥- وَدَّ الحِمَىٰ فَأَخْلَصَا إِذْ حَقُّهُ قَدْ حَصْحَصَا

٦- فَوُدُّهُ أَنْ يَخْلُصَا مِنَ الحَضِيضِ الأَوْضَعِ

٧- إلىٰ المَقَامِ الأَوَّلِ ومَعْهَدِ الأُنْسِ الحَلِي

٨- والمَرْبَعِ السَّامِي العَلِي سَقْيًا لَهُ مِن مَرْبَعِ

٩- رَحَلْتُ عن ذَاك الفَضَا لا بِاخْتِيَارِي والرِّضَا

١٠- فَيَا زَمانًا قَدْ مَضَىٰ إنْ عَادَ مَاضٍ فَارْجِعِ

١١- وارْكَعْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَىٰ رُكُوعَ خَوْفٍ وَرَجَا

١٢- وَعَدِّ في سُفْنِ النَّجَا إِلَىٰ الفَضَاءِ الأَوْسَعِ

١٣- عَلَيْكَ بالتَّهَجُّدِ وقُمْ طَوِيلًا واسْجُدِ

١٤- وبِتْ نَدِيمَ الفَرْقَدِ واشْرَبْ كُؤُوسَ الأَدْمُعِ

١٥- قِفْ عِنْدَ حُكْمِ المُصْحَفِ ... مِنْ غَيْرِ مَا تَحَرُّفِ
١٦- ولَا تَخُضْ وُفِّقْتَ فِي ... أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ
١٧- فإِنَّهُ كَلامُهُ ... أَعْيَا الوَرَىٰ نِظامُهُ
١٨- وبَهَرَتْ أَحْكامُهُ الْـ ... ـغُرُّ جَمِيعَ الشِّيَعِ
١٩- مِنْهُ كَمَا جاءَ بَدَا ... فكُنْ بِهِ مُعْتَضِدَا
٢٠- ولا تُجادِلْ أَحَدًا ... فِي آيَةٍ[1] وارْتَدِعِ
٢١- ولا تُؤَوِّلْ مَا وَرَدْ ... للهِ مِن سَمْعٍ ويَدْ
٢٢- وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ ... قَوْلَ امْرِئٍ مُتَّبِعِ
٢٣- وإِنَّهُ عَزَّ وجَلّ ... كَلَّمَ مُوسَىٰ ذَا الوَجَلْ
٢٤- لَمَّا تَجَلَّىٰ لِلْجَبَلْ ... جَهْرًا كَلامًا مُسْمَعِ
٢٥- أَصْغَىٰ إِلَيْهِ فَوَعَىٰ ... بِأُذْنِهِ ما سَمِعَا
٢٦- ثُمَّ أَجابَ مُسْرِعَا ... جَوَابَ ثَبْتٍ أَرْوَعِ
٢٧- وَلَا تُوافِقْ مَن غَوَىٰ ... وقُلْ بِأَنَّ ذَا القُوَىٰ
٢٨- حَقًّا عَلَىٰ العَرْشِ اسْتَوَىٰ ... كَمَا أَرَادَ فاسْمَعِ
٢٩- وَهْوَ تَعَالَىٰ فِي السَّمَا ... عَالٍ ومَعْنَا أَيْنَمَا
٣٠- بِغَيْرِ كَيْفٍ لا كَمَا ... يَخْطُرُ لِلْمُبْتَدِعِ
٣١- مَنْ قَاسَهُ مِنَ البَشَرْ ... بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرْ

(١) ويُمكِنُ أنْ تُقْرَأَ: (في آيِهِ).

٣٢- وَقَـــدْ أَطَـــاعَ ونَـــصَرْ أَمْـــرَ الهَـــوَىٰ المُتَّبَـــعِ
٣٣- وَيْـــلَاهُ مِـــن وَزْنِ العَمَـــلْ وبَحْـــرُهُ عِنـــدِي وَشَـــلْ
٣٤- قَـــد غَـــاضَ طَامِيـــهِ وَقَـــلّ فَمَـــا تَـــرَىٰ فِـــي مَنْبَـــعِ
٣٥- وَاعْتَرَضَـــتْ جَهَـــنَّمُ ونَارُهَـــا تَـــضْطَرِمُ
٣٦- وكُـــبَّ فِيهَـــا المُجْـــرِمُ وَقِيـــلَ يـــا نَـــارُ ابْلَعِـــي
٣٧- وجَنَّـــةُ الفِـــرْدَوْسِ قَـــدْ تَزَخْرَفَـــتْ لِمَـــنْ عَبَـــدْ
٣٨- وَقَـــامَ لَـــيْلًا وَسَـــجَدْ فِـــي طِمْـــرِهِ المُرَقَّـــعِ
٣٩- ونَهَـــدَتْ أَبْكارُهَـــا واطَّـــرَدَتْ أَنْهَارُهَـــا
٤٠- وَغَـــرَّدَتْ أَطْيَارُهَـــا فِي كُـــلِّ غُـــصْنٍ مُوْنِـــعِ
٤١- يـــا مَـــنْ لَـــهُ تَبَتُّلِـــي فِـــي كُـــلِّ لَيْـــلٍ أَلْيَـــلِ
٤٢- وَمَـــنْ إِلَيْـــهِ مَـــوْئِلِي دُونَ الـــوَرَىٰ وَمَفْزَعِـــي
٤٣- صَـــلِّ عَلَـــىٰ خَيْـــرِ البَـــشَرْ مِـــن كُـــلِّ أُنْثَـــىٰ وَذَكَـــرْ
٤٤- مُحَمَّـــدٍ وَجْـــهِ القَمَـــرْ ذِي الجَانِـــبِ المُمَنَّـــعِ

تَرْجَمَةُ النَّاظِمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-[1]

عَبْدُ القاهِر بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَاحِدِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ مُوسَىٰ.

القاضِي، الخَطيبُ، البَلِيغُ، جَمالُ الدِّين، أبُو بَكْرٍ[2] البُخَارِيُّ، ثُمَّ التِّبْرِيزِيُّ، ثُمَّ

---

(١) بِتَمامِها مِن «ذَيْل سِيَر أعلام النُّبلاء» (ص٤٦٣-٤٦٧ - المطبوع باسم: «ذيل تاريخ الإسلام»!) -للإمامِ الذَّهَبِيِّ-.

وقد صَحَّحْتُ فيها تَحرِيفاتٍ -عِدَّةً- وَقَعَت في مَطبُوعتِهِ -بعد مُقابلتِه علىٰ المَخطوط-!

مصادِرُ تَرْجَمَتِهِ:

«تاريخ الإسلام» (١٤/ ٦١٣)، و«مُعجَم الشُّيوخ» (١/ ٤٠٩) -لِلذَّهَبِيِّ-، و«وَفَيات الأعيان» (١/ ٤) -لابنِ خَلِّكان-، و«فَوَات الوَفَيات» (١/ ١١٣)، و(٢/ ٣٦٧) -لابنِ شاكِر الكُتُبِيِّ-، و«أعيان العَصْر» (٣/ ١٢٤-١٢٧)، و(٤/ ٥٧٠)، و«الوافِي بالوَفَيات» (٤/ ٦٧)، و(١٩/ ٣٧) -للصَّلاح الصَّفَدِيِّ-، و«المنهَل الصَّافِي» (٧/ ٣٢٧)، و«الدليل الشافي» (١/ ٤٢٣)، و«النُّجُوم الزَّاهِرَة» (٩/ ٣٢٩) -لابنِ تَغْرِي بَرْدِي-، و«الدُّرَر الكامِنَة» (٣/ ١٩٤) -لابنِ حَجَر-، و«السُّلُوك لِمَعرِفَة دُول المُلُوك» (٣/ ٢٨٩) -للمَقْرِيزِي-، و«الوَفَيَات» (١/ ٣٢٢) -لابنِ رافِع-، و«عِقْد الجُمان» (١/ ٤٣٢) -للعَيْنِي-، و«نِهاية الأرب في فُنون الأدب» (٣٢/ ٥٠) -للنُّويري-، و«كَنز الدُّرَر» (٩/ ٩٣-١٠٠) -للدَّاوادارِي-، و«مَطالع البُدور ومنازل السُّرور» (١/ ٢٣٥) -لِلْغَزُولِيِّ-، و«تاريخ ابن قاضي شهبة» (١/ ٦٠١)، و«طبقات الفُقهاء الكبرىٰ» (٢/ ٨٣٧) -للعُثماني-، و«تذكرة النبيه» (٢/ ٣٢٠)، و«دُرَّة الأسلاك» (ق١٦١ - نسخة أياصوفيا) -لابن حبيبٍ-، و«الأعلام» (٤/ ٤٩) -للزِّرِكْلِيِّ-، و«مُعجَم المُؤلِّفين» (٥/ ٣١١) -عمر رضا كحَّالة-.

(٢) ذَكَرَ لهُ ابنُ تَغْرِي بَرْدِي في «المنهل الصافي» (٧/ ٣٢٧) كُنْيَةً أُخرَىٰ، هي: (أبُو محمد) -ونَسَبَهُ: (زُهَيْرِيًّا)-، وانْظُر «الأنساب» (٦/ ٣٥٤) -للسَّمْعانِيِّ-.

الحَرَّانِيُّ، ثُمَّ الدِّمَشْقِيُّ، الشَّافِعِيُّ.

مَوْلِدُهُ في نِصْفِ شَعْبانَ، سَنَةَ ثَمانٍ وأَرْبَعِينَ وسِتِّ مِئَةٍ -بِحَرَّانَ-[١].

واشْتَغَلَ[٢]، ونَشَأَ بِدِمَشْقَ، وتَفَقَّهَ -فيما ذاكَرَنِي بِهِ-.

وقال: ماتَت أُمِّي بِنتَ عِشْرِينَ سَنَةً، وكان أَبِي تاجِرًا ذا مالٍ، فقَدِمَ بِي دِمَشْقَ -وأنا ابنُ سِتِّ سِنِينَ-، فماتَ، وكَفَلَنِي عَمِّي عَبْدُ الخالِق، ورَجَعَ بِي إلىٰ حَرَّانَ، وباعَ أَمْلاكَنَا بثمانِينَ أَلْفًا، ورَدَّ بِي[٣].

ثُمَّ قالَ لِي -يَوْمًا-: امْضِ بِنا، فمَضَىٰ بِي نَحْوَ مَيدانِ الحَصَىٰ[٤]، وعَرَّجَ بِي، فوَثَبَ عَلَيَّ، فخَنَقَنِي، فغَشِيتُ، فَرَمَانِي في حُفَيْرَةٍ، وطَمَّ عَلَيَّ المَدَرَ والحِجَارَةَ، فأَبْقَىٰ كذَلِكَ إلىٰ رابعِ يَوْمٍ.

---

(١) قال فَضِيلَةُ الشَّيخِ بَكْر أَبُو زَيدٍ -رَحِمَهُ اللهُ- في تَقدِيمِهِ لِـ«الجامِع لِسِيرَةِ شيخِ الإسلامِ» (ص:س):

«بَلْدَةٌ مَشهُورَةٌ في الجَزِيرةِ، بَيْنَ الشَّام والعِراق؛ لَيسَت هي التي بِقُرْبِ دِمَشْقَ، ولا الّتي في تُركيا، ولا التي بِقُربِ حَلَب»!

قُلتُ: وكَثِيرٌ يُرجِّحُون أنَّها في جَنوبِ تركيا، قَرِيبًا مِن الحُدودِ التُّركِيَّة السُّورِيَّة -واللهُ أَعلم-.

وانظُر كِتابَ «بُلدان الخِلافة الشَّرْقِيَّة» (ص١٣٤) -كي ليسترنج-.

(٢) **الاشْتِغال**؛ هو التَّعَلُّم والتَّعليم.

(٣) يَعْنِي: أَرْجَعَنِي.

(٤) هو المَعروفُ في وَسَطِ دِمَشقَ -الآن- باسْمِ: (المَيدان).

وانظُر «توضيح المُشتَبَه» (٨/ ٣١٥) -للحافِظ ابنِ ناصِر الدِّين الدِّمَشْقِي-، و«ذِكرَيات علي الطَّنطاوِي» (١/ ٢٤)، و(٨/ ٣٣٩).

فمَرَّ بِي رَجُلٌ صالِحٌ كان بِرِباطِ الإسْكافِ[١] -عَرَفْتُهُ بَعْدَ ثَلاثِينَ سَنَةً-، فبَكَّرَ يَتْلُو، ومَرَّ بِجِسْرِ ابنِ شَوَّاش[٢]، ثُمَّ إلىٰ القَطائِعِ[٣]، فجَلَسَ يَبُولُ، وكُنْتُ أُحَرِّكُ رِجْلِي، فرأَىٰ المَدَرَ[٤] يَتَحَرَّكُ، فظنَّهُ حَيَّةً، فقَلَبَ حَجَرًا، فبَدَتْ رِجْلِي في خُفٍّ بُلْغارِيٍّ[٥]، فاسْتَخْرَجَنِي، فقُمْتُ أَعْدُو إلىٰ الماءِ، فشَرِبْتُ مِن شِدَّةِ عَطَشِي، ووجَدْتُ في خاصِرَتِي فَزْرًا[٦] -مِن الحِجَارَةِ-، وفي رَأْسِي فَتْحًا.

---

(١) ويُقال: «رِباط ابن الإسكاف»، وهو بجَبَل قاسيون -كما في: ذَيْل مِرآة الزَّمان» (٣/ ١٣٦) -لليُونِيني-.

(٢) موضع في مُنتزهات دِمَشق. «معجم البُلدان» (٣/ ٣٧٠).

(٣) قال زكريَّا الأنصاريُّ في «مِنحة البارِي» (٥/ ١٤٦):

«جَمْعُ (قَطيعة)؛ وهي: ما يَخُصُّ به الإمامُ بعضَ الرَّعِيَّة مِن الأرض.

وهذا الّذي يُسمَّىٰ في زمانِنا: (إقطاعًا)؛ فإنْ أَقْطَعَ غَيْرَهُ -لا لِلتَّمليك-؛ فهو: كالمُتحجِّر، فيَنْتَفِعُ بما أَقْطَعَهُ بالإجارَةِ والزِّراعَةِ -ونَحوِهما-، أو للتَّمليك: مَلَّكَهُ -كما ذَكَرَهُ النَّوويُّ في «مجمُوعِه» [(٦/ ٧٨)]-».

قُلْتُ:

وَ(التَّحجِيرُ)؛ هو: ضَرْبُ حُدُودٍ حَولَ ما يُريدُ إحياءَهُ مِن الأَرْضِ.

وانظُر «شَرح مُسند الشافِعِي» (٤/ ٣٣١) -للرَّافِعِيِّ القزويني-.

(٤) التُّراب، أو: الطِّين المُتماسِك.

(٥) ويُقال: بُرغالِي -كما في مواضِعَ أُخرَىٰ-، فانظُر «النُّجوم الزَّاهرة» (٧/ ٣٣١) -لابنِ تَغْرِي بَرْدِي-، و«حُسْن المُحاضَرَة» (٢/ ١١١) -للسُّيُوطِيِّ-.

وفي «خُطَط المَقْرِيزِيّ» (٣/ ١٧٩) أنَّ الخُفَّ البُلْغارِيَّ: «مِن جِلْد أُسُود».

وفي «رِحلة ابن بَطُّوطة» (٢/ ٢٥٩): «وهو جِلْد الفَرَس مُبَطَّن بجِلْد ذِئب».

(٦) هو (الشَّقّ) - بِسَبَبِ الحِجارة-.

=

ثُمَّ أَرَانِي القاضِي أَثَرَ ذلك في كَشْحِهِ[١]، ووَضَعَ أَصابِعِي علىٰ جُورَةٍ[٢] في رأسِهِ تَسَعُ باقِلَّاةً[٣].

قال: ودَخَلْتُ البَلَدَ إلىٰ إنْسانٍ أَعْرِفُهُ، فمَضَىٰ بِي إلىٰ ابنِ عَمٍّ لَنَا -وهو الصَّدْرُ الخُجَنْدِيُّ[٤]- وكان مُخْتَفِيًا بالصَّالحِيَّة، ولهُ غُلامَانِ يَنْسَخانِ ويُطْعِمانِهِ- اخْتَفَىٰ لِأُمُورٍ بَدَت مِنهُ زَمَنَ هُولاكُو-.

وكَتَبَ مَعِي وَرَقَةً إلىٰ نِسائِهِ بالبَلَدِ، وكانَت بِنْتُهُ سَتُّ البَهاءِ -الّتي تَزَوَّجَ بها الشَّيخُ زَيْنُ الدِّين ابنُ المُنَجَّا[٥] - وماتَت مَعَهُ - هي أُخْتِي مِن الرَّضاعَةِ-، فأَقَمْتُ عِندَهُنَّ مُدَّةً، لا أَخرُجُ، حتَّىٰ بَلَغْتُ، وحَفِظْتُ القُرآنَ بِمَسجِدِ الزَّلَّاقَةِ.

فمَرَرْتُ -يَوْمًا- بالدِّيماس[٦]، فإذا بعَمِّي، فقال لِي: هاه! جَمالُ! اِمْشِ بِنَا إلىٰ

=

وانظُر «شَمس العُلُوم..» (٨/ ٥١٨٠) -للحِمْيَرِيِّ-، و«دُرَّة الغَوَّاص في أَوهام الخَواصّ» (ص٢٦٩) -لِلحَرِيرِيِّ-.

(١) ما بَيْنَ الخاصِرَةِ إلىٰ الضِّلَعِ الخَلْفِيِّ.
«تاج العَرُوس» (٧/ ٧٥) -للزَّبِيدِيِّ-.

(٢) حُفْرَة -كما في «مُعجَم دوزي» (٢/ ٣٣٣)-.

(٣) حَبَّة الفُول -كما في «المُحْكَم» (٦/ ٤٣٥)-.

(٤) انظُر «الأنساب» (٥/ ٥٣) -للسَّمْعانِيِّ-.

(٥) تَرجَمَهُ الذَّهَبِيُّ -نَفْسُهُ- في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٨٢٦).
وانظُر «ذَيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٢٧١) -لابنِ رَجَب-.

(٦) هو الحمّامُ -كما في «النِّهاية» (٢/ ١٣٣) -لابنِ الأَثِير-، و«شَرح النَّوويِّ علىٰ (صحيحِ مُسلم)» (٢/ ٢٣٢).

البَيْتِ، فما كَلَّمْتُهُ -وتَغَيَّرْتُ[١] -ومَعِي رَفِيقان-، فقالَا لِي: ما بِكَ؟!

فسَكَتُّ، وأَسْرَعْتُ، ثُمَّ رأَيْتُهُ -مَرَّةً أُخرىٰ- بالجامِعِ، فأَخَذَ أَمْوالِي، وذَهَبَ إلىٰ اليَمَن، وتَقَدَّمَ عندَ مَلِكِها، ووَزَرَ[٢] له.

وماتَ عَن أَوْلاد.

وأَمَّا الخُجَنْدِيُّ؛ فأُخِذَ، وسُجِنَ مُدَّةً، ثُمَّ نُقِلَ إلىٰ مِصْرَ -مُعْتَقَلًا-، ثُمَّ ماتَ عن وَلَدٍ جُنْدِيٍّ -قُتِلَ في وَقْعَةِ حِمصَ -سَنَةَ ثَمانِين-.

وجَوَّدتُ الخَتْمَةَ علىٰ الزَّواوِيِّ[٣].

وتَفَقَّهْتُ علىٰ النَّجْمِ المُوغانِي.

وتَرَدَّدْتُ إلىٰ الشَّيخ تاجِ الدِّين[٤].

وتَفَقَّهْتُ بابنِ جَماعةَ[٥]، وقَرَأْتُ عليه «مُقدِّمةَ ابنِ الحاجِبِ»[٦].

وعلىٰ ابنِ الفَزَارِي.

ثُمَّ وُلِّيْتُ القَضاءَ مِن جِهَةِ ابنِ الصَّايغ -وغيرِهِ-.

---

(١) يَعنِي: تَكَدَّرْتُ وتأَثَّرْتُ -حتَّىٰ ظَهَرَ ذلِكَ عَلَيَّ-.

(٢) أيْ: صارَ وَزِيرًا عِندَهُ.

(٣) هو زَيْن الدِّين عبدُ السَّلام بنُ عليٍّ، المُتوفَّىٰ (سَنَةَ ٦٨١هـ)، تَرْجَمَهُ الذهبيُّ في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٥١).

(٤) الفَزَارِيّ -كَمَا في «الدُّرَر الكامِنَة» (٣/ ١٩٤)-.

(٥) هو بَدْرُ الدِّين ابنُ جَماعَةَ -كما في «المَنهَل الصَّافِي» (٧/ ٣٢٧) -لابنِ تَغْرِي بَرْدِي-.

(٦) في النَّحْوِ والصَّرْف.

ونُبْتُ -يَومًا- بجامِعِ دِمَشقَ -عن ابنِ جَماعةٍ، فقيل له: إنْ دامَ هذا راحَتْ مِنكَ الخَطابَةُ- يعني: لحُسْنِ أدائِهِ، وكَمالِ هيئَتِهِ-!

فإنَّ هذا القَاضِيَ كانَ مَليحَ الصُّورَةِ، أَبيضَ، مُستديرَ اللِّحيَةِ، فصِيحَ العِبارةِ، فاخِرَ البَزَّةِ[1]، عارِفًا باللُّغةِ، خَبيرًا بالأَحكامِ، قَوِيَّ المُشارَكَةِ.

أَلَّفَ خُطَبًا بَلِيغَةً في مُجلَّدَةٍ[2].

ولَهُ نَظْمٌ رائِقٌ[3]، ومَحاسِنُ كَثيرَةٌ.

---

(١) الثِّياب، والمَنْظَر.

(٢) اسمُها: «تُحفة الخُطَباء» -مِنهُ: نُسخة مَخطُوطة في (جامعة ليبزك) -كما في «تاريخ بروكلمان» (٢/ ٨٠)-.

وانظُرْ: نَقْدَ الصَّلاحِ الصَّفَدِيِّ لَهَا في «أعيان العَصْر» (٣/ ١٢٧)، و«الفِهْرِس الشَّامِل للتُّراث العربي الإسلامي» (١/ ٣٢٣).

(٣) مِن أَجْمَلِ نَظْمِه: القَصيدةُ الرَّائِقَةُ الَّتِي قالَها في وَقْعَةِ التَّتار -بشَقْحَب-، والَّتِي مَطْلَعُها:

اللهُ أَكْبَرُ جاءَ النَّصْرُ والظَّفَرُ ... والحَمْدُ للهِ هذا كُنْتُ أَنْتَظِرُ

وأَبْرَزَ القَدَرَ المَحْتُومَ بارِئُهُ ... سُبحانَهُ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ والضَّرَرُ

وهَوَّنَ الصَّعْبَ بالفَتْحِ المُبِينِ لَكُمْ ... رَبٌّ يَهُونُ عليهِ المُقْفَلُ العَسِرُ

وَلَمْ تَزَلْ شِرْعَةُ الإسلامِ ظاهِرَةً ... اِجْزِمْ بِهِ فبِهَذا صُحِّحَ الخَبَرُ

... وهي طَويلةٌ -كما في «كَنز الدُّرَر...» (٩/ ٩٣) -للدَّاوادارِيّ، و«نهاية الأَرَب» (٣٢/ ٥٠) -للنُّوَيريِّ -وغيرِهما-.

وانظُر «الدُّرَر الكامِنَة» (٣/ ١٩٤) -للحافِظِ ابنِ حَجَر-، وقال عنها: «وهي مُنسجِمَة».

وله «قصيدةٌ طويلةٌ في (التَّوحيد)»: ذَكَرَ مِنها أبياتًا ابنُ حَبيب في «تذكرة النَّبيه» (٢/ ٣٢٠).

وَلِيَ قضاءَ سَلَمْيَةَ[١]، وقَضاءَ صَفَد، **وخَطابَةَ عَجلُون**[٢] -وغيرَ ذلِكَ-.

ثُمَّ عَزَلَهُ القَزْوِينيُّ، وذَمَّ مُعْتَقَدَهُ -لِكَوْنِه لَم يَتأوَّلْ، بلْ أَثْبَتَ[٣]-.

---

(١) بَلْدَة قَرِيبة مِن حَمَاة.

(٢) وفِي «نِهاية الأرب» (٣٢/ ٥٠): «قَاضِي (عجلون)، وخَطيبُها».

و(**عجلون**): بلدةٌ مُتوسِّطةٌ تَقَعُ في شمالِ (المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة)،وهي جميلة-جدًّا-.

وقد وَقَعَ الاختيارُ الأُردنِيُّ الرَّسميُّ عليها (سنة ٢٠١٣) لتكونَ (مدينة الثقافة الأردنية).

وجَمَعَتْ (وزارةُ الثَّقافة) -الأُردنيَّة- كتابًا كبيرًا -في خَمس مجلَّدات- حول (عجلون) -في جَمْع سائر ما يتعلَّق بها- تاريخيًّا، وحاضرًا-.

ولقد فاتت ترجمةُ هذا العالِم (العجلوني) علىٰ جامعِي «الموسوعة العجلونية»! -في المجلّد الثاني- منها- (٢/ ٦١٣-فما بعد): ضِمْنَ (تراجم لبعض العلماء والفُقهاء والأدباء والشعراء)!

(٣) أيْ: أَثْبَتَ للهِ -تعالىٰ- ما أثبتَه لِنَفْسِه، وما أثبتَه له رسولُه ﷺ مِن أسماءٍ حُسنىٰ، وصفاتٍ عُليَا -كما يَليقُ بجلالِه، وكمالِهِ، وعظيمِ سُلطانِهِ- سُبحانَه وتعالىٰ-؛ علىٰ معنىٰ قولِه -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

(فائدةٌ):

زارَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- (عجلون) -كما في «البداية والنهاية» (١٨/ ١٢٥) -لابنِ كَثير-، و«العُقود الدُّرِّيَّة» (ص٣٠٦) -لابنِ عبدِ الهادِي-.

وقال الحافِظُ ابنُ حَجَر في «الدُّرَر الكامِنَة» (٣/ ١٩٤):

«قَرَأْتُ بخطِّ البَدْرِ البالِسِيِّ: «**كان عالِمًا فاضِلًا علىٰ مُعْتَقَدِ السَّلَفِ**».

قُلتُ: ولا يَزالُ الامْتِحانُ والابْتِلاءُ -بِسَبَبِ الاعْتِقادِ السَّلَفِيِّ الصَّحيحِ- مَوجُودًا قائِمًا إلىٰ هذه السَّاعَةِ؛ بَعِيدًا عن آدابِ العِلْمِ، وأُصولِ الائتِلافِ والاخْتِلافِ -الشرعيَّة-.

ولا مُفرِّجَ إلَّا الله.

فسارَ إلىٰ مِصْرَ، فولَّاهُ ابنُ جَماعةَ قَضاءَ دِمْياطَ -أو نَحْوِها-.

فلمَّا نُقِلَ القاضِي جَلالُ الدِّين إلىٰ قَضاءِ الحَضْرَةِ السُّلطانِيَّةِ: تَعَكَّفَ[1] التِّبْرِيزيُّ، وتَشَفَّعَ[2] - وقد جالَسْتُهُ مَرَّاتٍ-.

وكان يَروِي عن الشَّيخِ مَجْدِ الدِّينِ ابنِ الظَّهِيرِ قَصيدَتَهُ[3] الّتي أَوَّلُها:

كُلُّ حَيٍّ إلىٰ المَماتِ مَآبُهْ .....

وكَتَبَ عنهُ أَبُو حَيَّان، وصَلاحُ الدِّين الصَّفَدِيُّ، وشِهابُ الدِّينِ ابنُ أَيْبَك -وغيرُهُم-.

---

(١) أَيْ: اعْتَكَفَ.

(٢) أَيْ: بَذَلَ الشَّفاعَاتِ:

قالَ الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ في «الوافِي بالوَفَيَات» (١٩/ ٣٧-٣٨):

«لَمَّا وَلِيَ القاضِي جَلالُ الدِّين القَزْوِينِيُّ إلىٰ الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ: عَزَلَهُ، ثُمَّ إنَّهُ تَوَصَّلَ، ودَخَلَ عليهِ، فولَّاهُ، ثُمَّ عَزَلَهُ، وقَرَّرَ لَهُ مُرَتَّبًا يَأْخُذُهُ ولا يَتَوَلَّىٰ الأَحْكامَ.

فكُنْتُ كَثيرًا ما أَراهُ، فيَشْكُو إليَّ -بالقاهِرَةِ- حالَهُ، وإعراضَ القاضِي جَلالِ الدِّينِ عَنْهُ، فلَمَّا تَوَجَّهَ إلىٰ الشَّامِ، وتَوَلَّىٰ قاضِي القُضاةِ عِزُّ الدِّينِ ابنُ جَماعَة: وَلَّاهُ قَضاءَ دِمْيَاطَ- لَمْ يَزَلْ بِها حاكِمًا إلىٰ أنْ ماتَ، في جُمادَىٰ الآخِرَةَ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ وسَبْعِ مِئَةٍ-».

(٣) انظُر قِطعةً مِنها، في: «البِداية والنِّهاية» (١٧/ ٥٤٩) -لابنِ كَثِير-، وقالَ: «وهِي طَويلَةٌ -جدًّا-، قَريبة مِن مِئةٍ وخَمسينَ بَيتًا».

وللفائدةِ؛ يُراجَع «المُعجَم المُفَهْرَس للمجمع المؤسِّس» (ص٤١٦) -للحافظِ ابنِ حَجَر -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وكان يَكْتُبُ قَوِيًّا؛ فإنَّهُ جَوَّدَ[١] علىٰ الشَّرَفِ حُسَين الشَّهْرُزُورِيِّ[٢]، وعالَجَ الأحكامَ قَريبًا مِن سِتِّين سَنَة.

ولَهُ أخلاقٌ حَسَنَةٌ.

أَنْشَدَنِي -لِنَفْسِهِ- سَنَةَ أَرْبَعٍ وسَبْعِ مِئَةٍ-:

كَمْ بَيْنَ بَانِ الأَجْرَعِ ... ورَامَةٍ وَلَعْلَعِ
مِنْ قَلْبِ صَبٍّ مُوجَعِ ... سَكْرَانَ وَجْدٍ لا يَعِي
تَراهُ ما بَيْنَ الحُلَلْ ... جَرِيحَ أَسْيافِ المُقَلْ
فَارْفُقْ بِهِ ولا تَسَلْ ... عَنْ قَلْبِهِ المُضَيَّعِ

... إلىٰ آخِرِها.

وهي مَوعِظَةٌ مُذَكِّرَةٌ[٣].

---

(١) أيْ: الخَطّ المَنسُوب -كما في «المَنهَل الصَّافِي» (٧/ ٣٢٧)-.

(٢) في أَكْثَر مِن مَصْدَر: (شَمس الدِّين).
وقد تَرْجَمَ له الذَّهَبِيُّ في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٦٤).
وتَحَرَّفَ في بعضِ المَصادِرِ إلىٰ: (السَّهروردي)!

(٣) وهي القَصيدَةُ الّتي بُنِي عليها كِتابُنا -هذا- بحمدِ اللهِ -تعالىٰ-.
وقال الحافِظُ ابنُ حَجَر في «الدُّرَر الكامِنَة» (٣/ ١٩٤):
«القَصيدة الموعِظَة المُلّاحة».
و(المُلَّاحة)؛ أي: مَليحَةٌ -جدًّا-.
وانظُر «مَعالِم السُّنَن» (٤/ ٦٧) -للخَطَّابِيِّ-.

وأَنْشَدَنا لِنَفْسِهِ:

بِـأَيِّ لِـسانٍ يَلْهَـجُ العَبْـدُ بالـشُّكْرِ ... وقَدْ جَلَّتِ النَّعْمَا عـن الضَّبْطِ والحَصْرِ
فلَـوْ رُمْـتَ بَـثَّ الـشُّكْرِ في كُـلِّ طَرْفَـةٍ ... بِضَعْفِ الحَصَىٰ والرَّمْلِ والنَّبْتِ والقَطْرِ
ومـا سَـبَّحَ الأَمْـلاكُ للهِ في العُلَـىٰ ... وصَلْـصَلَةِ الأَمْـلاكِ بـالأَنْجُمِ الزُّهْـرِ
فَـأَوَّاهُ وَاعَجْـزَاهُ وَاضَـعْفَ حِيلَتِـي ... وَوَاعُظْمَ تَقْصِيرِي عَـنِ الحَمْدِ والـشُّكْرِ

ومِنْها:

وأَسْـلَمَنِي عَمِّـي إلـىٰ القَبْـرِ قـاتِلًا ... فغَـذَّيْتَنِي بـاللُّطْفِ في ظُلْمَـةِ القَبْـرِ
ثَـلَاثَ لَيَـالٍ بِـتُّ فِيهـا مُوَسَّـدًا ... وأَرْبَـعَ أَيَّـامٍ مُكَمَّلَـةَ القَـدْرِ
وكَـمْ صِـحْتُ مـا ذَنْبِـي أَغِثْنِـي مُجاوِبًـا ... فَـصَدَّ كـأَنَّ الاسْـتَغاثَةَ بالـسُّمْرِ
فـأَخْرَجْتَنِي مِـن ظُلْمَـةِ القَبْـرِ سَـالِمًا ... بِـلَا شَـعَثٍ رَيَّـانَ كالغُـصُنِ النَّـضْرِ
وعَمَّرْتَنِـي سَـبْعًا وسَـبْعِينَ حَجَّـةً ... ومـا سَـوْفَ يَـأْتِي بَعْـدَهُنَّ فَـلَا أَدْرِي

تُوُفِّيَ القاضِي عَبْدُ القاهِرِ بدِمْيَاطَ، في جُمادَىٰ الآخِرَةِ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ وسَبْعِ مِئَةٍ[1]، ولَهُ اثْنَتانِ وتِسعُونَ سَنَةً.

أَنْشَدَنِي الخَلِيلُ الكاتِبُ: أَنْشَدَنَا التِّبْرِيزِيُّ -لِنَفْسِهِ-[2]:

---

(١) وفي بعضِ المَصادر -وهي أقلُّها!-: أنَّ وفاتَه كانَت سنةَ تسعٍ وأربعين!!

(٢) في وَصْفِ الشَّبَّابَةِ!!

كما فِي «فَواتِ الوَفَيَات» (٢/ ٣٦٧) -لابنِ شاكِرٍ الكُتُبِيِّ-.

وفي «أعيان العصر» (٣/ ١٢٨) شعرٌ آخَر -له- (مُلْغِزًا) فِي وَصْفِ (الكَمَنْجَا)!!

وقد قالَ ابنُ حَجَر الهَيْتَمِيُّ في «الزَّواجِرِ عنِ اقْتِرافِ الكَبائِر» (٢/ ٣٤٢): «المذهب الذي عليه الجماهيرُ: تَحريمُ الشَّبّابة».

=

وناطِقَـــــةٍ بـــــأَفْواهٍ ثَمـــــانٍ تَمِيـــلُ بعَقْـــلِ ذِي اللُّـــبِّ العَفِيـــفِ
لِكُـــلِّ فَـــمٍ لِـــسانٌ مُـــسْتَعَارٌ يُخـــالِفُ بَـــيْنَ تَقْطِيـــعِ الحُـــرُوفِ
يُخاطِبُنـــــا بِلَفْـــــظٍ لا يَعِيـــــهِ سِـــوَىٰ مَـــن كَـــان ذا طَبْـــعٍ لَطِيـــفِ
فَـــضِيحَةُ عاشِـــقٍ ونَـــديمُ واعٍ وعِـــزَّةُ مَوْكِـــبٍ ومُـــدامُ صُـــوفِي»[1].

(ثلاث فوائد):

- **الفائدةُ الأولىٰ**: مَرَّ علىٰ البِلادِ الأُردُنِّيَّة -عَبْرَ التَّاريخ الإسلاميّ- كثيرٌ مِن العُلماء السلفيِّين المُعتبَرِين؛ كمِثلِ مُؤلِّفِنا (التِّبريزي الشَّافعي)، وكذلك (ابن العِزّ الحَنَفِيّ)[2] -شارح «**العقيدة الطحاوية**» -الشَّهير- وغيرهما-.

- **الفائدةُ الثانية**: كَتَبْتُ في التَّاريخ المُعاصر للدعوة السلفيَّة -في الأردن- وَمِن قَبلِ إنشاءِ (إمارة شرق الأردن) -رسالة بعُنوان: «**مُجْمل تاريخ (الدعوة السلفية) في الدِّيار الأردُنِّيَّة**» -وهي مطبوعةٌ سَنَةَ (٢٠٠٩)-.

=
وانظُر «كَفّ الرَّعاع عن مُحرَّمات اللَّهْوِ والسَّماع» (ص١١٢) -لهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.
ولِشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ «قاعدة: في تَحريم الشَّبَّابة» -كَما في «العُقود الدُّرِّيَّة» (١/ ٦٥)-.

(١) إلىٰ هُنا انتهَت (التَّرجمة)، وانظُر «أَعيان العَصْر» (٣/ ١٢٨).

(٢) المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٧٩٢هـ)-كما في «الدُّرر الكامنة»(٣/ ٨٧) للحافظِ ابنِ حَجَر-رحمهُما الله-.
وقد كان قاضي بَلْدَةِ (حُسْبان) -الواقعة في (محافظة مادبا) -جنوب العاصمة الأُردُنِّيَّة (عمَّان) -كما في «إنباه الغُمْر» (١/ ٤٠١) -للحافظ ابن حجر-.
ولفضيلة أخينا الشيخ مشهور حسن سلمان -وفَّقه الله- كتابٌ حافلٌ في تحريرِ -وتحقيقِ- ما جَرَىٰ لابنِ العِزّ مِن «الفِتنة»!

- **الفائدةُ الثالثة**: أغلبُ الظَّنِّ: أنَّ قاضي عجلون التِّبْرِيزيّ قد الْتَقَىٰ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ -رحِمَهُما الله-.

ولكنَّه -فيما يَبدُو-واللهُ أَعلمُ- لَم يُحِبَّ أنْ يُظْهِرَ[1]- أوْ: أَنْ يَظْهَرَ -ذلك في سِيرتِه ومَسِيرتِه؛ وذلك بسبب ظُروف الابتِلاء الّذي ابتُلِي به -يَومَذاك- بِسَبَبِ عقيدتِه السَّلَفِيَّة، ومُعاداة بعضِ شُيوخِ زَمانِهِ لهُ.

ومِن مُرَجِّحَات لِقائِهِ به -فيما ظَهَرَ لِي- خَمسُ قَرائنَ -وقد تَكُونُ أَكثرَ-:

١- كَونُهُما مِن مَوالِيد بلدةٍ واحدةٍ، هي: (حَرَّان)[2].

٢- كونُهُما مُتعاصِرَيْن -زَمانًا-:

فابنُ تيميَّة: وُلِدَ سَنَةَ (٦٦١هـ)، وقاضي عجلون -هذا- وُلِدَ سَنَة (٦٤٨هـ).

وقاضي عجلون: تُوُفِّيَ سَنَةَ (٧٤٠هـ)، وابنُ تَيميَّةَ تُوُفِّيَ سَنَةَ (٧٢٨هـ).

فقد اجتمعَا في الحَياةِ -مُتعاصِرَيْنِ- طِيلةَ عُمُرِ شيخِ الإسلام -كُلِّه-.

٣- الإمام الذهبيُّ تِلميذٌ مُشتَرَكٌ بَيْنَ هذَين العالمَيْن الجَليلَيْن.

٤- زار شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ عَجلون -كما تقدَّم- (ص٤٩)-.

٥- نَظَمَ قاضِي عجلون -شاعِرُنا- قَصيدةً بَديعةً -طَويلةً- في مَدْحِ (وقعة شقحب) -ضِدَّ التَّتار-، وكان ابنُ تيميَّةَ- يومَذَاك- مِن أعظمِ قادتِها، وأقوَىٰ مُجاهِدِيها[3].

---

(١) قارِن بِـ«منهج الإمام ابن أبي العِزّ الحنفي في(شرح العقيدة الطّحاوية)»(ص٨٩) -عبد الله الحافي-.

(٢) انظُر ما تقدَّم (ص٤٤).

وانظُر -حول وِلادة ابن تيميَّة-فيها-: «قلادة النحر في وَفَياتِ أعيان الدَّهر» (٦/ ١٨٦) -للطيِّب با مَخْرَمة-.

(٣) انظُر ما تقدَّم (ص٤٨)، و«مسالك الأبصار» (١/ ٣٢٢) -لابن فضل الله العُمَري-وغيره-.

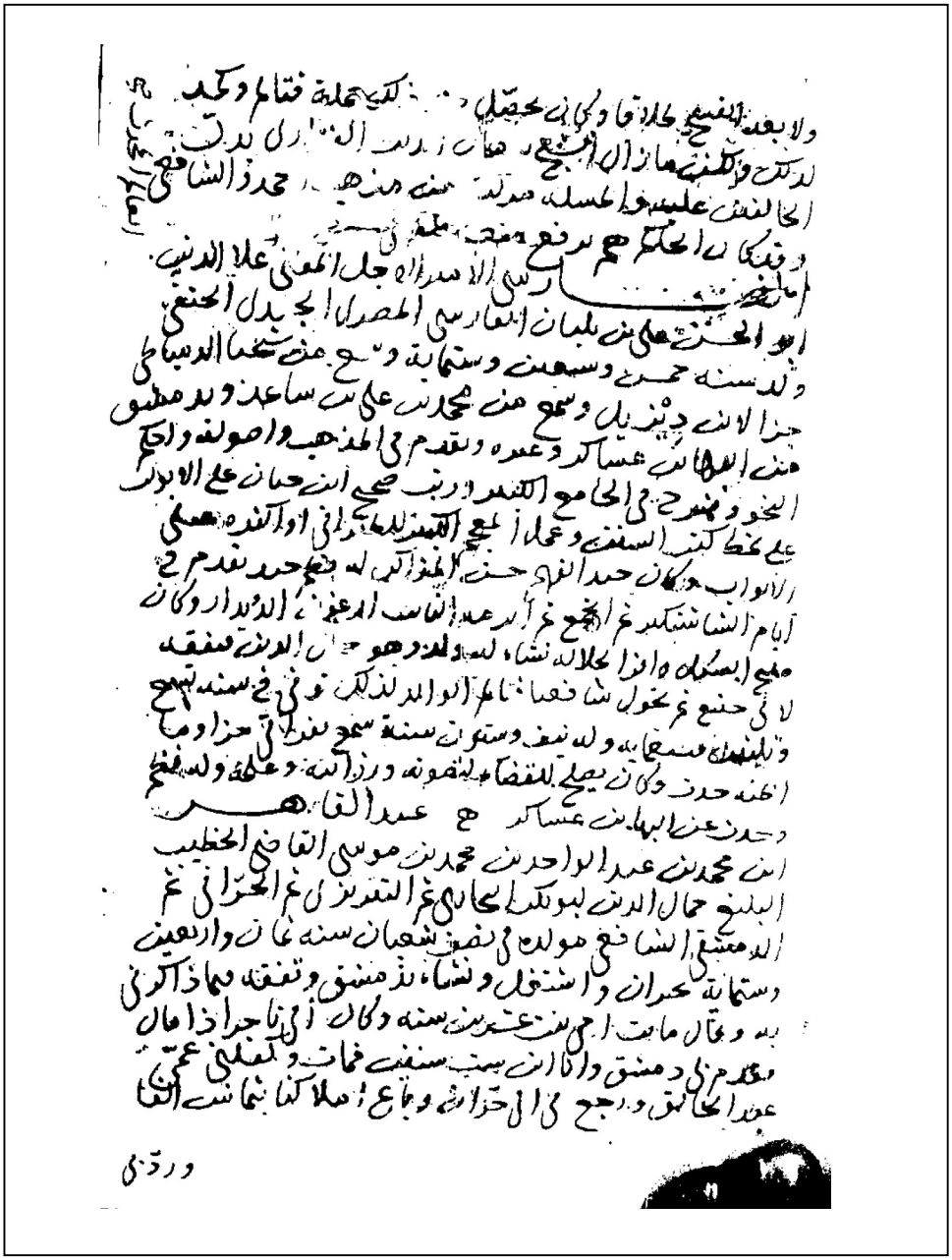

تَرجَمَةُ صاحِبِ (القَصيدَةِ) -مَخطُوطةً- مِن «ذَيْل تَاريخ الإسلام» -للذَّهَبِيِّ-

-الصفحة الأولى-

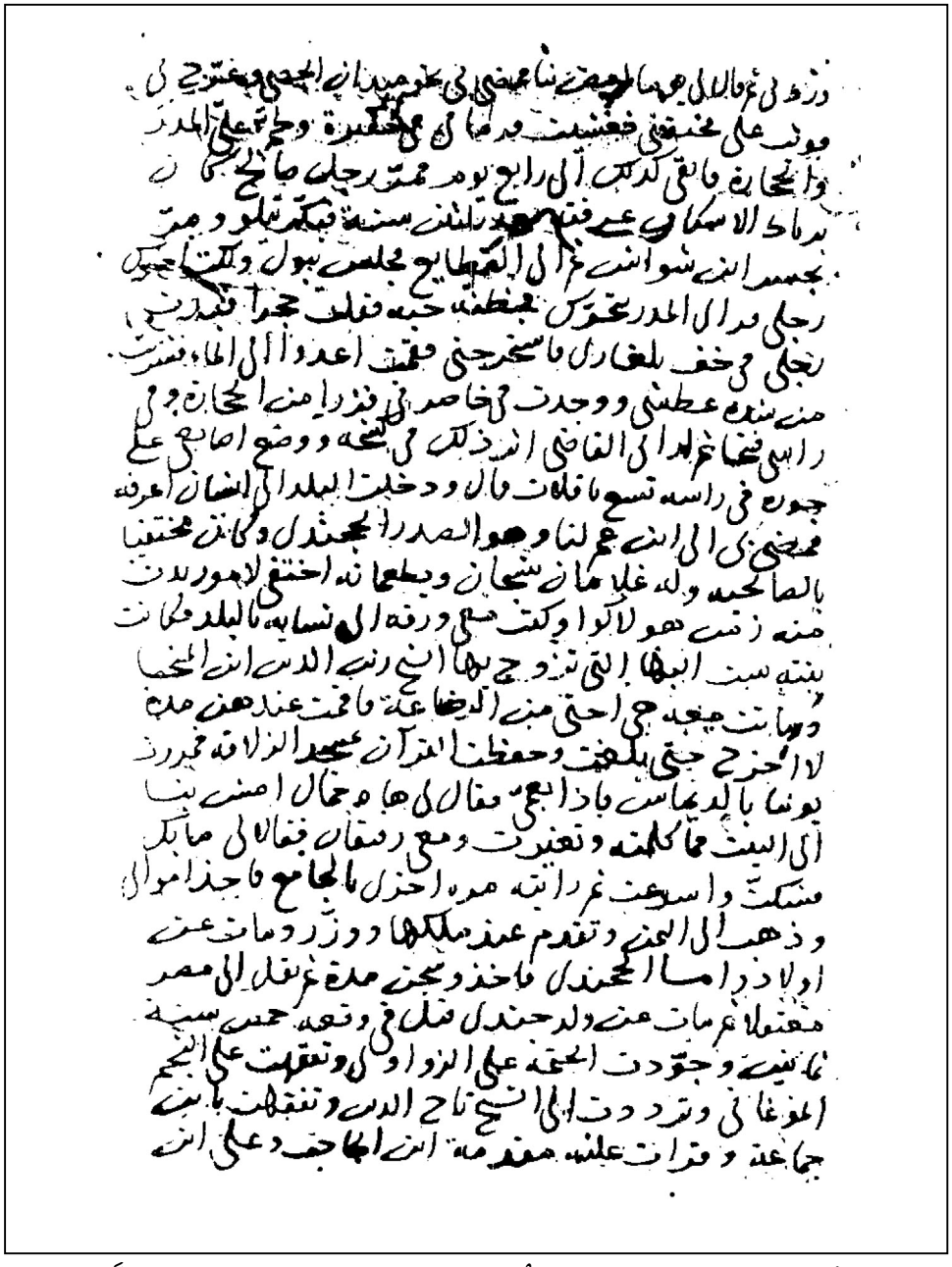

تَرجَمَةُ صاحِبِ (القَصيدَةِ) -مَخطُوطةً- مِن «ذَيْل تَاريخ الإسلام» -للذَّهَبِيِّ-

-الصفحة الثانية-

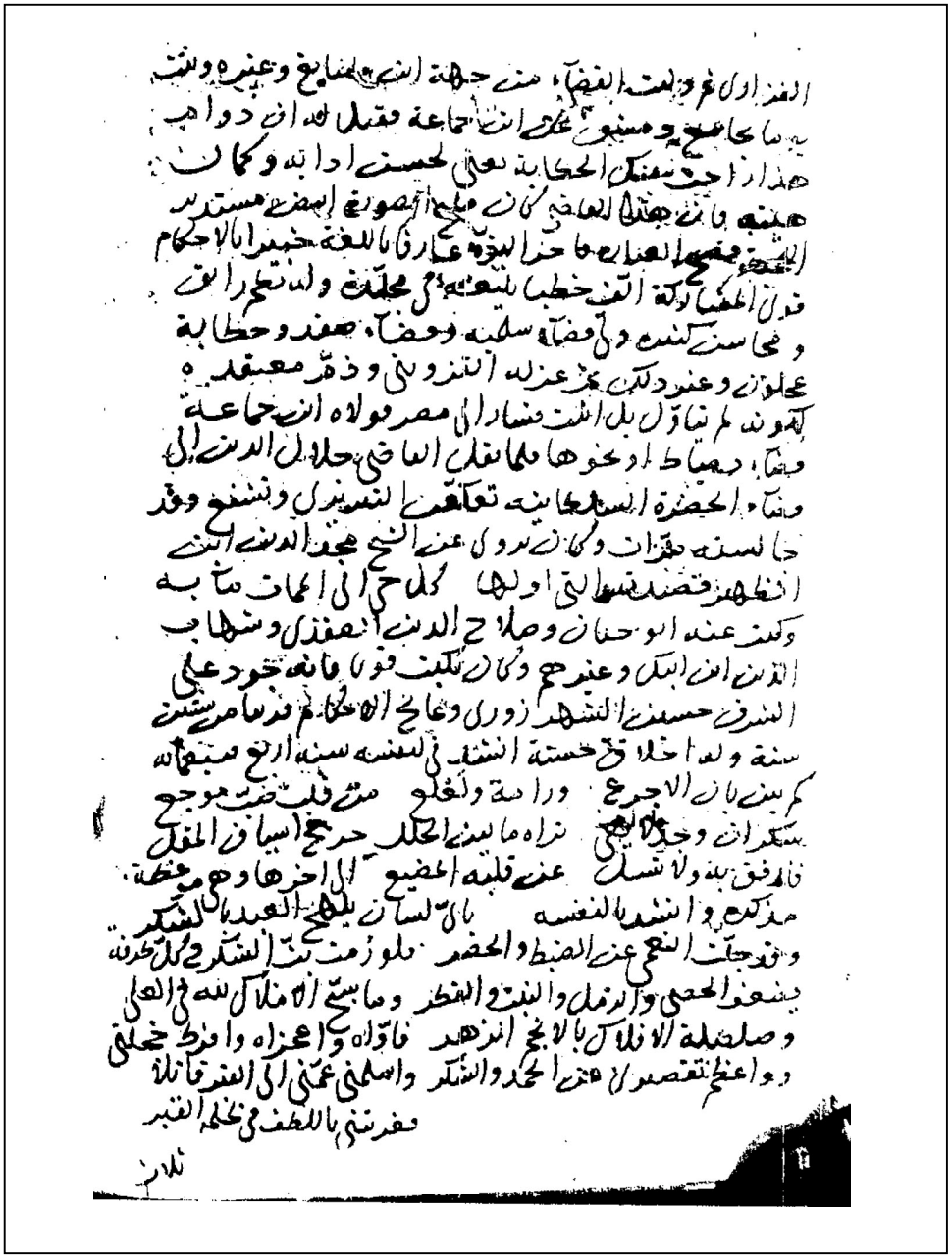

تَرجَمَةُ صاحِبِ (القَصيدَةِ) -مَخطُوطةً- مِن «ذَيْل تَاريخ الإسلام» -للذَّهَبِيِّ-

-الصفحة الثالثة-

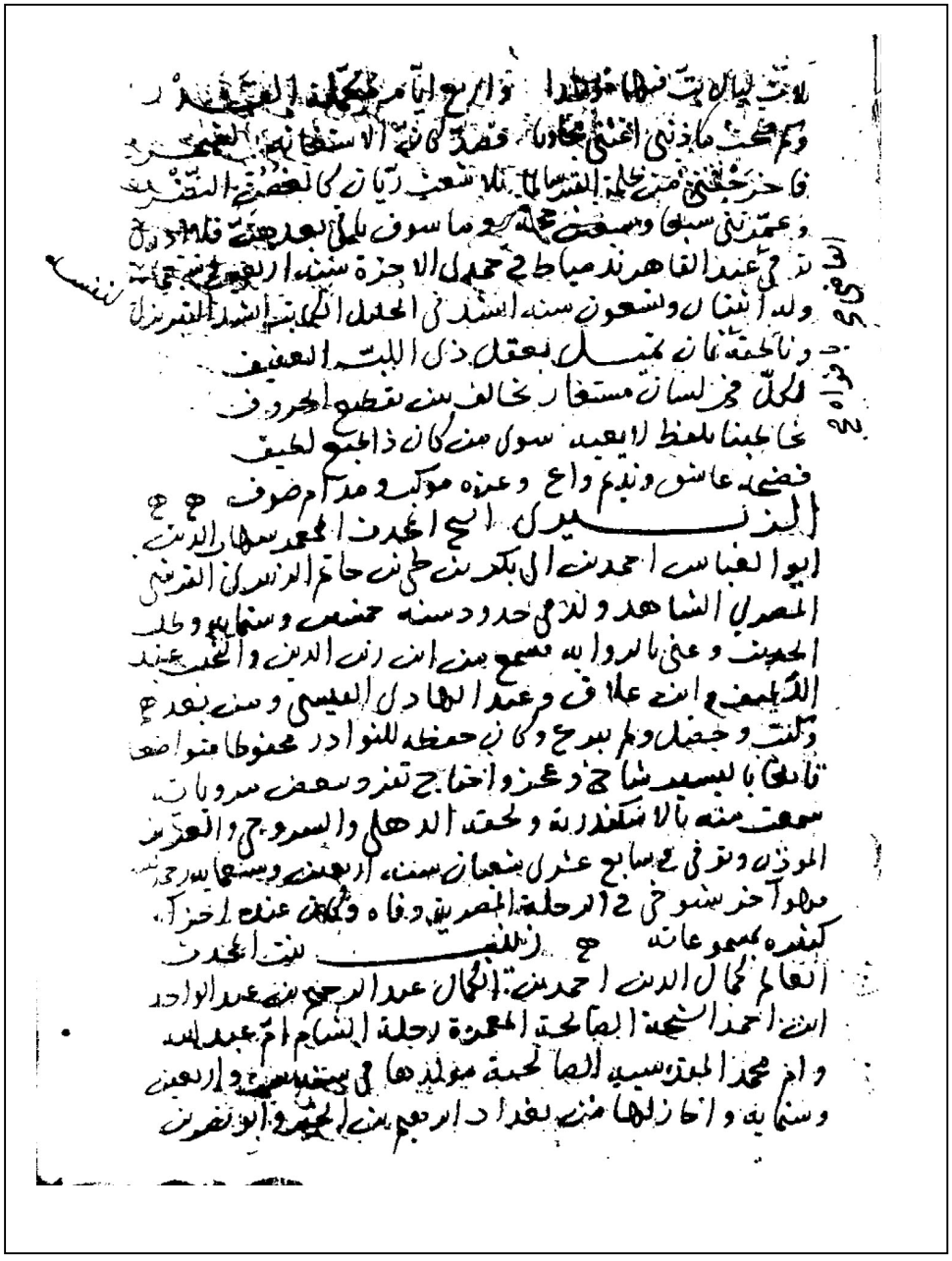

تَرجَمَةُ صاحِبِ (القَصيدَةِ) -مَخطُوطةً- مِن «ذَيْل تَاريخ الإِسلام» -للذَّهَبِيِّ-

-الصفحة الرابعة-

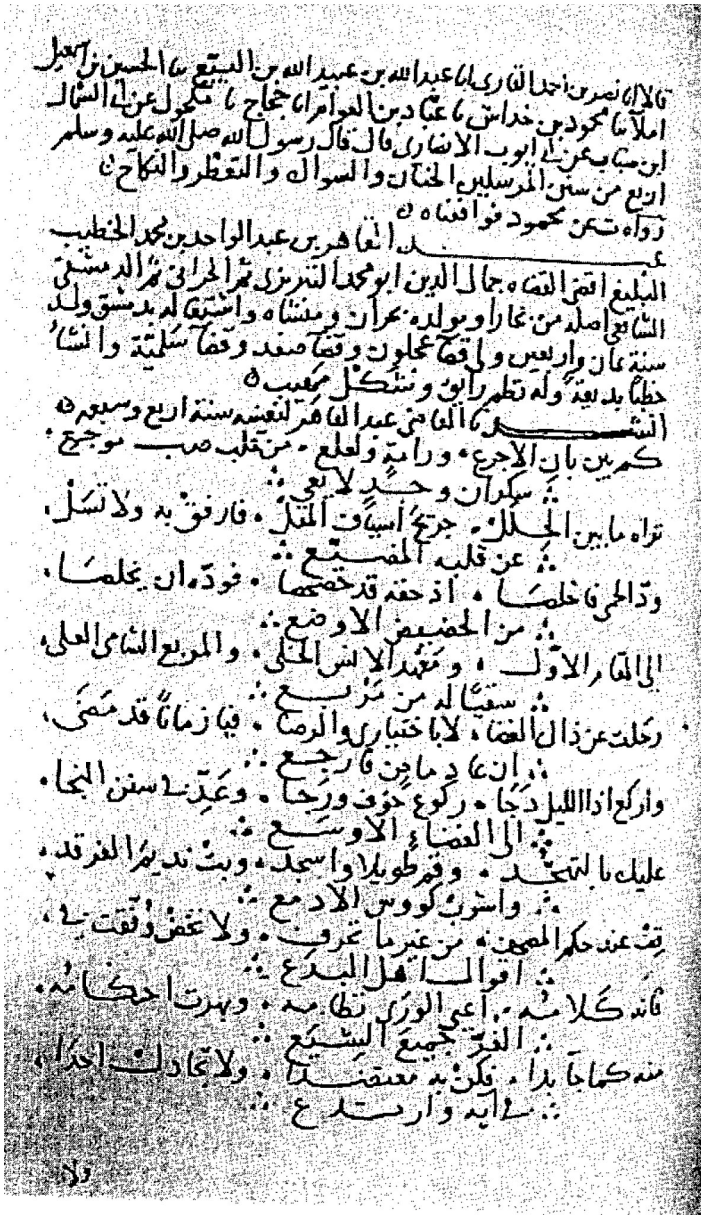

نَصُّ (القَصيدَةِ) -مَخطُوطًا- مِن «مُعْجَم الشُّيُوخ» -للذَّهَبِيِّ-

-١-

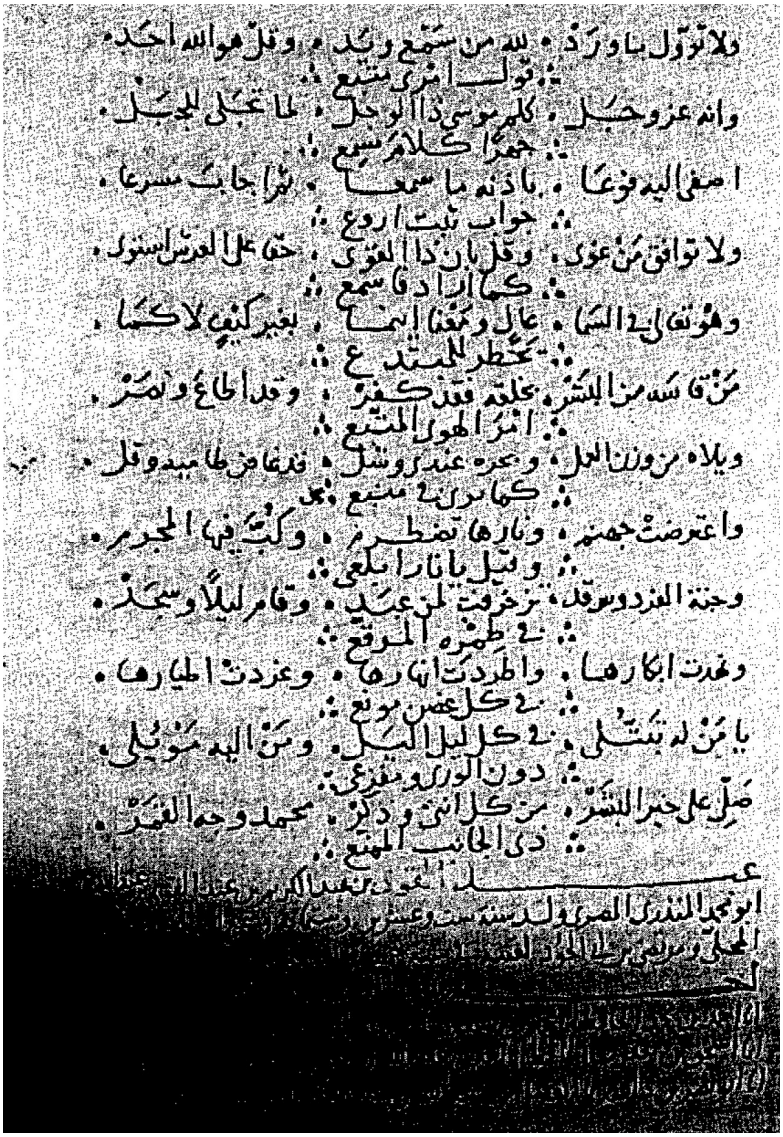

نَصُّ (القَصيدةِ) -مَخْطُوطًا- مِن «مُعْجَم الشُّيُوخ» -للذَّهَبِيِّ-

-٢-

ثُمَّ:

... هذا أَوانُ شَرْحِ هذه «**القَصيدَةِ العَجلُونيَّة**» الوَعْظِيَّةِ، العِلْمِيَّةِ، الاعْتِقادِيَّةِ، السَّلَفِيَّةِ، النَّافِعَةِ -إنْ شاءَ اللهُ -تعالىٰ-.

فأَقُولُ مُستعِينًا بربِّ العالمِين- وهو نِعْمَ المُعِين-:

ابْتَدَأ النَّاظِمُ -رَحِمَهُ اللهُ- بذِكْرِ ما كانَ مِن زمانٍ ماضٍ؛ فيه اللَّهْوُ واللَّعِبُ، والانْشِغالُ بالدُّنيا وزُخْرُفِها، والتَّنَقُّلُ بَيْنَ لَذائذِها وجَمالاتِها -كالمُتَحَسِّرِ-؛ فقال:

- ١ -

كَـمْ بَـيْنَ بـانِ الأَجْـرَعِ ورَامَـةٍ ولَعْلَـعِ

□ الشَّرحُ الإجمالي:

كَثيرًا ما قَضَيْنَا الأزمانَ، وأَمْضَيْنَا السَّاعاتِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الأَشجارِ الجَميلَةِ، والأَزْهَارِ اللَّطيفَةِ -في أَماكِنَ مُتعدِّدَةٍ، وظُرُوفٍ مُتنوِّعَةٍ-!

مع كَوْنِ طَريقِنا المَسلُوكِ -هذا- لَيْسَ بَعِيدًا عن مَوَاضِعِ الخَيْرِ المُوصِلَتِنَا إلىٰ مَدارِجِ التَّقْوَىٰ والهُدَىٰ، ولَكِنْ!!

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيُّ:

* (كَم) -هُنا- الخَبَرِيَّةُ؛ لا الاسْتِفهامِيَّة.

قالَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ في «الدُّرّ المَصُون» (٢/ ٣٦٨):

«(كَم) -الخَبَرِيَّة- مُستقِلَّةٌ بنَفْسِها، غَيْرُ مُتعلِّقَةٍ بالسُّؤالِ».

وهِيَ «تَدُلُّ علىٰ الإخبارِ بعَدَدٍ كَثيرٍ» -كما قالَهُ محمد الأمِينُ الشِّنقِيطِيُّ في «أضواءِ البَيانِ» (٥/ ٢٧٢)-.

فهي -إذَن- «يُكَثَّرُ بها» -كما في «البَحْرِ المُحِيط» (٣/ ٣٥٨) -لأبِي حَيَّان-.

والمَقصُودُ: الإخبارُ بأنَّ كثيرًا مِن الوَقْتِ والزَّمانِ والأفعالِ أُنْفِقَ في مَلَذَّاتِ الدُّنيا؛ حتَّىٰ لو لَمْ تَكُن مُحرَّمَةً في ذاتِها؛ فكيفَ لو كانتْ؟!

* (بان): «شَجَرٌ، الواحِدَةُ: بانَة» -كما في كتابِ «العَيْن» (٨/ ٣٨٠)

-المنسوب للخَلِيلِ ابنِ أحمد-.

وهو شَجَرٌ [عظِيمٌ][١] يَسْمُو، ويَطُولُ -في اسْتِواء-، وليسَ لِخَشَبِهِ صَلابَةٌ، وهو شديدُ الخُضْرَةِ.

مُلَخَّصٌ مِن «المُحْكَم» (١٠/ ٥٠٨) -لابنِ سِيدَه-، ثُمَّ قالَ:

«ولِاسْتِواءِ نَباتِها، ونَباتِ أَفنانِها، وطُولِها، ونَعْمَتِها: شَبَّهَ الشُّعراءُ الجارِيَةَ النَّاعِمَةَ ذاتَ الشِّطاطِ بها، فقيلَ: كأنَّها بانَةٌ، وكأنَّها غُصْنُ بانٍ..».

و«الشِّطاطُ»: «حُسْنُ القِوام»[٢]، و«الطُّول والاعْتِدال» -كما في «شَمْس العُلوم» (٦/ ٣٣٢٩) -لِلحِمْيَرِيِّ-.

ومِن هُنا صارَ كَثِيرٌ مِن الشُّعَراءِ والأُدَباءِ يُشَبِّهُونَ النِّساءَ -وجَمَالَ قَوامِهِنَّ- بِـ(قَضِيبِ البان).

* **(الأَجْرَع)**؛ هو: «المَكانُ السَّهْلُ المُخْتَلِطُ بالرَّمْلِ» -كما في «شَرْحِ دِيوان الحَماسَةِ» (٩١٦) -للمَرزُوقِيِّ-.

وبه -أيضًا- يتغنَّىٰ الشُّعراءُ -كَثيرًا-؛ كَمَا قِيلَ:

سَلِي البانَةَ العُلْيَا مِن الأَجْرَعِ الَّذِي ... بِهِ البانُ هل حاوَلْتُ غَيرَ وِصالِكِ

كما في «مصارِع العُشَّاق» (٢/ ٣٥٣) -للسَّرَّاج-.

---

(١) «نهاية الأرب» (١٢/ ٧٢) -للنُّوَيْرِيِّ-.

(٢) «البارِع في اللُّغَة» (ص٥١٥) -لِأَبِي عَلِيٍّ القالِي-.
وانظُر «أَدَب الكاتِب» (ص٥٤٥) -لابنِ قُتَيْبَة-.

* (**رَامَة**): هو مكان في طريق البَصْرَة إلىٰ مَكَّةَ -كمَا في «مُعجَم البُلدان» (٣/ ١٨) -لِياقُوت-.

وقال السَّمْهُودِيُّ في «وَفاء الوَفاء» (٤/ ٧٩): «مَنزِل بِطَرِيقِ الحاجّ العراقيّ».

وفيها قولُ الشَّاعر:

أَسُكَّان رامَةَ هل مِن قِرَىٰ فقد دَفَعَ اللَّيلُ ضَيْفًا قَنُوعَا

كما في «مُثير العَزم السَّاكن» (١/ ١٤٠) -لابنِ الجَوزِيِّ-.

وقِيلَ:

ما دُونَ رامَةَ للمُحِبِّ مَرامُ سِيَمَا إذا لاحَتْ له الأعلامُ

كما في «تصحيح التَّصحيف» (ص٣٢٦) -للصَّلاحِ الصَّفَدِيِّ-.

* (**لَعْلَع**): قِيلَ فيه أشياءُ؛ مِنها: ما قالَهُ يَاقُوت في «مُعجَم البُلدان» (٥/ ١٨):

«منزل بَيْنَ البَصْرَةِ والكُوفَة».

والّذِي أراهُ -واللهُ أَعلَمُ-: أنَّ المَقصودَ -هُنا-: ما قالَهُ السَّمهُودِيُّ في «وَفاء الوَفاء» (٤/ ١٣٩): «جَبَل قُرْب المَدينة، وجَبَل بمَكَّة»[1].

واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظُر «المعالِم الأَثِيرة في السُّنَّة والسِّيرة» (ص٢٣٦) -لمحمَّد حَسَن شُرَّاب-، و«معجم المعالِم الجغرافية في السِّيرة النبويَّة» (ص٢٧١) -للبِلادِي-.

*** فائدة:**

اهْـتَمَّ الـشُّعَراء -مُنـذ العَـصرِ الجـاهِلِيّ، فالعَـصرِ الإسـلاميّ -وإلـىٰ اليـوم- بالطَّبِيعَةِ، والمكان، ومدَىٰ تأثيرِ ذلِكَ -كُلِّـهِ- علىٰ الإنسانِ؛ في مَشاعِرِه، وسُلوكِهِ، وأحوالِهِ[1].

فَـ«لا غَرابَةَ في أَنْ يَنشَغِلَ كُلٌّ مِن النَّقْدِ الأدبِيِّ، وعِلْـم الجَمـال، وعِلْـم الـنَّفْس: بموضُوع المَكان، وطَرائِق تَبَدِّيهِ في الإبداعِ العربيِّ»[2].

ومِـن أَجْمَـعِ المُؤلَّفـاتِ -القَديمـةِ- في هـذا المعنَىٰ: كتـابُ «المَنـازِلِ والـدِّيار» للأَمِير أُسامةَ بنِ مُنقِذ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥٨٤هـ) -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وقـد جَمَـعَ فيـه المُؤلِّـفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- «نحـو خمسة آلافِ بَيْـتٍ مِـن جيِّـد الـشِّعْرِ العربيِّ»[3].

وفيه: ذِكْرُ (الأطلال)، و(المَغاني)[4]، و(الآثار)، و(المعاهِد)، و.. و..

---

(١) وانظُر كِتاب «شِعر الطَّبِيعَة في الأَدَب العَرَبِيّ» -للدُّكتور سيِّد نوفل-، وكتاب «الطبيعة في الـشعر الجـاهلي» -لنـوري حمّـودي القيـسي-، و«الطبيعـة في أشـعار أصـحاب (المُجَمْهَرَات)» -للأخ الصَّدِيق الدُّكتور محمد فيصل زهران -وغيرهم-..
وفي «مجلَّـة الرِّسـالة» (عـدد ٧٦ / سـنة ١٩٣٤)، مقـالٌ جيِّـد بعُنـوان: «الـشَّاعِر والطَّبيعـة» -لِنَظْمِي خليل-.

(٢) مَقال (جمالية المكان: «آليات التَّبَدِّي المكـاني في الـشِّعر») -للدُّكتور سـعد الـدِّين كليـب- مَنشُور علىٰ (شبكة الإنترنت) : (١٠/ ٧/ ٢٠١١).

(٣) مُقدِّمَة تَحقيق الدُّكتور مصطفىٰ حجازي -له- (ص٩)-.

(٤) أي: المَنازِل.

ومِن أَشْهَرِ ذلك: قَولُ امْرِئِ القَيس[١]:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَىٰ حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَىٰ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقولُ مَجنُونِ لَيْلَىٰ[٢]:

أَمُرُّ علىٰ الدِّيارِ دِيارِ لَيْلَىٰ أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذا الجِدارَا

وما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ولكِنْ حُبُّ مَن سَكَنَ الدِّيَارَا

... وكثيرٌ غيرُهُم[٣].

وأُلِّفَت في هذا البابِ -حَديثًا- مُؤلَّفاتٌ عَديدةٌ، مِنها:

١- «جماليَّات المَكان في شِعْرِ ذِي الرُّمَّة -لفاديا رضا-.

٢- «المَكان في شِعْرِ ابنِ زَيدُون» -لساهرة العامِرِيّ-.

٣- «المَكان في شِعْرِ طاهِر زَمَخْشَرِيّ» -لِسَلْمَىٰ باخشَوان-.

٤- «عامِل المَكان في الشِّعر العربيِّ بين الجمالية والتَّاريخ» -لعبد الله أحمد باقازي-.

... وغيرها.

إضافةً إلىٰ عَشَرات المَقالاتِ والأبحاثِ -المُضمَّنَةِ والمُفْرَدَة-...

---

(١) «شرح المُعلَّقات العشر» (ص٧٥).

(٢) «ديوانه» (ص١٢٧).

(٣) انظُر «المُفصَّل في تَاريخ العَرَب قَبْلَ الإسلام» (١٧/ ١٤٣) -للدُّكتور جَواد علِي-.

- ٢ -

مِــن قَلْــبِ صَــبٍّ مُوْجَــعِ   سَــــكْرَانَ وَجْـــدٍ لا يَعِـــي

❑ الشَّرحُ الإجماليّ:

يَقُولُ: أَقُولُ هذا وَقَلْبِي مُشْتَاقٌ مَوجُوعٌ مِن آثـارِ ذاك الماضِي، وتَبِعَاتِهِ؛ بِحَيْثُ غَدَوْتُ كالسَّكْرانِ مِن الحُبِّ وشِدَّتِهِ -لا أشْعُرُ بشيءٍ، ولا أُحِسُّ بِشَيءٍ-!

❑ التَّفصيلُ اللُّغويّ:

* (**الصَّبّ**): قال سَلَمَةُ بنُ مُسلم في كتابِ «الإبانة في اللُّغَةِ العربيَّةِ» (٣/ ٣٥١):

«قَولُهُم: فُلانٌ صَبٌّ؛ أي: به صَبابةٌ، والصَّبابةُ: رِقَّةُ الشَّوْقِ».

وقال أَبُو العَتاهِيَة(١):

ولِــي فُــؤادٌ إذا طــالَ العَــذابُ بِــهِ   هــامَ اشْــتِياقًا إلــىٰ لُقْيَــا مُعذِّبِــهِ
يَفْـدِيكَ بـالنَّفْسِ صَـبٌّ لَـو يَكُـونُ لَـهُ   أَعَــزُّ مِــن نَفْـسِهِ شَــيءٌ فَـدَاكَ بِــهِ

* (**مُوجَع**): مُتَأَلِّم.

* (**سَكْران**)؛ أي: كالسَّكْرانِ؛ مِن كَثْرَةِ الشَّوقِ والوَلَهِ.

ومِنهُ قَولُ الشَّاعِرِ:

---

(١) كما في «مُحاضَرات الأُدباء» (٢/ ٥٨) -للرَّاغِبِ الأصبهانِيِّ-.
و(المُدَام): الخَمْر.

سَقَانِي علىٰ عَيْنَيْهِ كَأْسَ رُضابِهِ فأَسْكَرَنِي أَضْعافَ سُكْرِ مُدامِهِ[1]

* (**وَجْد**): هو شِدَّةُ الشَّوْقِ -كما في «المقاصد النَّحْوِيَّة» (١/ ٥٠٩) -لِلبَدْر العَيْنِيِّ-.

ومِنهُ: قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَذَكَّرْتُ أَيَّامَ الحَجِيجِ فأَسْبَلَتْ جُفُوني دِماءً واسْتَجَدَّ بِيَ الوَجْدُ

كما في «سُلافة العَصْر» (١/ ٨٦) -لابنِ مَعصُوم-.

* (**لا يَعِي**): مِن (الوَعْي)؛ وهو: إدراكُ الأُمُورِ.

(١) «خريدة القصر» (٢/ ٣٣٣) -للعِماد الأصبهانِيِّ-.

-٣-

تَــرَاهُ مَــا بَــيْنَ الحُلَــلْ جَــرِيحَ أَسْــيافِ المُقَــلْ

□ الشَّرحُ الإجماليّ:

تَـرَىٰ صـاحِبَ هـذا القَلْـبِ المُعـذَّبِ مُتقَلِّبًـا بَـيْنَ الثِّـيابِ الجَمِيلَـةِ المُزَرْكَـشَةِ، مَجْرُوحًا مِن النَّظَراتِ الحادَّةِ للعُيونِ الجَميلَةِ -لَهْوًا وعَبَثًا-.

□ التَّفصيلُ اللُّغويّ:

❋ (**الحُلَل**): جَمْعُ (حُلَّةٍ)، وهي: الثِّيابُ الجَميلةُ.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

إِذَا خَلَعْــتُ علــىٰ عِــرْضٍ لَــهُ حُلَــلًا وَجَــدْتُها مِنــهُ في أَبْهَــىٰ مِــن الحُلَــلِ

كما في «يَتِيمَة الدَّهْر» (١/ ٢٢٧) -لِلثَّعالِبِيِّ-.

❋ (**أَسْياف**): جَمْعُ (سَيف) -وهو مَعْرُوفٌ-.

❋ (**المُقَل**): جَمْعُ (مُقْلَة)، هي: العَينُ.

-٤-

فَـــارْفُقْ بِـــهِ ولا تَـــسَلْ عـــنْ قَلْبِـــهِ المُـــضَيَّعِ

□ الشَّرحُ الإجماليّ:

فَتَلَطَّفْ بهذا الإنسانِ العاشِقِ الّذي هُو علىٰ هذِه الأحوالِ الصَّعْبَةِ العَسِرَةِ، وتَرَفَّقْ بهِ؛ فقَلْبُهُ -فوقَ هذا-كُلِّه-: مُضَيَّعٌ تائِهٌ.

□ التَّفصِيل اللُّغَوِيّ:

* (**فَارْفُقْ**)، مِن (الرِّفْقِ)؛ وهو: «لِينُ الجانِبِ بالقَوْلِ والفَعْلِ» -كما في «فتح البارِي» (١٠/ ٤٢٩) -لابْنِ حَجَرٍ-.

وعن عائشَةَ -زَوجِ النَّبِيِّ ﷺ-، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ في شَيْءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنْزَعُ مِن شَيْءٍ إلَّا شانَه**»(١).

* (**ولا تَسَلْ**)، مِن السُّؤال، والاستِفْسارِ عن الأحوالِ.

وما هذا -هُنا- إلَّا لِوُضُوحِ حالِهِ، وظُهُورِ ضَعْفِهِ.

ومنهُ: قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لا تَـــسَلْنِي عـــنِ اللَّيـــالِي المَواضِـــي وأَجِرْنِـــي مِـــن اللَّيـــالِي البَـــواقِي

كما في «الذَّخيرَةِ» (١/ ٣٢٠) -للشّنتريني-.

---

(١) رَواهُ مُسلمٌ (٢٥٩٤).

-٥-

وَدَّ الحِمَـــــىٰ فَأَخْلَـــــصَا إِذْ حَقُّـــهُ قَـــد حَصْحَـــصَا

□ **الشَّرحُ الإجماليّ:**

رَغِبَ هذا العَبْدُ -بَعْدَ هذا -كُلِّه- في مُجانَبَةِ الحَرامِ، وما يُخالِفُ الشَّرْعَ الحَكيمَ؛ فأَخْلَصَ لِلمَوْلَىٰ -سُبحانَهُ- بالتَّوبةِ والإنابَةِ، فقد ظَهَرَ لهُ الحَقُّ، وبانَ، وانْكَشَفَ لَهُ بمعانِي الإيمانِ.

□ **التَّفصيلُ اللُّغويّ:**

* (**وَدَّ**)، مِن (الوُدِّ)؛ وهو: المَحَبَّةُ.

كما في قولِ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم:٩٦]:

أي: «مَحَبَّةً» -كما في «تَفسيرِ السَّمعانِيّ» (٣/ ٣١٦)-.

* (**الحِمَىٰ**)؛ أي: المَحْمِيّ.

كما في قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبينَهُما أُمُورٌ مُشتبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِن النَّاسِ؛ فمَن اتَّقَىٰ الشُّبُهاتِ: فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِه، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ: وَقَعَ في الحَرَامِ؛ كالرَّاعِي يَرْعَىٰ حَوْلَ الحِمَىٰ، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه؛ أَلَا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىٰ، أَلَا وإنَّ حِمَىٰ اللهِ مَحارِمُهُ...**».

رواهُ البُخارِيُّ (٥٢)، ومُسلمٌ (١٥٩٩) عن النُّعمانِ بنِ بَشِير رضي الله عنهما.

قالَ ابنُ قُرْقُول في «مطالِع الأنوار» (٢/ ٣٠٧):

«الحِمَىٰ: المَكانُ المَمْنُوعُ مِن الرَّعْيِ».

والمُحَرَّمات؛ هي: مِن «حِمَىٰ اللهِ -تعالىٰ-» -كما في «شَرح النَّوَوِيِّ علىٰ (صحيحِ مُسلِمٍ)» (١١/ ٢٨).

* (**حَصْحَصَا**)؛ «أي: بانَ ووَضَحَ» -كما في «الوَجِيز» (١/ ٥٤٩)-لِلواحِدِيِّ-.

وقالَ الرَّاغِبُ الأصْبَهانِيُّ في «المُفرَدَات» (ص٢٣٧) -مُفسِّرًا الآيةَ الكَريمةَ: ﴿**ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ**﴾[يوسف:٥١]:

«أي: وَضَحَ؛ وذلِكَ بانْكِشَافِ ما يَغْمُرُهُ».

-٦-

فَـــــــوُدُّهُ أَنْ يَخْلُـــــــصَا مِـــن الحَــضِيضِ الأَوْضَــعِ

❑ الشَّرحُ الإجماليّ:

فهُو -والحالَةُ هكذا- يُحِبُّ أنْ يَنْتَهِيَ مِن كُلِّ ما يُسَبِّبُ لهُ الإِثْـمَ، ويُوقِعُهُ فيما يُخالِفُ أَمْرَ اللهِ -تعالىٰ- مِن دَنِيءِ الذُّنُوبِ، وسَيِّءِ المَعاصِي -المُسْقِطَةِ لَهُ-.

❑ التَّفصيلُ اللُّغويّ:

* (**فَوُدُّهُ**): ما يُحِبُّهُ ويَرْغَبُهُ.

* (**يَخْلُصَا**): يَنْتَهِي.

* (**الحَضيض**)، هو: أَسْفَلُ الأَشياءِ وأَرْذَلُها.

ومنهُ: قولُ الشَّاعِرِ:

الـــشِّعْرُ صَـــعْبٌ وطَوِيـــلٌ سُــلَّمُهْ إذَا ارْتَقَـــىٰ فِيـــهِ الّـــذِي لا يَعْلَمُـــهْ

زَلَّــتْ بِــهِ إلــىٰ الحَــضِيضِ قَدَمُــهْ والـــشِّعْرُ لا يُطِيعُـــهُ مَـــن يَظْلِمُـــهْ

كما في «اللُّمَع» (ص١٩٥) -لابنِ جِنِّي-.

* (**الأَوْضَع**): الأحْقَر.

والمَقصُودُ: الذُّنُوبُ، وآثارُها علىٰ الإنسانِ، وقَلْبِهِ، وعَمَلِهِ.

-٧-

إلـــــىٰ المَقـــــامِ الأَوَّلِ ومَعْهَـــدِ الأُنْـــسِ الحَلِـــي

□ الشَّرْحُ الإجمالِيّ:

لِيَنْتَقِلَ مِن حَضِيضِ المَعاصِي والآثامِ إلىٰ أَرْفَعِ المَقَاماتِ العالِيَاتِ، وأَوَّلِها، وأَوْلَاها.

وهو الشَّأنُ الجَلِيلُ الجَمِيلُ، الّذِي يَجِبُ أنْ يَعْهَدَهُ أَهلُ التُّقَىٰ؛ بِأُنْسِ نُفُوسِهِم، وسَلامَةِ أَرواحِهِم.

□ التَّفسيرُ اللُّغوِيّ:

* **(المَقام)**؛ هو: المنزِلَةُ الرَّفِيعةُ العَلِيَّةُ.

* **(مَعْهَدِ الأُنْس)**: -في الأَصْلِ-: ما يَجِبُ أنْ يَعْهَدَهُ سَوِيُّ النَّفْسِ مِن أَفعالٍ صالِحَةٍ، وأَعمالٍ نافِعَةٍ.

ومنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

أَزُورُ بِقَلْبِـي مَعْهَـدَ الأُنْـسِ والهَـوَىٰ وأَنْهَـبُ مِـن أَيْـدِي النَّـسِيمِ رَسـائِلا

كما في «الإحاطَة في أَخبارِ غِرناطَة» (٢/ ٢٠٢) -لِلسانِ الدِّين ابن الخَطيب-.

* **(الحَلِي)**: المُعْجِبِ.

كما في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

نُجِـدُّ لَـكَ القَـوْلَ الحَلِـيَّ، ونَمْتَطِـي إِلَيْـكَ بَنَـاتِ الـصَّيْعَرِيِّ وشَـدْقَمِ[1]

«لِسان العَرَب» (١٤/ ١٩٢) -لابنِ مَنْظُور-.

□ فائدةٌ: في (العُبُودِيَّة):

قالَ اللهُ -تَعالىٰ-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]:

قال الإمَامُ مَكِّيّ بنُ أبِي طالِبٍ في «الهِداية إلىٰ بُلُوغ النِّهاية» (٣/ ٢٢٦٤):

«أَيْ: أَوَّل مَن خَضَعَ، وذَلَّ لِرَبِّهِ».

ويَقُولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٧٦):

«كَمالُ المَخلُوقِ في تَحقيقِ عُبودِيَّتِهِ للهِ -تعالىٰ-، وكُلَّما ازْدَادَ العَبدُ تَحقيقًا للعُبودِيَّةِ؛ ازْدادَ كَمالُهُ، وعَلَتْ دَرَجَتُهُ».

وقال في (١/ ٣٩) -مِنهُ-:

«والعَبدُ كُلَّما كانَ أَذَلَّ للهِ، وَاعظَمَ افْتِقارًا إلَيهِ، وخُضُوعًا لَهُ؛ كانَ أَقرَبَ إليهِ، وأَعَزَّ لَهُ، وأَعظمَ لِقَدْرِهِ.

فأَسْعَدُ الخَلْقِ: أَعظَمُهُم عُبُودِيَّةً للهِ.

---

(١) الصَّيْعَرِي: العَظِيم.
و(**الشَّدْقَم**): واسِع الشِّدْق.

وأمَّا المَخلُوقُ؛ فكَمَا قِيلَ: (احْتَجْ إلَىٰ مَن شِئتَ: تَكُن أَسِيرَه، واسْتَغْنِ عمَّن شِئتَ: تَكُن نَظِيرَه، وأَحسِن إلىٰ مَن شِئتَ: تَكُن أَمِيرَه)[1].

فأَعظَمُ ما يَكُونُ العَبدُ قَدْرًا وحُرْمَةً -عندَ الخَلْقِ-: إذَا لَم يَحْتَجْ إلَيْهِم بِوَجْهٍ مِن الوُجُوه، فإنْ أَحسَنْتَ إليهِم -مع الاسْتِغناءِ عنهُم-؛ كُنتَ أعظمَ ما يَكُونُ عندَهُم، ومَتَىٰ احْتَجْتَ إلَيْهِم -ولو في شَرْبَةِ ماءٍ-؛ نَقَصَ قَدْرُكَ عِندَهُم بِقَدْرِ حاجَتِكَ إلَيْهِم، وهذا مِن حِكمَةِ اللهِ ورَحمتِهِ؛ لِيَكُونَ الدِّينُ -كُلُّهُ- للهِ، ولا يُشْرَكَ بِهِ شيءٌ».

(١) انظُر «تَحرير التّحبير» (ص١٧٤) -لابنِ أَبِي الإصبُع-.

-٨-

والمَرْبَــعِ الــسَّامِي العَلِــي ... ســـقْيًا لَـــهُ مِـــن مَرْبَـــعِ

◻ المَعْنَىٰ الإجمالِيّ:

ولِيَكُونَ هذا الإنسانُ -بَعْدَ تَوْبَتِهِ- مُسْتَقِرًّا في المَكانِ الّذي يَرْبَعُ فيه الصَّالِحُون، ويَأْنَسُونَ، ويَبْتَهِجُون؛ لِسُمُوِّهِ، وعالِي دَرَجَتِه، ورَفِيعِ مَنزِلَتِه.

وهذا هو أَجَلُّ مَكانٍ وأعظمُهُ -مِمَّا فيه أُنْسُ الخَيِّرين مِن المُؤمِنِين-، وفيه يَرْبَعُون.

◻ التَّفصيلُ اللُّغويّ:

* (**المَرْبَع**)؛ هو: المَكانُ الّذي يَرْبَعُونَ فيه، ويتَنَزَّهُون.

وفي هذا المعنَىٰ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَمْـسَيْتُ في رَبْـعٍ خَـصِيبٍ عِنْـدَهُ ... مُتَنَزِّهًـا فيـهِ وفي بُـستانِه
ونَظَـرْتُ بِرْكَتَـهُ تَفِـيضُ وماؤُهـا ... يَحْكِـي مَواهِبَـهُ وَجُـودَ بَنانِـه
في مَرْبَـعٍ جَمَـعَ الرَّبِيـعَ بِرَبْعِـهِ ... مِـن كُـلِّ فَـنٍّ لاحَ في أَفْنانِـه

كَمَا في «مَجانِي الأدَب» (٥/ ١٥٠).

* (**السَّامِي**): مِن (السُّمُوّ)، وهو: العالِي الرَّفِيع.

* (**سَقْيًا لَهُ**): كَلِمَةٌ تَقُولُها العَرَبُ مِن بابِ الدُّعاءِ بالأَمْرِ الحَسَن، وعَكْسُها: (**بُعدًا لَهُ**).

كما في «المُحكَم» (٦/ ٤٨٨) -لابنِ سِيدَه-، و«شَمْس العُلُوم» (٦/ ٣٦٩٣) -لِلحِمْيَرِيِّ-.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِر:

سَـــقْيًا وَرَعْيًـــا وإِيمانًـــا ومَغفِـــرَةً لِلباكِيـــاتِ عَلَيْنَـــا يَـــومَ نَرْتَحِـــلُ

كما فِي «المَحاسِن والمَساوِئ» (ص٢٠٧) -لإبراهِيم البَيهقِيّ- المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٣٢٠هـ)-.

○ **(فائدة)**: **فِي حُكْمِ النُّزهةِ، والخُروجِ إلىٰ البَساتِينِ -ونَحْوِها-:**

قال العلَّامَةُ ابنُ جَماعة في «تَذكِرَةِ السَّامِعِ والمُتكلِّم في آدابِ العالِم والمُتعلِّم» (ص١٧٩-١٨٠- مُختَصَرِي لَهُ «المُعْلِم»):

«ولَا بَأْسَ أنْ يُرِيحَ نَفْسَهُ وقَلْبَهُ وذِهْنَهُ وبَصَرَهُ -إذَا كَلَّ[1] شَيءٌ مِن ذَلِكَ -أو ضَعُفَ-: بِتَنَزُّهٍ[2]، وتَفَرُّجٍ في المُسْتَنْزَهَات؛ بِحيثُ يَعُودُ إلىٰ حالِهِ، ولا يَضِيعُ عليهِ زَمانُهُ.

وبالجُمْلَةِ؛ فلا بَأسَ أنْ يُرِيحَ نَفْسَهُ -إذَا خافَ مَلَلًا-.

وكان بَعضُ أكابِرِ العُلماءِ يَجمَعُ أَصحابَه في بَعضِ أماكِنِ التَّنَزُّهِ -في بَعضِ أيَّامِ السَّنَةِ-، ويَتَمازَحُونَ بمَا لا ضَرَرَ عليهِم في دِينٍ، ولا عِرْضٍ.

---

(١) تَعِبَ.

(٢) انظُر -لِلفائدَةِ اللُّغَوِيَّة- «تَاج العَرُوس» (٣٦/ ٥٢٤) -لِلزَّبِيدِي-.

ولا بَأسَ بمُعاناةِ المَشْيِ، ورِياضَةِ البَدَنِ بِهِ؛ فقد قِيلَ: إنَّهُ يُنعِشُ الحَرَارَةَ، ويُذِيبُ فُضُولَ الأَخْلاطِ[1]، ويُنَشِّطُ البَدَنَ».

وَرَوَىٰ مُسلمٌ (١١٧٦) عن أَبِي سَلَمَةَ، قال: تَذاكَرْنَا لَيْلَةَ القَدْرِ، فأَتَيْتُ أبا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان لِي صَدِيقًا-، فقُلْتُ: أَلَا تَخرُجُ بِنَا إلىٰ النَّخْلِ [نَتَحدَّثُ]؟ فخَرَجَ وعليهِ خَمِيصَةٌ، فقُلتُ لَهُ: سَمِعتَ رَسُولَ الله ﷺ يَذكُرُ لَيلَةَ القَدْرِ؟ فقَالَ: نَعَم... -إلىٰ آخِرِ الحَدِيثِ-.

وما بَيْنَ المَعقُوفَيْنِ مِن رِوايةِ البُخارِيِّ (٨١٣).

(١) قال الخُوارِزمِيُّ في «مفاتِيح العُلُوم» (ص٢٠٤): «هي الدَّمُ، والبَلْغَمُ، والمِرَّةُ الصَّفْراءُ، والمِرَّةُ السَّوداءُ -وهِي: الأَمْشاجُ-».

-٩-

رَحَلْـــتُ عـــن ذاكَ الفَـــضَا لا بِاخْتِيَـــارِي والرِّضَـــا

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

يَقُولُ: وقد أَكْرَمَنِي اللهُ -تعالىٰ- لِأَتْرُكَ ذلِكَ الحالَ المَشِينَ، والوَضْعَ السيِّئَ، والمَجالَ القَبِيحَ؛ فضْلًا منهُ -سُبحانَهُ-، ومِنَّةً، وتَوفِيقًا.

... لا مِن اخْتِيارِي المَحْضِ، ولا رِضايَ الذَّاتِي: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران:٧٣].

فالأَمْرُ -في حقيقتِهِ- كما قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وكما قال -سُبحانَهُ-: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[الحُجُرات:١٧].

وكما قالَ -تعالىٰ-: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠].

فَـ «اللهُ يَمُنُّ علَيْنَا بكُلِّ نِعمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا علينا؛ حتَّىٰ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ»[١].

○ (فائِدَةٌ): في قِصَّةِ إِسلامِ سَلمانَ الفارِسِيِّ رضي الله عنه:

أَوْرَدَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ قِصَّةَ إسلامِ الصَّحابِيِّ الجَلِيلِ سَلْمَانَ رضي الله عنه في كتابِهِ «الفَوائد»[٢] (ص٣٦٣-٣٦٤- «فوائده» -بِقَلَمِي-)-بأُسلُوبٍ راقٍ، جَمِيلٍ، مُؤثِّرٍ-؛

(١) «الرَّدّ علىٰ مَن قَالَ بِفَناءِ الجَنَّة والنَّار» (ص٨٥) -لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ -رحمه الله-.

(٢) وقَارِنْ بِـ«المُدهِش» (ص٢١٤)، و«اللَّطائف» (ص٣-٤) -كلاهُما لابنِ الجَوزِيِّ-.

أسُوقُها -هُنا- بتَمامِها-؛ لِعُمُومِ الفائدَةِ، ولِخُصُوصِ صِلَتِها بِمِنَّةِ الرَّبِّ -سُبحانَهُ- علىٰ عِبادِهِ.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-:

«نَجائِبُ[1] النَّجاةِ مُهَيَّأَةٌ للمُرادِ، وأَقدامُ المَطرُودِ مَوثُوقَةٌ بالقُيُودِ.

هَبَّتْ عَواصِفُ الأَقدارِ في بَيْدَاء الأَكوان، فتَقَلَّبَ الوُجُودُ، ونَجَمَ الخَيْرُ.

فلمَّا رَكَدَتِ الرِّيحُ: إذا **أَبُو طالِبٍ** [عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ] غَريقٌ في لُجَّةِ الهَلاك، **وسَلْمانُ** علىٰ ساحِلِ السَّلامَةِ، **والوَليدُ بنُ المُغِيرَةِ** يَقْدُمُ قَوْمَهُ في التِّيهِ، **وصُهَيبٌ**[2] قد قَدِمَ بقافِلَةِ الرُّوم، **والنَّجاشيُّ** في أرضِ الحَبَشَةِ يقُولُ: لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيك! **وبِلالٌ** يُنادِي: الصَّلاةُ خَيْرٌ مِن النَّوم، **وأبو جَهلٍ** في رَقْدَةِ المُخالَفَةِ...

لمَّا قُضِيَ في القِدَمِ بسابِقَةِ سَلمان: عَرَجَ به دليلُ التَّوفيقِ عن طريقِ آبائِهِ في التَّمَجُّسِ[3]، فأَقْبَلَ يُناظِرُ أباهُ في دِينِ الشِّرْكِ، فلمَّا عَلَاهُ بالحُجَّةِ لَم يَكُن لهُ جَوابٌ إلَّا القَيْد!

وهذا جَوابٌ يَتَداوَلُهُ أَهلُ الباطِلِ مِن يَومِ حَرَّفُوهُ[4]!

وبه أجابَ فِرعَونُ مُوسىٰ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى ...﴾[الشعراء:٢٩]!

---

(١) هِي خِيارُ الإبِلِ، وأحسَنُها.

(٢) قال الذهبيُّ في «سِيَرِ أعلامِ النُّبَلاء» (٢/ ١٨): «ويُعْرَفُ بِـ(الرُّوميّ)؛ لأَنَّهُ أقامَ في (الرُّوم) مُدَّةً..».

(٣) **التمجُّس**؛ هو: التَّدَيُّنُ بالمَجُوسيَّةِ.

(٤) نَعَم -واللهِ-...

وبه أجابَ الجَهمِيَّةُ الإمامَ أحمدَ لَمَّا عَرَضُوهُ علىٰ السِّياطِ!

وبه أجابَ أَهلُ البِدَعِ شيخَ الإسلامِ[١] حِينَ اسْتَودَعُوهُ السِّجنَ...

وها نَحنُ علىٰ الأَثَرِ.

فنَزَلَ به ضَيفُ: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**﴾[محمد:٣١]؛ فَنَالَ -بإكرامِهِ- مَرْتَبَةَ «**سَلمانُ مِنَّا أَهلَ البَيْتِ**»[٢]:

فسَمِعَ أنَّ رَكْبًا علىٰ نِيَّةِ السَّفَرِ، فسَرَقَ نَفْسَهُ مِن أبيهِ -ولا قَطْعَ[٣]-.

فرَكِبَ راحِلَةَ العَزْمِ -يَرْجُو إدراكَ مَطلَبِ السَّعادَةِ-، فغاصَ في بَحْرِ البَحثِ؛ لِيَقَعَ بِدُرَّةِ الوُجُود، فوَقَفَ نَفْسَهُ علىٰ خِدمَةِ الأَدِلَّاءِ[٤] وُقوفَ الأَذِلَّاء.

فلمَّا أَحَسَّ الرُّهبانُ بانْقِراضِ دَولَتِهِم: سَلَّمُوا إليهِ أَعلامَ الإعلامِ[٥] علىٰ نُبُوَّةِ نَبيِّنا، وقالُوا: إنَّ زَمانَهُ قَد أظَلَّ، فاحْذَرْ أنْ تَضِلَّ.

---

(١) هو الإمامُ ابنُ تيميَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ-.

(٢) وَرَدَ هذا -مَوقوفًا- علَىٰ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: رواهُ الفَسَوِيُّ في «المَعرِفَة والتَّاريخ» (٢/ ٥٤٠)، والطَّبَرانِيُّ في «المُعجَم الكَبير» (٦٠٤١).

وما رُوِيَ مِن ذلِكَ -مَرفوعًا-؛ فلا يَصِحُّ:

رواهُ الحاكِمُ (٣/ ٥٩٨)، والطَّبرانِيُّ في «المُعجَمِ الكبير» (٦٠٤٠) عن عَمْرِو بنِ عَوْفٍ.

وقد ضَعَّفَهُ الذهبيُّ في «تلخيص المُستدرَك» (٧٩٦-«مختصَر ابنِ المُلقِّن»)، والهيثمِيُّ في «المجمع» (٦/ ١٣٠).

(٣) فهِي سَرِقَةُ خَيْرٍ، خارِجَةٌ -أَصلًا- عن مَعنَىٰ سَرِقَةِ المالِ -أوْ نَحوِهِ- المُوجِبَةِ لِقَطْعِ اليَدِ.

(٤) مَن يَدُلُّونَ علىٰ الخَيْرِ.

(٥) أَهَمّ الدَّلائِل.

فرَحَلَ مع رُفْقَةٍ لَم يَرْفُقُوا به، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، فابْتاعَهُ يَهُودِيٌّ بالمَدِينةِ، فلمَّا رَأَىٰ الحَرَّةَ[١]؛ تَوَقَّدَ حَرُّ شَوْقِهِ، ولَم يَعْلَمْ رَبُّ المَنزِلِ[٢] بوَجْدِ النَّازِلِ[٣].

فبَيْنَا هو يُكابِدُ ساعاتِ الانتِظارِ قَدِمَ البَشِيرُ[٤] بِقُدُومِ البَشِير، وسَلمانُ في رَأسِ النَّخْلَةِ.

وكادَ القَلَقُ يُلقِيهِ لَوْلَا أنَّ الحَزْمَ أَمْسَكَه، كما جَرَىٰ يَومَ ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠]، فعجَّلَ النُّزُولَ لِتَلَقِّي رَكْبِ البِشارَةِ، ولِسانُ حالِهِ يَقُولُ:

خَلِيلَيَّ مِن نَجْدٍ قِفَا بِي علَىٰ الرُّبَىٰ ... فقد هَبَّ مِن تِلكَ الدِيارِ نَسِيمُ

فصاحَ بِهِ سيِّدُهُ: ما لَك؟! انْصَرِفْ إلىٰ شُغْلِكَ!

فقال:

كَيْفَ انْصِرافِي وَلِي في دارِكُمْ شُغُلُ؟!

ثُمَّ أخذَ لِسانُ حالِهِ يَتَرَنَّمُ -لَو سَمِعَ الأُطْرُوش[٥]-:

---

(١) هي -في الأصل-: الحِجارةُ السُّود.

وهي -اليوم-: مَكانٌ مَشهُورٌ في أَطرافِ المَدينةِ النبويَّةِ.

(٢) وهُو النبيُّ ﷺ.

(٣) أي: بِشَوْقِ سَلمانَ رضي الله عنه.

(٤) أيْ: قِدَمِ البَشِيرُ الّذي بَشَّرَ الصَّحابةَ بقُدُومِ (البَشِيرِ) ﷺ.

(٥) هو فاقِدُ السَّمْعِ.

خَلِيلَـــيَّ لا وَاللهِ مـــا أَنَـــا مِنكُمـــا إذا عَلَـــمٌ مِـــن آلِ لَيْلَـــىٰ بَـــدَا لِيَـــا

فلمَّا لَقِيَ الرَّسُولَ عارَضَ نُسخةَ الرُّهبانِ بكتابِ الأَصْلِ[1]؛ فوافَقَهُ.

... يا مُحمَّدُ؛ أنتَ تُريدُ أبا طالِبٍ، ونحنُ نُريدُ سَلْمانَ[2]:

أَبُو طالِبٍ إذا سُئِلَ عن اسمِهِ؟ قال: عبدُ مَناف!

وإذا انْتَسَبَ: افْتَخَرَ بالآباءِ!

وإذا ذُكِرَت الأموالُ: عَدَّ الإبِلَ!

وسَلمانُ إذا سُئِلَ عن اسمِهِ؟ قال: عبدُ الله.

وعن نَسَبِهِ؟ قال: ابنُ الإسلامِ.

وعن مالِهِ؟ قال: الفَقْرُ.

وعن حانُوتِهِ؟ قال: المَسجِد.

وعن كَسْبِهِ؟ قال: الصَّبْرُ.

وعن لِباسِهِ؟ قالَ: التَّقوَىٰ والتَّواضُع.

وعن وِسادِهِ؟ قال: السَّهَر.

---

(١) **نُسخَةُ الرُّهبان**؛ هي: ذِكرُهُم أَوصافَ النبيِّ ﷺ في كُتُبِهِم، **ونُسخةُ الأَصل**: يُريد بها الأوصافَ الّتي رآها رضي الله عنه في النبيِّ ﷺ -مُطابِقَةً لما قالَهُ الرُّهبانُ-.

(٢) فالنبيُّ ﷺ حَرَصَ كَثيرًا علىٰ إسلامِ أبي طالبٍ، ولَم يُسْلِم، وأمَّا سَلْمانُ؛ فجاءَتْهُ هِدايَةُ الرَّحمنِ، تَسُوقُهُ مِن بِلادِ فارِسَ مُسلِمًا -بِغَيْرِ دَعوَةٍ ولا جُهْدٍ-..

وعن فَخْرِهِ؟ قال: «**سَلْمانُ مِنَّا**»[١].

وعن قَصْدِه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف:٢٨].

وعن سَيْرِهِ؟ قال: إلىٰ الجنَّةِ.

وعن دَليلِهِ في الطَّريقِ؟ قال: إمامُ الخَلْقِ، وهادِي الأُمَّةِ.

إذَا نَحْـــنُ أَدْلَجْنَـــا وأَنْـــتَ إمامُنـــا كَفَـىٰ بالمَطايَـا طِيـبُ ذِكْـرَاكَ حادِيَـا

وإنْ نَحـنُ أَضْـلَلْنَا الطَّريـقَ ولَـم نَجِـدْ دَلـيلًا كَفَانَـا نُـورُ وَجْهِـكَ هادِيَـا[٢]

○ (**فائدةٌ**) **: فِي عقيدةِ القَضاءِ والقَدَرِ:**

قال الإمامُ ابنُ قُدامَةَ في «لُمعَةِ الاعتِقاد» (ص٨١) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«ومِن صِفاتِ اللهِ -تعالىٰ- أنَّهُ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لا يَكُونُ شيءٌ إلَّا بإرادتِهِ، ولا يَخرُجُ شيءٌ عن مشيئتِهِ.

---

(١) تَقَدَّمَ تَخريجُهُ.

(٢) قِصَّةُ سَلمانَ وإسلامِهِ: مَروِيَّةٌ في «مُسندِ أحمد» (٥/ ٤٤١-٤٤٤)، و«طبقات ابن سعد» (٤/ ٥٣)، و«أُسْد الغابة» (٢/ ٤١٧-٤١٩) -لابنِ الأثير-، و«سِيرة ابنِ هِشام» (١/ ٢١٤-٢٢١)، و«تاريخ بغداد» (١/ ١٦٤-١٦٩)، و«سِيَر أعلام النُّبَلاء» (١/ ٥٧) -وغيرها-.
وانظُر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٨٩٤)، و«صحيح السيرة النبوية» (ص٧٠) -كِلاهُما لشيخِنا الإمام الألباني-رَحِمَهُ اللهُ-.
ولِلإمامِ السَّخاوِيِّ رِسالَةٌ -مَطبُوعَةٌ- مُفرَدَةٌ فيها.
وانظُر مجلَّة (**الأَصالَة**) (رقم: ١٣ و١٤ - العدد المُزدَوج) (ص٨٧-٩٤)؛ فَفِيها مَقالٌ حولَ (قِصَّةِ سلمان).

ويَجِبُ الإيمانُ بالقَدَرِ -خَيْرِهِ وشَرِّهِ، وحُلْوِه ومُرِّهِ، وقَلِيلِهِ وكَثِيرِهِ-: أنَّهُ مِن اللهِ -سُبحانَهُ-.

وليسَ في العالَمِ شيءٌ يَخرُجُ عن تَقديرِه، ولا يَصدُرُ إلَّا عَن تَدبيرِه.

ولا مَحيدَ لِأَحَدٍ عن القَدَرِ المَقدُور، ولا يُتجاوَزُ ما خُطَّ لَهُ في اللَّوحِ المَسطُور.

أرادَ ما العالَمُ فاعْلُوه، ولو عَصَمَهُمْ لَمَا خالَفُوه.

ولو شاءَ أنْ يُطِيعُوهُ -جَمِيعًا-: لَأَطاعُوه.

خَلَقَ الخَلْقَ وأَفعالَهُم، وقَدَّرَ أَرزاقَهُم وآجالَهُم.

يَهدِي مَن يَشاءُ برَحمتِهِ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ بحِكْمَتِه؛ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣].

وقال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢].

وقال -تعالىٰ-: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

وقال -تعالىٰ-: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:١٢٥].

ورَوَىٰ ابنُ عُمَر: أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قال للنبيِّ ﷺ: ما الإيمانُ؟

قال: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ -خَيْرِه وشَرِّه-**».

فقال جِبريلُ: صَدَقْتَ.

رَواهُ مُسلِمٌ[١].

ومِن دُعاءِ النبيِّ ﷺ -الّذي عَلَّمَهُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ -يَدعُو بـه في قُنوتِ الـوِتْر-: «**وقِنِي شَرَّ ما قَضَيْتَ**»[٢].

ولا نَجعلُ قَضاءَ اللهِ وقَدَرَهُ حُجَّةً لَنَا في تَرْكِ أَوامِرِهِ، وارْتِكابِ نَواهِيهِ[٣].

بل يَجِبُ أنْ نُؤمِنَ ونَعْلَمَ: أنَّ للهِ علينَا الحُجَّةَ بإنزالِ الكُتُبِ، وبِعْثَةِ الرُّسُلِ؛ قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

ونَعْلَمُ أنَّ اللهَ -سُبحانَهُ- ما أَمَرَ ونَهَىٰ إلَا المُستطِيعَ للفِعْلِ والتَّرْكِ.

وأنَّهُ لَمْ يُجْبِرْ أَحَدًا علىٰ مَعصِيَةٍ، ولا اضْطَرَّهُ إلىٰ تَرْكِ طاعَةٍ؛ قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[غافر:١٧].

فـدَلَّ علـىٰ أنَّ لِلعَبـدِ فِعـلًا وكَـسْبًا يُجـزَىٰ علـىٰ حَسَنِهِ بـالثَّوَاب، وعلـىٰ سَـيِّئِهِ

---

(١) (بِرَقْم: ٨).

ورواهُ البُخارِيُّ (٥٠)، ومُسلمٌ (٩) عن أَبِي هُريرةَ.

(٢) رَواهُ أحمدُ (١٧٢٣)، وأبُو داود (١٤٢٥)، والتِّرمِذِيُّ (٤٦٤)، والنَّسائيُّ (٣/ ٢٤٨) -بِسَنَدٍ صَحَّحَهُ شيخُنا الألبانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «الإرواء» (٤٢٩)-.

(٣) وفي رِسالةِ «الاحْتِجاجِ بالقَدَر» -لِشَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّة -مَزِيدُ بَيانٍ.

بالعِقَاب، وهو واقِعٌ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ».

○ **(فائدةٌ أُخرَى) : هل الإنْسانُ مُسَيَّرٌ، أمْ مُخَيَّر؟**

قال أُستاذُنا العَلّامَةُ الشَّيخُ محمدُ بنُ صالح العُثَيمِين -رَحِمَهُ اللهُ- في «مَجمُوع فتاويه» (٣/ ٢١٤):

«شاعَت كَلِمَةٌ بَيْنَ النَّاس -في هذا الزَّمَنِ المُتأخِّرِ-، وهِي قَوْلَةُ: (هَل الإنسانُ مُسَيَّرٌ أمْ مُخَيَّرٌ؟):

الأَفعالُ الّتي يَفعلُها الإنسانُ يَكُونُ مُخَيَّرًا؛ فالإنسانُ مُخَيَّرٌ؛ فبإمكانِهِ أنْ يَأكُلَ، ويَشْرَبَ.

ولِهذا؛ بعضُ النَّاسِ إذَا سَمِعَ أذانَ الفَجْرِ قامَ إلىٰ الماءِ لِيَشْرَبَ، وذلِكَ باخْتِيارِه.

وكذلِكَ: إذا جاءَ الإنسانَ النَّومُ؛ فإنَّهُ يَذهبُ إلىٰ فِراشِهِ لِينامَ: باخْتِيارِهِ.

وإذَا سَمِعَ أذانَ المَغرِبِ، والتَّمرُ أمامَهُ والماءُ، فإنَّهُ يَأكُلُ: باخْتِيارِهِ...

وهكذا جَميعُ الأَفعالِ؛ تَجِدُ أنَّ الإنسانَ فِيها مُخَيَّرٌ.

ولَولَا ذلِكَ لَكانَت عُقوبَةُ العاصِي ظُلمًا؛ فكيف يُعاقَبُ الإنسانُ علىٰ شَيْءٍ لَيسَ فيهِ اختيارٌ لَهُ!؟

ولَولَا ذلِكَ لَكانَ ثَوابُ المُطِيعِ عَبَثًا؛ فكيفَ يُثابُ الإنسانُ علىٰ شيءٍ لا اخْتِيارَ لَهُ فِيه؟!!

وهَل هذا إلَّا مِن بابِ العَبَثِ؟!

إذَنْ؛ فالإنسانُ مُخَيَّرٌ:

ولكِنْ؛ ما يَقَعُ مِن فِعلٍ مِنهُ[١]؛ فهُو بتَقدِيرِ اللهِ؛ لأنَّ هُناكَ سُلْطَةً فَوقَ سُلطتِهِ، ولكنَّ اللهَ لا يُجبِرُهُ؛ فلَهُ الخَيارُ، ويَفعلُ باخْتِيارِهِ.

ولِهذَا؛ إذا وَقَعَ الفِعلُ -مِن غَيْرِ إرادَةٍ مِن الإنسانِ- لا يُنْسَبُ إلَيْهِ؛ قال-تعالىٰ- في أصحابِ الكَهفِ-: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[الكهف:١٨]، فنَسَبَ الفِعلَ (نُقَلِّبُهُم) إلَيه -سُبحانَه-؛ لأنَّ هؤلاءِ نُوَّمٌ، فلا اخْتِيارَ لَهُم.

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**مَن نَسِيَ -وهو صائِمٌ-، فَأَكَلَ، أَوْ شَرِبَ؛ فلْيُتِمَّ صَوْمَهُ؛ فإنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وسَقاهُ**»[٢]: فنَسَبَ الإطعامَ والسَّقْيَ إلىٰ اللهِ؛ لأنَّ النَّاسِيَ ما فَعَلَ الشَّيءَ باخْتِيارِه، فلَمْ يَخْتَرْ أنْ يُفسِدَ صَومَهُ بالأَكلِ والشُّرْبِ.

الحاصِلُ: أنَّ هذه العِبارةَ لَمْ أَرَهَا في كُتُبِ المُتقدِّمِينَ مِن السَّلَفِ- مِن الصَّحابَةِ، والتَّابعِين، وتابِعِيهِم-، ولا في كَلامِ الأئمَّةِ، ولا في كَلامِ شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ، أو ابنِ القَيِّمِ -أو غَيرِهم مِمَّن يَتكلَّمُون-، لكِنْ: حَدَثَت هذِه أَخِيرًا، وبَدَؤُوا يُطَنْطِنُون بِها: (هَل الإنسانُ مُسَيَّرٌ أمْ مُخَيَّرٌ؟)!

ونَحنُ نَعْلَمُ[٣] أنَّنا نَفعَلُ الأَشياءَ باخْتِيارِنا وإرادَتِنا، ولا نَشعُرُ -أَبدًا- أنَّ أَحدًا

---

(١) هُو فِيهِ مُخَيَّرٌ -أَصْلًا-.

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (٦٦٦٩)، ومُسلمٌ (١١٥٥) عن أَبِي هُريرةَ.

(٣) في قَرارَةِ أَنفُسِنا، ودَواخِلِ قُلوبِنا -عِلْمًا لا يُرَدُّ ولا يُصَدُّ-.

يُكْرِهُنا علَيها، ويَسُوقُنا إلَيها سَوْقًا! بَل نَحنُ الّذِين نُرِيدُ أنْ نَفعلَ، فنَفْعَلُ، ونُرِيدُ أنْ نَتْرُكَ، فنَتْرُكُ.

لكِنْ؛ إنَّ فِعْلَنَا ناشِئٌ عن إرادَةٍ جازِمَةٍ، وقُدْرَةٍ تامَّةٍ.

وهذانِ الوَصفَانِ في أَنفُسِنا، وأَنفُسُنا مَخلُوقَةٌ للهِ، وخالِقُ الأَصلِ خالِقٌ لِلفَرْعِ».

-١٠-

فيَــا زَمَانًــا قَــد مَــضَىٰ   إنْ عــادَ مَــاضٍ فــارْجعِ

◘ الشَّرحُ الإجماليّ:

يُخاطِبُ ذاكَ الزَّمانَ الأوَّلَ، الّذي كان فيهِ تائِهًا بَعيدًا، غيرَ مُوفَّقٍ ولا مُسدَّدٍ -قائلًا- بِنَدَمٍ-: إذا عادَ حالِي إلىٰ ماضي سابقِ العَهْدِ -بُعْدًا عن الطَّاعةِ، وتَلَبُّسًا بما يُخالِفُها-؛ فالرُّجُوعَ الرُّجُوعَ إلىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وطاعتِهِ، والاستِقامَةِ علىٰ أَمْرِهِ.

ذلِكُمْ أنَّ؛ «التَّوبة واجِبَةٌ علىٰ كُلِّ أَحَدٍ: مِن جَمِيعِ الذُّنُوبِ -صَغِيرِها، وكَبِيرِها-»(١).

○ (فائدةٌ): في فَضْلِ التَّوبةِ:

قال الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ -رَحِمَهُ اللهُ- في «الوابِلِ الصَّيِّبِ» (ص٦):

«إذا أرادَ اللهُ بعَبْدِهِ خَيْرًا: فَتَحَ له مِن أبوابِ (التَّوبةِ)، والنَّدَمِ، والانْكِسارِ، والذُّلِّ، والافْتِقارِ، والاستِعانَةِ بهِ، وصِدْقِ اللَّجَأِ إليهِ، ودَوامِ التَّضَرُّعِ، والدُّعاءِ، والتقرُّبِ إليهِ: بما أَمْكَنَ مِن الحَسَناتِ ما تَكُونُ تِلكَ السيِّئةُ به رَحْمَتَهُ، حتَّىٰ يَقُولَ [الشيطانُ] عدُوُّ الله: يا لَيْتَنِي تَرَكْتُهُ! ولَمْ أُوْقِعْهُ!

وهذا معنَىٰ قولِ بعضِ السَّلَفِ: إنَّ العَبدَ لَيَعْمَلُ الذَّنْبَ يَدخُلُ به الجنَّةَ، ويَعملَ الحَسَنَةَ يَدخُلُ بها النَّارَ.

---

(١) «غِذاء الألباب» (٢/ ٥٨٩) -للسَّفَّارِينِيِّ-.

قالُوا: كَيفَ؟! قالَ: يَعمَلُ الذَّنْبَ، فلا يَزالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ مِنهُ مُشفِقًا وَجِلًا، باكِيًا، نادِمًا، مُسْتَحِيًا مَن رَبِّهِ -تعالىٰ-، ناكِسَ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْهِ، مُنكَسِرَ القَلْبِ لَهُ، فيَكُونُ ذلك الذَّنْبُ أَنْفَعَ لهُ مِن طاعاتٍ كَثِيرَةٍ -بما تَرَتَّبَ عليهِ مِن هذه الأُمورِ الّتي بها سَعادَةُ العَبْدِ-...»[1].

قُلْتُ:

وهذا البَيتُ مِن الشِّعْرِ:

فيَا زَمانًا قَدْ مَضَىٰ إنْ عادَ ماضٍ فارْجِعِ

هو أَوَّلُ الأبياتِ الوَعظِيَّةِ الإيمانيَّةِ في هذه «القَصِيدَةِ» -العِلمِيَّةِ-.

وما سَيَتْلُوها -إلىٰ آخِرِها- علىٰ النَّمَطِ -ذاتِهِ-؛ إضافةً إلىٰ مسائلِ العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ الصَّافيةِ، والتَّوحيدِ النَّقِيِّ -الّتي سيُورِدُها في شِعْرِهِ-.

(١) وانظُر «مدارج السالكين» (١/ ٤١٥) -للإمامِ ابنِ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

-١١-

وارْكَـعْ إذَا اللَّيْـلُ دَجَـىٰ رُكُـوعَ خَـوْفٍ وَرَجَـا

❏ المعنَىٰ الإجمالِيّ:

فَمَن أَقْبَلَ علىٰ اللهِ -تعالىٰ- بالتَّوبَةِ والإنابَةِ-؛ فعلَيْهِ أنْ يَجْتَهِدَ في العِبادَةِ، وأَهَمُّها -بَعْدَ الإيمانِ والتَّوحيدِ-: الصَّلاةُ.

ومِن أَجَلِّ الصَّلواتِ عندَ اللهِ -تعالىٰ-: قِيامُ اللَّيْلِ؛ لِتكُونَ صَلاتُهُ مُفْعَمَةً بالخَوْفِ مِنهُ -سُبحانَهُ-، والرَّجاء بما عِندَهُ -عزَّ وجَلَّ-.

❏ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ:

* (دَجَىٰ): قال ابنُ سِيدَه في «المُخَصَّص» (٢/ ٣٨٣):

«قالَ ابنُ السِّكِّيت: دُجُوُّ اللَّيْلِ: ظُلْمَتُهُ في غَيْم، ولَيْلَةٌ داجِيَةٌ: سَوْدَاءُ.

والدُّجَىٰ: دُجَىٰ الغَيْم، وهُو: أنْ لا تَرَىٰ قَمَرًا، ولا نَجْمًا يُوارِيهِ السَّحابُ.

ولا يَكُونُ الدُّجَىٰ إلَّا باللَّيْلِ؛ يُقالُ: هذه ليلةٌ دُجًا؛ لأَنَّهُ مَصدَرٌ وُصِفَ بهِ.

وقد دَجَا اللَّيْلُ، وأَدْجَىٰ، وتَدَجَّىٰ..».

❍ (**فائدةٌ**): **في فَضْلِ الصَّلاةِ:**

قال الحافِظُ عبدُ الحَقِّ الإِشْبِيلِيُّ في «كتاب التَّهجُّد» (ص١١):

«الصَّلاةُ أَعظَمُ قَواعِدِ الإسلامِ، وأَرْفَعُ أعمالِ الإيمان، وأَقْرَبُ وَسِيلَةٍ إلىٰ الرَّحْمن.

وهي مَفْزَعُ التَّائِبين، ومَلْجَأُ الخائِفين، وبِضاعَةُ العامِلين، وقُرَّةُ أَعْيُنِ العابِدين.

تَجْلُو صَدَأَ قُلُوبِهِم بأَنوارِها، وتَهْتِكُ حُجُبَ نُفُوسِهِم بأَسْرَارِها، وتُرْشِدُهم بِمَنارِها إلىٰ فَخَارِ مَقاصِدِهِم وإعزازِها.

فهُم في رِياضِ أُنْسِها يَتَرَدَّدُون، وفي ظِلالِ أشجارِها يَتَقَلَّبُون، ومِن طِيبِ نَسِيمِها يَتَنَسَّمُون، وإلىٰ مَراقِيها يَتَسَنَّمُون، وفي جَمِيعِ ملاذِّها يَتَفَكَّهُون، ويأكُلُون، ويَشْرَبُون».

وقالَ الإمامُ مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ في كِتابِهِ «تَعظيم قَدْرِ الصَّلاةِ» (١/ ١٣٥):

«مَدَحَ اللهُ عِبادَهُ المُؤمنِينَ؛ فبَدَأَ بذِكْرِ الصَّلاةِ قَبْلَ كُلِّ عَمَلٍ؛ فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢]:

فَمَدَحَهُم في أوَّلِ نَعْتِهِم بالخُشُوع فيها، ثُمَّ أعادَ ذِكْرَها في آخِرِ القِصَّةِ -إعظامًا لِقَدْرِها في القُرْبَةِ إليهِ، ولِمَا أَعَدَّ للقائِمِينَ بِهَا-المُحافِظِينَ عليها- مِن جَزِيلِ الثَّوابِ، ونَعِيمِ المَآبِ-؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ . ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:٩-١١].

ولَمْ نَجِدِ اللهَ -عزَّ وجَلَّ- مَدَحَ أَحَدًا مِن المُؤمنِين -بِمُواظَبَتِهِ علىٰ شَيْءٍ مِن الأعمالِ- مَدْحَ مَن واظَبَ علىٰ الصَّلواتِ في أوقاتِها».

○ (فائدةٌ): في فَضْلِ قِيامِ اللَّيل:

قال الإمامُ ابنُ قُدامَةَ في «مُختصَرِ مِنهاجِ القاصِدِين» (ص٨٥) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[السجدة:١٦].

وقال النبيُّ ﷺ: «**عَلَيْكُم بِقِيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالحِين قَبْلَكُم، وهو قُرْبَةٌ إلىٰ رَبِّكُم، ومَغفِرَةٌ للسَّيِّئاتِ، ومَنْهَاةٌ عن الإثْمِ**»(١).

وفي فَضْلِهِ أَحادِيثُ كَثيرَةٌ.

وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: لَمْ أَجِدْ مِن العِبادَةِ شَيئًا أَشَدَّ مِن الصَّلاةِ في جَوْفِ اللَّيْلِ.

فقِيلَ لهُ: ما بالُ المُتهجِّدِينَ أَحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهًا؟!

فقالَ: لأَنَّهُم خَلَوْا بالرَّحْمَنِ، فأَلْبَسَهُم مِن نُورِهِ(٢).

- الأسبابُ المُيَسِّرَةُ لِقِيامِ اللَّيلِ:

اعْلَمْ أنَّ قيامَ اللَّيلِ صَعْبٌ؛ إلَّا علَىٰ مَن وُفِّقَ لِلقِيامِ بشُرُوطِهِ المُيَسِّرَةِ لهُ.

فمِن الأسْبابِ ظاهِرٌ، ومِنها باطِنٌ:

* **فأمَّا الظَّاهِرُ**: فأنْ لا يُكْثِرَ الأَكْلَ.

ومِنها: أن لا يُتْعِبَ نَفْسَهُ -بالنَّهارِ- بالأعمالِ الشَّاقَّةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ (١/ ٣٠٨)، والبَيْهَقِيُّ (٢/ ٥٠٢) عن أَبِي أُمامَةَ.
وفيه ضَعْفٌ.
وأخرجَهُ ابنُ عَدِيّ في «الكامِل» (٤/ ١٥٩٧) عن سَلْمانَ، وفيه ضَعْفٌ -أيضًا-.
وبهذه الطُّرُقِ حَسَّنَهُ شيخُنا العَلَّامَةُ الألبانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «إرواءِ الغَلِيل» (٤٥٢).

(٢) انظُر «الزُّهْد» (١٤٥٢) -للإمامِ أحمدَ-، و«المُجالَسَة» (١٣٣) -للدِّينَوَرِيِّ-.

ومِنها: أنْ لا يَتْرُكَ القَيْلُولَةَ[١] بالنَّهارِ؛ فإنَّها تُعِينُ علىٰ قِيامِ اللَّيْلِ.

ومِنها: أنْ يَجْتَنِبَ الأَوْزَارَ.

قال الثَّوْرِيُّ: حُرِمْتُ قِيامَ اللَّيْلِ خَمسَةَ أَشْهُرٍ بذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ[٢].

*** وأَمَّا المُيَسِّرَاتُ الباطِنَةُ:**

فمِنْها: سَلامَةُ القَلْبِ للمُسلِمِين، وخُلُوُّهُ مِن البِدَعِ، وإعراضُهُ عن فُضُولِ الدُّنيا.

ومِنْها: خَوْفٌ غالِبٌ يَلْزَمُ القَلْبَ -مع قِصَرِ الأَمَلِ-.

ومِنْها: أنْ يَعْرِفَ فَضْلَ قِيامِ اللَّيْلِ.

ومِن أَشْرَفِ البَواعِثِ علىٰ ذَلِك: الحُبُّ للهِ -تعالىٰ-، وقُوَّةُ الإيمانِ بأَنَّهُ إذا قامَ ناجَىٰ رَبَّهُ، وأَنَّهُ حاضِرُهُ ومُشاهِدُهُ؛ فتَحْمِلُهُ المُناجاةُ علىٰ طُولِ القِيامِ.

قال أَبُو سُلَيمان -رَحِمَهُ اللهُ-: أهلُ اللَّيلِ في لَيْلِهِم أَلَذُّ مِن أَهلِ اللَّهْوِ في لَهْوِهِم، ولَولا اللَّيلُ ما أَحبَبْتُ البَقَاءَ في الدُّنيا[٣].

وفي «صحيحِ مُسلِم»[٤]: عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ في اللَّيْلِ لَسَاعَةً لا يُوافِقُها عَبْدٌ مُسلِمٌ يَسأَلُ اللهَ فيها خَيْرًا إلَّا آتاهُ إيَّاهُ، وذلك كُلَّ لَيْلَةٍ**»).

---

(١) «هي الاسْتِراحَةُ نِصْفَ النَّهارِ -وإنْ لَم يَكُن معها نَوْمٌ-».
«شَرح (سُنَن أبِي داود)» (٤/ ٤٠٠) -لِلعَيْنِيِّ-.
(٢) «حِلْيَة الأَولِياء» (٧/ ١٧) -لأبِي نُعَيم-.
(٣) «المُجالَسَة» (١٥٥).
(٤) برَقْم (٢٧٤).

○ **(فائدةٌ): في (الخَوْفِ والرَّجاءِ):**

قال الإمامُ الطَّحاوِيُّ في «عقيدتِهِ» (رقم: ٦٠):

«والأَمْنُ والإياسُ يَنْقُلَانِ عن مِلَّةِ الإسلامِ، وسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُما لِأهلِ القِبْلَةِ».

وقال الإمامُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ في «شَرْحِهِ» (٢/ ٤٥٦):

«يَجِبُ أنْ يَكُونَ العَبْدُ خائِفًا راجِيًا؛ فإنَّ الخَوْفَ المَحمُودَ الصَّادِقَ: ما حالَ بَيْنَ صاحِبِهِ وبَيْنَ مَحارِمِ اللهِ، فإذا تَجاوَزَ ذلِكَ: خِيفَ مِنهُ اليَأسُ والقُنُوطُ.

والرَّجاءُ المَحمُودُ: رَجاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بطاعَةِ اللهِ علىٰ نُورٍ مِن اللهِ؛ فهو راجٍ لِثَوابِهِ، أو رَجُلٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا، ثُمَّ تابَ منهُ إلىٰ اللهِ؛ فهو راجٍ لِمَغْفِرَتِهِ:

قالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:٢١٨].

أمَّا إذا كان الرَّجُلُ مُتمادِيًا في التَّفرِيطِ والخَطايَا، يَرجُو رَحْمَةَ اللهِ بِلا عَمَلٍ؛ فهذا هُو الغُرُورُ، والتَّمَنِّي، والرَّجاءُ الكاذِبُ.

قال أَبو عَلِيٍّ الرُّوذْبارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: الخَوْفُ والرَّجاءُ كَجَناحَيِ الطَّائِرِ؛ إذا اسْتَوَيَا: اسْتَوَىٰ الطَّيْرُ، وتَمَّ طَيَرانُهُ، وإذا نَقَصَ أحدُهُما: وَقَعَ فيه النَّقْصُ، وإذا ذَهَبَا: صارَ الطَّائرُ في حَدِّ المَوتِ.

وقد مَدَحَ اللهُ أَهلَ الخَوفِ والرَّجاءِ بقولِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾-الآية- [الزُّمَر:٩].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ -الآيةَ- [السجدة:١٦].

فالرَّجاءُ يَسْتَلْزِمُ الخَوْفَ، ولَولَا ذلِكَ لكانَ أَمْنًا، والخَوفُ يَستَلْزِمُ الرَّجاءَ، ولولَا ذلِك لكان قُنُوطًا ويأسًا.

وكُلُّ أَحَدٍ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ منهُ، إلَّا اللهَ -تعالىٰ-؛ فإنَّك إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إليهِ، فالخائِفُ هارِبٌ مِن رَبِّهِ إلىٰ رَبِّهِ».

قُلتُ:

وقد قالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات:٥٠].

وقال رَسُولُهُ ﷺ: «**اللهُمَّ لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَا مِنكَ إلَّا إلَيْك**»[1].

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٢٤٧)، ومُسلمٌ (٢٧١٠) عن البَرَاءِ بنِ عازِب.

-١٢-

وَعَـــدِّ فِي سُـــفْنِ النَّجَـــا إلـــىٰ الفَـــضَاءِ الأَوْسَـــعِ

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

وارْكَبْ سُفُنَ النَّجاةِ مِن الهَلَاك، وأَسبابَ الخَلاصِ مِن البَلاء: بالثَّباتِ علىٰ الدِّينِ، والاستِقامَةِ علىٰ أَمْرِ رَبِّ العالمِين؛ لِتَنالَ رِضاهُ -تعالىٰ-، وتَنْجُوَ مِن سَخَطِهِ وعِقابِه؛ إلَىٰ فَضاءِ الطاعةِ الرَّحْبِ، ومَجالِها الفَسِيح الواسِعِ -جِدًّا- بِأَصْنافِ الطَّاعات، وأنواعِ العِبادات.

* **(وَعَدِّ)** مِن (التَّعْدِيَةِ)؛ وهي: العُبُورُ، والتَّجاوُزُ.

* **(سُفْنَ النَّجا)**؛ هي: الأعمالُ الصَّالِحَةُ؛ شَبَّهَها بالسَّفِينَةِ الّتي تُنْجِي راكِبَها مِن الغَرَقِ؛ عَلَىٰ مِثْلِ ما رَوَىٰ الهَرَوِيُّ في «ذَمِّ الكَلامِ» (٨٧٢) عن أحمدَ بنِ صالِحٍ، قال: قالَ ابنُ وَهْبٍ: كُنَّا عندَ مالِكِ بنِ أَنَسٍ، فذُكِرَتِ السُّنَّةُ، فقال مالِكٌ: «السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ، مَن رَكِبَها نَجا، ومَن تَخَلَّفَ عنهَا غَرِقَ».

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

إِنَّ لِلَّـــهِ عِبـــادًا فُطَنًـــا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وخَافُوا الفِتَنَا
فَكَّـــرُوا فِيهَـــا فَلَمَّـــا عَلِمُـــوا أَنَّهَـــا لَيْـــسَتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا
جَعَلُوهَـــا لُجَّـــةً وَاتَّخَـــذُوا صَـــالِحَ الأَعْمَـــالِ فِيهَـــا سُـــفُنَا

كَمَا في «الصِّلَةِ» (٢/ ٥٤٥) -لِابْنِ بَشْكُوال-.

* **(الفَضَاء الأَوْسَعِ)**؛ هي: راحَةُ النَّفْسِ، وشَرحُ الصَّدْرِ، وسَعَةُ القَلْبِ؛ الّتي

يَجِدُها المُؤمِنُ في طاعَةِ رَبِّهِ -حتَّىٰ لو ضاقَت عليهِ الدُّنيا بِمَا رَحُبَتْ-.

شَبَّهَ هذه الرَّاحَةَ بالفَضاءِ؛ لِسَعَتِهِ، وكِبَرِ قَدْرِه.

والرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ؛ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ -قَطُّ- وهُو في ضِيقٍ-: إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، ولا ذَكَرَهُ -وهُوَ في سَعَةٍ-: إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ**»(١).

○ (فائدةٌ): فَضْلُ انْشِراحِ الصَّدْرِ:

قال الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ في «الوابِلِ الصَّيِّب» (ص١٠٧):

«أهلُ السَّعادةِ والفَلاحِ: حَياتُهُم في (الدُّنيا) أَطْيَبُ الحَياةِ، ولَهُم في (البَرْزَخِ) -وفي (الآخِرَةِ)- أَفضَلُ الثَّوابِ؛ قال -تعالىٰ-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؛ فهذا في الدُّنيا.

ثُمَّ قالَ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]؛ فهذا في البَرْزَخِ والآخِرَةِ.

وقال -تعالَىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤١].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذا في الدُّنيا.

---

(١) رَواهُ ابنُ حِبَّان (٢٥٨٣)، والقُضاعِيُّ في «مُسنَدِ الشِّهابِ» (٦٦٨) عن أَبِي هُريرةَ -بسَنَدٍ حَسَنٍ-.

ثُمَّ قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود:٣].

وقال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزُّمَر:١٠].

فهذِهِ أَرْبَعَةُ مَواضِعَ؛ ذكَرَ اللهُ -تعالىٰ- فيها: أنَّهُ يَجْزِي المُحْسِنَ بإحسانِهِ جَزاءَيْن: جَزاءً في الدُّنيا، وجَزاءً في الآخِرَةِ.

فالإحسانُ لهُ جَزاءٌ مُعجَّلٌ -ولا بُدَّ-، والإساءَةُ لها جَزاءٌ مُعجَّلٌ -ولا بُدَّ-.

ولو لَم يَكُن إلّا:

- **ما يُجازَىٰ بهِ المُحْسِنُ**؛ مِن انْشِراحِ صَدْرِهِ، وانْفِساحِ قَلْبِهِ، وسُرُورِهِ، ولَذَّتِهِ بمُعامَلَةِ رَبِّهِ -عزَّ وجلَّ-، وطاعتِهِ، وذِكْرِهِ، ونَعِيمِ رُوحِهِ: بِمَحَبَّتِهِ وذِكْرِهِ، وفَرَحِهِ بِرَبِّهِ -سُبحانَهُ وتعالىٰ- أعظَمَ ممَّا يَفْرَحُ القَرِيبُ مِن السُّلطانِ -الكَريمِ عليهِ بسُلْطانِهِ-.

- **وما يُجازَىٰ بهِ المُسِيءُ**؛ مِن ضِيقِ الصَّدْرِ، وقَسْوَةِ القَلْبِ، وتَشَتُّتِهِ، وظُلْمَتِهِ، وحَزازاتِهِ، وغَمِّهِ، وهَمِّهِ، وحُزْنِهِ، وخَوْفِهِ!

وهذا أَمْرٌ لا يَكادُ مَن لَهُ أَدْنَىٰ حِسٍّ وحَياةٍ يَرْتابُ فيه.

بل الغُمُومُ، والهُمُومُ، والأحزانُ، والضِّيقُ: عُقوباتٌ عاجِلَةٌ، ونارٌ دُنيويَّةٌ، وجَهَنَّمُ حاضِرَةٌ.

والإقبالُ علىٰ اللهِ -تعالىٰ-، والإنابَةُ إليهِ، والرِّضَىٰ بهِ -وعنهُ-، وامْتِلاءُ القَلْبِ مِن مَحَبَّتِهِ، واللَّهَجُ بِذِكْرِهِ، والفَرَحُ والسُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ: ثَوابٌ عاجِلٌ، وجَنَّةٌ حاضِرَةٌ،

وعَيْشٌ لا نِسْبَةَ لِعيشِ المُلوكِ إليهِ -أَلْبَتَّةَ-.

وسَمِعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: «إنَّ في الدُّنيا جَنَّةً مَن لَم يَدْخُلْها لَا يَدْخُلُ جَنَّةَ الآخِرَةِ»(١).

وقال لِي -مَرَّةً-: «ما يَصْنَعُ أَعدائِي بِي! أنا جَنَّتِي وبُسْتانِي في صَدْرِي؛ أَيْنَ رُحْتُ فهِيَ مَعِي -لا تُفارِقُنِي-، أنا حَبْسِي خَلْوَةٌ، وقَتْلِي شَهادَةٌ، وإِخراجِي مِن بَلَدِي سِياحَةٌ».

وكان يَقُولُ -في مَحْبَسِهِ- بالقَلْعَةِ(٢)-: «لَو بَذَلْتُ لَهُم مِلْءَ هذه القَلْعَةِ ذَهَبًا ما عَدَلَ عِندِي شُكْرَ هذه النِّعمَةِ»، أَوْ قالَ: «ما جَزَيْتُهُم علىٰ ما تَسَبَّبُوا لي فيهِ مِن الخَيْرِ» -ونَحْو هذا-.

وكان يَقُولُ -في سُجُودِهِ- وهو مَحْبُوسٌ-: «**اللهُمَّ أَعِنِّي علىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِك**»(٣) -ما شاءَ اللهُ-.

وقال لِي -مَرَّةً-: «المَحبُوسُ مَن حُبِسَ قَلْبُهُ عن رَبِّهِ -تعالىٰ-، والمَأْسُورُ مَن أَسَرَهُ هَواهُ».

ولَمَّا أُدْخِلَ إلىٰ القَلْعَةِ، وصارَ داخِلَ سُورِها، نَظَرَ إلَيْهِ، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ

(١) انظُر «ذَيْل طَبَقات الحَنابِلَة» (٤/ ٥١٩) -لابنِ رَجَب-.

(٢) قَلْعَة دِمَشق -الشَّهيرةِ بِسِجْنِها -قدِيمًا وحَدِيثًا-!!!

(٣) وهُو دُعاءٌ نَبَوِيٌّ صَحيحٌ:
كما رَواهُ أَبُو داود (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ في «السُّنَنِ الكُبرىٰ» (١٢٢٧)، وأحمدُ (٢٢١١٩)، وابنُ خُزَيمَةَ (٧٥١) عن مُعاذٍ -بِسَندٍ صَحيح-.

﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد:١٣].

وعَلِمَ اللهُ؛ ما رأيتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنهُ -قَطُّ- مَعَ ما كانَ فيهِ مِن ضِيقِ العَيْشِ، وخِلافِ الرَّفاهِيَةِ والنَّعِيمِ -بل ضِدَّها-، ومَعَ ما كان فِيهِ مِن الحَبْسِ، والتَّهْدِيدِ، والإِرْجاف!

وهو -مع ذلِكَ- مِن أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وأَشْرَحِهِم صَدْرًا، وأَقواهُم قَلْبًا، وأَسَرِّهِم نَفْسًا؛ تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ علىٰ وَجْهِهِ.

وكُنَّا إذا اشْتَدَّ بِنَا الخَوْفُ، وساءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ، وضاقَتْ بِنَا الأَرْضُ: أَتَيْنَاهُ، فما هُوَ إلَّا أنْ نَراهُ، ونَسْمَعَ كَلامَهُ؛ فيَذْهَبَ ذلِكَ -كُلُّهُ-، ويَنْقَلِبَ انْشِرَاحًا، وقُوَّةً، ويَقِينًا، وطُمَأْنِينَةً.

فسُبْحَانَ مَن أَشْهَدَ عِبادَهَ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقائِه، وفَتَحَ لَهُم أَبوابَها في دارِ العَمَل، فأتاهُم مِن رَوْحِها، ونَسِيمِها، وطِيبِها ما اسْتَفْرَغَ قُواهُم لِطَلَبِهَا، والمُسابَقَةِ إليها».

-١٣-

عَلَيْــــكَ بالتَّهَجُّـــــدِ وقُــمْ طَــوِيلًا واسْـجُدِ

❑ الشَّرْحُ الإجمالِيّ:

فِيهِ الحَضُّ علىٰ (التَّهَجُّدِ)، والوَصِيَّةُ بهِ، والتَّرغِيبُ فيهِ، وأنْ يَكُونَ مَعَهُ طُولُ قِيامٍ، وطُولُ سُجُودٍ، لِمَا فيهِ مِن عَظِيمِ الأَثَرِ في قُرْبِ العَبْدِ مِن رَبِّهِ -سُبحانَهُ-.

❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (**التَّهَجُّد**): قال الإمامُ النَّوَوِيُّ في «تَحريرِ ألفاظِ (التَّنبيه)» (ص٦٧):

«هُو صَلاةُ التَّطَوُّعِ باللَّيْلِ، وأَصْلُهُ: الصَّلاةُ بَعْدَ النَّومِ».

وقال مُحَمَّد عَمِيم الإحسان في «التَّعريفاتِ الفِقهيَّةِ» (ص٦٥):

«**التَّهَجُّدُ**؛ هو -لُغَةً-: إزالةُ النَّومِ بتكلُّفٍ، وفي (الاصْطِلاحِ)؛ هو: التَّطوُّعُ بَعْدَ النَّومِ، ووَقْتُهُ: مِن المَغْرِبِ إلىٰ طُلُوعِ الفَجْرِ، وهو أَخَصُّ مِن صَلاةِ اللَّيْلِ».

وقَالَ القاضِي عِيَاض في «مشارِق الأَنوار» (٢/ ٢٦٤):

«**التّهَجُّد**؛ هو: قِيامُ اللَّيل.

وهو مِن الأضْدَاد، و: تَهَجَّدَ؛ إذا نامَ، وتَهَجَّدَ: إذا اسْتَيْقَظَ لِصَلاةٍ، أو لِسَبَبٍ؛ قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾[الإسراء:٧٩].

وانظُر ما تَقَدَّمَ -مِن بَيانٍ- تَحْتَ البَيْتِ (رَقْم: **١١**).

❍ (**فائدَةٌ**): **فَضْلُ (طُولِ القِيامِ، والسُّجُود)**:

رَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ في «المُصنَّف» (٨٣٥٦) عن الحَسَنِ البَصْرِيِّ، قال: «طُولُ

القِيامِ في الصَّلاةِ أَفْضَلُ مِن الرُّكُوعِ والسُّجُود».

يَعْنِي: مِن كَثْرَتِها بِغَيْرِ طُولٍ.

قال الإمامُ مُحمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ في «تَعظِيمِ قَدْرِ الصَّلاةِ» (١/ ٣٢١) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«اخْتَلَفَ النَّاسُ في طُولِ القِيامِ في الصَّلاةِ، وكَثْرَةِ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ؛ أَيُّهُما أَفْضَلُ؟

فعن إبراهيمَ، عن عَبدِ اللهِ، قال: أَفْضَلُ الصَّلاةِ: الرُّكُوعُ والسُّجُودُ.

وعن إسماعِيلَ بنِ عُبَيْدٍ الأَعْوَرِ، قال: قُلْتُ لابنِ عُمَرَ: أَطُولُ الرُّكُوعِ في الصَّلاةِ أَفْضَلُ في القِيامِ، أمْ طُولُ السُّجُودِ؟

قال: يا ابْنَ أَخِي! إنَّ خَطايَا الإنسانِ في رأسِهِ، وإنَّ السُّجُودَ يَحُطُّ الخَطَايا.

وعنِ الحَجَّاجِ بنِ حَسَّانَ، قال: سألتُ أَبَا مِجْلَزٍ: أَيُّهُما أَحَبُّ إلَيْكَ: طُولُ القِيامِ، أمِ الرُّكُوعُ والسُّجُود؟

قال: طُولُ القِيامِ.

وفي الأَخْبَارِ المَروِيَّةِ في صِفَةِ صَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ -بِاللَّيْلِ- دَليلٌ علىٰ اخْتِيارِهِ طُولَ القِيامِ، وتَطويلَ الرُّكُوعِ والسُّجُود[1].

وذلِكَ أنَّ أَكْثَرَ ما صَحَّ عن النبيِّ ﷺ -أنَّهُ صَلَّىٰ مِن اللَّيْلِ-: ثَلاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً بالوِتْرِ.

(١) قارِنْ بِـ«مُختصَر قِيام اللَّيل» (ص١٣٠) -لَهُ- رَحِمَهُ اللهُ-.

وقد صلَّىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، وتِسْعَ رَكعاتٍ، وسَبْعًا.

فطَوَّلَ فيها القِراءَةَ، والرُّكُوعَ، والسُّجُودَ -جَمِيعًا-.

فذَلِكَ دَلِيلٌ علىٰ تَفْضِيلِ التَّطوِيلِ علىٰ كَثْرَةِ الرُّكُوعِ، والسُّجُودِ.

وقد رُوِيَ عنهُ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: أيُّ الصَّلاةِ أَفْضَلُ؟ فقالَ: «**طُولُ القِيامِ**»(١).

قُلْتُ:

ونَقَلَ الإمامُ التِّرمِذِيُّ في «سُنَنِهِ» (١/ ٥٠٠) قَوْلَ إِسحاقَ بنِ رَاهوَيْه -مُرَجِّحًا-:

«أمَّا بالنَّهارِ: فكَثْرَةُ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، وأمَّا باللَّيْلِ: فطُولُ القِيامِ؛ إلَّا أنْ يَكُونَ رَجُلٌ لهُ جُزْءٌ باللَّيْلِ يأتِي عليهِ.

فكَثْرَةُ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ -في هذا- أَحَبُّ إِلَيَّ؛ لأَنَّهُ يأتِي علىٰ جُزْئِهِ، وقد رَبِحَ كَثْرَةَ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ».

ثُمَّ عَلَّقَ التِّرمِذِيُّ -مُعَلِّلًا-:

«وإنَّما قالَ إسحاقُ هذا؛ لأَنَّهُ كَذَا وُصِفَ(٢) صَلاة النَّبِيِّ ﷺ باللَّيْلِ، ووُصِفَ(٢) طُول القِيامِ.

وأمَّا بالنَّهارِ؛ فلَمْ يُوصَفْ مِن صَلاتِهِ مِن طُولِ القِيامِ ما وُصِفَ باللَّيْلِ».

---

(١) رَواهُ الدّارِمِيُّ (١٤٦٤)، وأبُو داود (١٣٢٥)، والبَيْهَقِيُّ (٤٦٩٠) عن عبدِ اللهِ بنِ حُبْشي.

قُلْتُ:

وهو في «صَحيحِ مُسلِمٍ» (٧٥٦) بِلَفْظ: «**طُولُ القُنُوتِ**» عن جابِرٍ رضي الله عنه.

وقال النَّوَوِيُّ في «شَرحِ مُسلِمٍ» (٦/ ٣٥): «المُرادُ بِـ(القُنُوت) -هُنا-: القِيامُ -باتِّفَاقِ العُلَماءِ -فيما عَلِمْتُ-».

(٢) أو: (وَصَفَ...)، أو: (وَصْفُ...) -واللهُ أعلمُ-.

-١٤-

وَبِـــتْ نَـــدِيمَ الفَرْقَـــدِ واشْـــرَبْ كُـــؤُوسَ الأَدْمُـــعِ

◘ الشَّرحُ الإجماليّ:

واسْهَرْ بِقِيامِكَ اللَّيْلَ، مُصاحِبًا النُّجُومَ -مُستَيقِظًا-، واجْعَلْ دُمُوعَكَ -الّتي تتضَرَّعُ بها إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- كأنَّها شَرابُكَ، وماؤُك، وسَبَبُ وُجُودِك.

◘ التَّفصيلُ اللُّغوِيُّ:

* (وَبِتْ): مِن (البَيْتُوتَة)[1]، وهي: «دُخُولُ اللَّيلِ، وليسَ مِن النَّومِ في شيءٍ» -كما قالَ أبو عَلِيٍّ القالِي في «البارِع» (ص٧٠٤)-:

وقال الحَرِيرِيُّ في «دُرَّة الغَوَّاص في أَوهامِ الخَوَاصّ» (ص٢٤٠):

«ومِن ذلِكَ [الأَوهام]: تَوَهُّمُهُم أنَّ معنَىٰ (باتَ فُلانٌ)؛ أي: نامَ!

وليسَ كذلِكَ؛ بل معنَىٰ (باتَ): أَظَلَّهُ المَبِيتُ، و: أجَنَّهُ اللَّيْلُ -سَواءٌ نامَ، أمْ لَم يَنَمْ-.

يَدُلُّ علىٰ ذَلِكَ: قَولُهُ -تَعالَىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤].

---

(١) طَريفة:

قالَ ابنُ حَجَر في «المُعجَم المُفَهْرَس» (١٠٣٧) -مِن ضِمْنِ ذِكْرِهِ مَروِيَّاتِه-: «(جُزءٌ البَيتُوتَة)، وهُو جُزْءٌ [حدِيثِيّ] لَطِيف، مِن عَوالِي أَبِي العَبَّاس السَّرَّاج؛ كان لا يُحدِّثُ بهِ إلَّا مَن باتَ عِندَهُ لَيلَةً»!

ويَشهَدُ بِهِ -أيضًا- قَولُ ابنِ رَمِيضٍ[١]:

بـــاتُوا نِيَامًـــا وابـــنُ هِنْـــدٍ لَـــمْ يَـــنَمْ

بـــاتَ يُقاسِـــيها غُـــلامٌ كـــالزَّلَمْ

خَـــدَلَّجَ الـــسَّاقِينِ مَمْـــسُوحَ القَـــدَمْ

فَأَخْبَرَ عنهُ أَنَّهُ باتَ مُتَصَدِّيًا لِحِفْظِها مِمَّن هَمَّ بِخَرَابَتِها -أي: سرقتها-...».

* (**نَدِيم**)؛ قال الجَوالِيقيُّ في «شَرْحِ أدَبِ الكاتِبِ» (ص٣٦):

«**النَّديمُ**: المُصاحِبُ والمُجالِسُ».

* (**الفَرْقَد**): أحدُ نَجْمَينِ في السَّماءِ «لا يَغْرُبان» -كما في «تهذيبِ اللُّغَةِ» (٩/ ٣٠٧) -للأَزْهَرِيِّ-.

ومِنهُ: ما قال الشَّاعِرُ:

وكُـــلُّ أَخٍ مُفارِقُـــهُ أَخُـــوهُ لَعَمْـــرُ أَبِيـــك إلَّا الفَرْقَـــدانِ[٢]

○ (**فائدةٌ**) : **فَضْلُ (البُكاءِ مِن خَشْيَةِ اللهِ)**:

قال النبيُّ ﷺ: «**لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَىٰ مِن خَشْيَةِ اللهِ؛ حتَّىٰ يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ**»[٣] -رواهُ التِّرمذِيُّ (١٦٣٣)، وأحمدُ (١٠٥٦٠)، والنَّسائيُّ (٣١٠٨) -عن أبي هُريرَةَ- بسَنَدٍ صحيحٍ-.

وقال النبيُّ ﷺ: «**لَيسَ شيءٌ أَحَبَّ إلىٰ اللهِ مِن قَطْرَتَيْن، وأَثَرَيْن: قَطْرَةٍ مِن دُمُوع**

(١) انظُر «المُبهِج في تَفسِير أَسماء شُعراء (دِيوان الحَماسَة)» (ص١١٦).

(٢) «شَرح المُفصَّل» (٢/ ٧٢) -لابنِ يَعيش-.

(٣) قال المُبارَكفوريّ في «تُحفة الأحوذِيّ» (٥/ ٢١٥): «هذا مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحال..».

في خَشيَةِ الله، وقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ في سَبيلِ الله، وأمَّا الأَثَرَانِ: فأَثَرٌ في سَبِيلِ اللهِ، وأَثَرٌ في فَريضَةٍ مِن فَرائضِ الله».

رواهُ -عن أبِي أُمامَةَ-: التِّرمِذِيُّ (١٦٦٩)، والطَّبرانِيُّ في «المُعجَمِ الكَبِير» (٧٩١٨)، وابنُ أبِي عاصِم في «الجِهاد» (١٠٨) -وهو حدِيثٌ حَسَن-.

وقال عبدُ الله بنُ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَأَنْ أَدْمَعَ دَمْعَةً مِن خَشيةِ الله أحَبُّ إلَيَّ مِن أنْ أَتَصَدَّقَ بألفِ دِينارٍ» -كما في «شُعَب الإيمان» (٨١٦) -للبَيْهَقِيِّ-.

وقال الجُنَيْدُ: كانَ السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ يَقُولُ لَنَا -ونحنُ حَوْلَهُ-: «أنا لَكُمْ عِبْرَةٌ -يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ-: اعْمَلُوا؛ فإنَّما العَمَلُ في الشُّبُوبِيَّةِ.

وكان إذا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ؛ دافَعَ أَوَّلَهُ، ثُمَّ دافَعَ، ثُمَّ دَافَعَ؛ فإذا غَلَبَهُ الأَمْرُ؛ أَخَذَ في النَّحِيبِ والبُكاءِ» -كما في «حِليَةِ الأَولِياء» (١٠/ ١٢٦)-.

وقال الإمامُ ابنُ القيِّمِ في «بدائع الفَوائد» (٣/ ٢٢٤):

«مَتَىٰ أَقْحَطَتِ العَيْنُ مِن البُكاءِ مِن خَشْيَةِ اللهِ -تعالىٰ-؛ فاعْلَمْ أنَّ قَحْطَهَا مِن قَسْوَةِ القَلْبِ، وأَبْعَدُ القُلُوبِ مِن اللهِ القَلْبُ القاسِي.

ومَتَىٰ رأيتَ نَفْسَكَ تَهْرُبُ مِن الأُنْسِ بِهِ إلىٰ الأُنْسِ بالخَلْقِ، ومِن الخَلْوَةِ معَ اللهِ إلىٰ الخَلْوَةِ مع الأَغيارِ؛ فاعْلَمْ أنَّكَ لا تَصْلُحُ لَهُ».

-١٥-

قِفْ عِنْدَ حُكْمِ المُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ ما تَحَرُّفِ

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

يَحُضُّ الشَّاعِرُ -رَحِمَهُ اللهُ- كُلَّ مُسلِمٍ علىٰ أنْ يَكُونَ وَقَّافًا عندَ حُدُودِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ -مِن أحكامِ القُرآنِ الكَرِيمِ، وهَدْيِ السُّنَّةِ المُشَرَّفَةِ-.

ويَنْهَاهُ عَن التَّحريفِ لِأحكامِهِما، والتَّبديلِ لِهَدْيِهِما، والمُخالِفَةِ لِأوامِرِهِما.

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيُّ:

❋ «**المُصحَف**؛ هُو: القُرآن»[(١)].

وفي الأَصْلِ؛ هو: «جَماعةُ أَوراق»[(٢)]، ولكِنْ؛ «أَكْثَر ما يُقال: (المُصحَف) لِمُصحَف القُرآن»[(٢)].

❋ (**تَحَرُّف**): قال الخَلِيلُ بنُ أحمد في كِتاب «العَيْن» (٣/ ٢١١):

«**التَّحريفُ** -في القُرآنِ-: تَغييرُ الكَلِمَةِ عن مَعناها -وهي قَريبةُ الشَّبهِ-؛ كما كانَتِ اليَهُودُ تُغَيِّرُ مَعانِيَ التَّوراةِ بالأشباهِ، فوَصَفَهُم اللهُ بِفِعْلِهِم، فقال: ﴿**يُحَرِّفُونَ**

(١) «التَّسعِينيَّة» (٢/ ٦٩٣) -لِشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّة -رَحِمَهُ اللهُ-.

(٢) «الفُرُوق» (ص٢٩١) -لِلعَسْكَرِيِّ-.

لِأَنَّهُ «جُعِلَ جامِعًا للصُّحُفِ المَكتُوبَةِ بَيْنَ دَفَّتَيْن» -كما قالَ الأزْهَرِيُّ في «تَهذِيب اللُّغَة» (٤/ ١٤٩)-.

﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦].

وتَحَرَّفَ فُلانٌ عن فُلانٍ، و: انْحَرَفَ، و: احْرَوْرَفَ: واحِدٌ».

أَقُولُ: ولَعَلَّ المَقصُودَ الأَقرَبَ -هُنا-، هُو: معنَىٰ (الانْحِرَاف) -أي: المُخالَفَةَ-؛ بِمَعْنَىٰ: «مالَ وعَدَلَ»[1].

وفي الكِتابِ العَزِيزِ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾[الأنفال:١٦]؛ «أيْ: مُنْعَطِفًا ومائِلًا إلَيْهِ.

والتَّحَرُّفُ: الزَّوالُ عن جِهَةِ الاستِواءِ.

والمُرَادُ بِهِ -هُنا-: التَّحريفُ مِن جانِبٍ إلىٰ جانِبٍ..»[2].

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

تَخَالُ أُذْنَيْهِ إِذَا تَحَرَّفَا ... خافِيَةً أَو قَلَمًا مُحَرَّفَا[3]

○ (فائِدَةٌ): خَطَرُ مُخالَفَةِ القُرآن:

قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩].

قال العَلَّامَةُ الشِّنقِيطِيُّ في «أَضواء البَيان» (٣/ ١٧):

«ذَكَرَ -جَلَّ وعَلَا- في هذه الآيَةِ الكَريمةِ -أنَّ هذا القُرآنَ العَظيمَ- الّذِي هُو

(١) «الصِّحاح» (٤/ ١٣٤٢) -لِلجَوْهَرِيِّ-.
(٢) «فَتْح البَيان» (٥/ ١٤٧) -لِصِدِّيق حَسَن خان-.
(٣) «المُحكَم» (٣/ ٣٠٧) -لابنِ سِيدَه-.

أَعظَمُ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ، وأجْمَعُها لِجَمِيعِ العُلُومِ، وآخِرُها عَهْدًا بِرَبِّ العالَمِين -جَلَّ وعَلَا-: يَهدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ؛ أي: الطَّرِيقَةُ الّتِي هِي أَسَدُّ وأَعْدَلُ وأَصْوَبُ:

وقال الزَّجَّاجُ، والكَلْبِيُّ، والفَرَّاءُ: لِلحالِ الّتي هي أَقْوَمُ الحالاتِ، وهِي تَوحِيدُ اللهِ، والإيمانُ بِرُسُلِهِ.

وهذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أَجمَلَ اللهُ -جَلَّ وعَلَا- فِيها - جَمِيعَ ما في القُرآنِ مِن الهُدَىٰ إلىٰ خَيْرِ الطُّرُقِ، وأَعدَلِهَا، وأَصْوَبِها.

فَلَو تَتَبَّعْنَا تَفْصِيلَها -علىٰ وَجْهِ الكَمالِ-: لَأتَيْنَا علىٰ جَمِيعِ القُرآنِ العَظِيمِ؛ لِشُمُولِها لِجَمِيعِ ما فِيهِ مِن الهُدَىٰ إلىٰ خَيْرَيِ الدُّنيا والآخِرَةِ...».

قال ابنُ القَيِّمِ في «مَدارِجِ السَّالِكِين» (١/ ٤٤٦):

«وأمَّا تَذَكُّرُ الوَعْدِ والوَعِيدِ؛ فإنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ خَشْيَتَهُ، والحَذَرَ مِنْهُ.

ولا تَنْفَعُ المَوعِظَةُ إلَّا لِمَن آمَنَ بِهِ، وخافَهُ، ورَجاهُ؛ قالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[النازعات:٤٥].

وأَصْرَحُ مِن ذَلِك قولُهُ -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥].

فالإيمانُ بالوَعْدِ والوَعِيدِ، وذِكْرُهُ: شَرْطٌ في الانْتِفاعِ بالعِظاتِ، والآياتِ، والعِبَرِ -يَسْتَحِيلُ حُصُولُهُ بِدُونِهِ-».

ورَوَىٰ أَبُو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (١٧١٧٤) -بِسَنَدٍ صَحِيحٍ-، عن المِقدامِ ابنِ مَعدِي كَرِبَ، عن رَسُولِ الله ﷺ، أنَّهُ قالَ: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ، ومِثْلَهُ مَعَهُ،**

أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ -علىٰ أَرِيكَتِهِ-، يَقُولُ: عَلَيكُم بهذا القُرآنِ؛ فما وَجَدْتُم فيه مِن حَلالٍ؛ فَأَحِلُّوهُ، وما وَجَدتُم فيهِ مِن حَرامٍ؛ فحَرِّمُوه...»:

«فَحَذَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن خِلافِ أَمْرِهِ؛ كما حَذَّرَ مِن خِلافِ كِتابِ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-.

فلْيَحْذَرْ أنْ يُخالِفَ شَيئًا مِن أَمْرِ رَسُولِ الله عليه السلام؛ فيَحِقَّ عَلَيهِ ما يَحِقُّ علىٰ مُخالَفَةِ كِتابِ الله -عزَّ وجَلَّ-»[1].

إذِ «السُّنَّةُ شَرْحٌ للقُرآنِ»[2].

واللهُ -تعالىٰ- يقولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

و(**الفِتنةُ**): «في قُلوبِهم؛ مِن كُفْرٍ، أو نِفاقٍ، أو بِدعةٍ»[3].

(١) «نُخَبُ الأَفكار» (١٣/ ١٥٢) -لِلْعَيْنِيِّ-.

(٢) «مِفتاح الجَنَّة في الاحتجاجِ بالسُّنَّة» (ص٢٧) -للسُّيُوطِيِّ-.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٩٣).

-١٦-

وَلا تَخُــضْ وُفِّقْــتَ فِــي أَقْــوالِ أَهــلِ البِـــدَعِ

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

يَنْهَىٰ الشَّاعِرُ -رَحِمَهُ اللهُ- عن الخَوْضِ في أَقوالِ أَهلِ البِدَعِ -في القُرآنِ الكَريمِ-؛ لمُخالَفَتِها الحَقَّ والصَّوابَ -الّذي عليهِ سَلَفُ الأُمَّةِ الصَّالِحُون، وعُلَماؤُها المُعتبَرُون-.

وما خالَفَهُم؛ فهُو مِن البِدَعِ الضَّالَّةِ المُنحَرِفَةِ.

وفي أثناءِ دُعائِهِ يَدعُو للمَنصُوح بالتَّوفيق إلىٰ كُلِّ خَيْرٍ...

وذلِكُم: «أنَّ مَسألةَ القُرآنِ وَقَعَ فيها بَيْنَ السَّلَفِ والخَلَفِ مِن الاضْطِرابِ ما لَمْ يَقَعْ نَظيرُهُ..»(١).

وبِسَبَبِ هذا: «فإنَّ الأُمَّةَ اضْطَرَبَت في هذا اضطِرابًا عَظِيمًا، وتَفَرَّقُوا، واخْتَلَفُوا بالظُّنُونِ والأَهواءِ -بَعْدَ مُضِيِّ القُرونِ الثَّلاثَةِ-..»(٢).

وقدْ أَلَّفَ الأَخُ الدُّكتور محمد هشام طاهِري الأَفغانِيُّ -وفَّقَهُ اللهُ- كِتابًا كَبيرًا -مُتمَيِّزًا-، بعُنوان: «القُرآن الكَريم، ومَنزِلَتُهُ بَيْنَ السَّلَفِ ومُخالِفِيهِم - دِراسَة عَقَدِيَّة» -مَطبُوعٌ في مُجَلَّدَين-.

---

(١) «التِّسعِينِيَّة» (١/ ٢٣٠) -لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّة-.

(٢) «مَجمُوع فتاوَىٰ شيخِ الإسلامِ» (١٢/ ٦).

* (**أَهلُ البِدَع**)؛ هُم: كُلُّ مَن خالَفَ السَّلَفَ الصَّالِحَ في اعْتِقادِهِم، وهَدْيِهِم، وأَحكامِهِم.

○ (**فائِدَةٌ**) : **التَّحذِيرُ مِن البِدَع**:

رَوَىٰ البُخارِيُّ (٢٦٩٧)، ومُسلمٌ (١٧١٨) مِن حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ أَحدَثَ في أَمرِنا هذا ما لَيْسَ منهُ فهُو رَدٌّ**».

ورَواهُ مُسلمٌ في «صحِيحِه» (١٧١٨) بلَفْظ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عليهِ أَمرُنا فهُو رَدٌّ**».

وقال الإمامُ الشَّاطِبِيُّ في «الاعْتِصام» (١/ ٤٧) -مُعَرِّفًا (**البِدْعَةَ**)-:

«**البِدْعَةُ**: طَرِيقةٌ في الدِّينِ مُختَرَعَةٌ، تُضاهِي الشَّرْعِيَّةَ؛ يُقصَدُ بالسُّلُوكِ عليها المُبالَغَةُ في التَّعَبُّدِ للهِ -سُبحانَهُ-».

وقال الحافظُ ابنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شَرحِ هذا الحَدِيثِ -في«جامِعِ العُلُومِ والحِكَم»(١/ ١٧٦)-:

(وهو أَصْلٌ عَظِيمٌ مِن أُصُولِ الإسلامِ، وهو كالمِيزانِ لِلأَعمالِ في ظاهِرِها؛ كما أنَّ حَدِيثَ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ**»[1]، ميزانُ الأَعمالِ في باطِنِها:

فكَمَا أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا يُرادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ -تعالىٰ-؛ فلَيْسَ لِعامِلِهِ فيهِ ثَوابٌ، فكذلِكَ كُلُّ عَمَلٍ لا يَكُونُ عليهِ أَمْرُ اللهِ ورَسُولِهِ؛ فهو مَرْدُودٌ علىٰ عامِلِهِ.

وكُلُّ مَن أَحْدَثَ في الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ورَسُولُهُ؛ فليسَ مِن الدِّينِ في شيءٍ).

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (١)، ومُسلمٌ (١٩٠٧)، عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب .

ونَقَلَ الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ في «فَتحِ البارِي» (٥/ ٣٥٢) عن أَبِي العبَّاس الطَّرْقِي[١] -قَوْلَهُ-: «هذا الحدِيثُ يَصلُحُ أنْ يُسمَّىٰ: (نِصْفَ أدِلَّةِ الشَّرعِ)».

وقال الإمامُ ابنُ القَيِّمِ في «إغاثَةِ اللَّهفان» (١/ ٢١٣): «القُلُوبُ إذا اشْتَغَلَت بالبِدَعِ أَعْرَضَت عن السُّنَنِ».

ورَوَىٰ مُسلِمٌ في «صَحيحِهِ» (٨٦٧) مِن حديثِ جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ -في خُطْبَتِهِ -يومَ الجُمُعَةِ-: «**إنَّ خَيرَ الحَدِيثِ كِتابُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثاتُها، وكُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٍ**».

وقال سَماحَةُ أُستاذِنا الشَّيخِ عبدِ العَزيزِ بنِ بازٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في رِسالَتِهِ «التَّحذِير مِن البِدَع» (ص١١):

«وقَد ثَبَتَ عن أَصحابِ رسولِ الله ﷺ، وعن السَّلَفِ الصَّالحِ -بَعْدَهُم-: التَّحذِيرُ مِن البِدَعِ، والتَّرهيبُ مِنها.

وما ذاكَ إلَّا لِأَنَّها زِيادَةٌ في الدِّينِ، وشَرْعٌ لَمْ يَأذَنْ بِهِ اللهُ، وتَشَبُّهٌ بِأَعداءِ اللهِ -مِن اليَهُودِ والنَّصارَىٰ- في زِيادَتِهِم في دِينِهِم، وابْتِداعِهِم فيه ما لَم يَأذَنْ بِهِ اللهُ-.

ولأنَّ لازِمَها التَّنَقُّصُ للدِّينِ الإسلامِيِّ، واتِّهامُهُ بِعَدَمِ الكَمالِ.

ومَعلُومٌ ما في هذا مِن الفَسادِ العَظيمِ، والمُنكَرِ الشَّنِيعِ، والمُصادَمَةِ لِقولِ اللهِ

---

(١) انظُر «الإكمال» (٤/ ٥٥) -لابنِ ماكُولا-.
وقد تُوُفِّي سَنَةَ (٥٢١هـ) -رَحِمَهُ اللَّهُ-.
تَرجمَهُ الذَّهَبِيُّ في «تَاريخ الإسلام» (١١/ ٣٦٥).

-تعالىٰ-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

«مِن هُنا كانَتِ العِباداتُ -الّتِي تُقَرِّبُنا إلىٰ رَبِّنا- مُبَيَّنَةً مُفصَّلَةً.

ولَم يَتْرُكِ اللهُ لِأَحَدٍ فِيها قَولًا، ولَم يَدَعْ فِيها نَقْصًا يَحتاجُ إلىٰ إكمالٍ.

ولَو تُرِكَ شيءٌ مِنها بِغيرِ إيضاحٍ لَكانَ مَدْعاةً إلىٰ الاخْتِلافِ والتّنازُعِ.

ومَن زَعَمَ أنَّ في الدِّينِ بِدعَةً حَسَنَةً؛ فإنَّه يَزعُمُ أنَّ اللهَ لَم يُكمِل دِينَهُ، ولَم يُتِمَّ نِعمَتَهُ علىٰ رَسُولِهِ ﷺ، وعلىٰ أُمَّتِهِ، واللهُ يَقُولُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣] (١).

فالدِّينُ -الّذِي رَضِيَ اللهُ أنْ نَتَقَرَّبَ بِهِ إلَيه- هُو الدِّينُ الّذِي كان عليهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ فما لَم يَكُن في عَهدِهِ ﷺ عِبادَةٌ وقُربَةٌ فلَن يَكُونَ بَعدَ ذلِكَ عِبادَةً ولا قُرْبَةً»(٢).

وروَىٰ الإمامُ ابنُ حَزمٍ في «الإحكام..» (٦/ ٥٨) -بسنده- عن الإمامِ مالكِ بنِ أَنَسٍ، أنّه قال: «مَن أَحْدَثَ في هذه الأُمَّةِ -اليومَ- شيئًا لَم يَكُن عليه سَلَفُها؛ فقد زَعَمَ أنَّ رسولَ الله ﷺ خانَ الرِّسالة؛ لأنَّ اللهَ -تعالىٰ- يقولُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فما لَمْ يَكُن -يومئذٍ- دِينًا؛ لا يَكُونُ -اليومَ- دِينًا».

وفي كِتابِي «عِلم أُصُول [معرفة] البِدَع» تَفصِيلاتٌ أُخرَىٰ -أَهَمُّ-.

---

(١) انظُر ما سيأتِي -قَرِيبًا- (ص١٢٥) في تَفسِيرِ هذه الآيةِ الكَرِيمَةِ.

(٢) «مَقاصِد المُكَلَّفِين فيما يُتَعَبَّدُ بِهِ لِرَبِّ العالَمِين» (ص٥٠٤) -للدُّكتور عُمر الأشقر-.

-١٧-

فإنَّـــــــــهُ كَلامُـــــــــــهُ أَعْيَـــا الـــوَرَىٰ نِظامُـــهُ

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

هذا القُرآنُ الكَريمُ هُو «كَلامُ اللهِ -تعالىٰ- لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ؛ لأنَّ القُرآنَ مِن عِلْمِ اللهِ، وعِلْمُ اللهِ لا يَكُونُ مَخْلُوقًا -تعالىٰ اللهُ عن ذلِكَ-.

دَلَّ علىٰ ذَلِكَ: القُرآنُ، والسُّنَّةُ، وقَولُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم، وقَولُ أَئمَّةِ المُسلِمين..» (١).

بل هذا «قَولُ المُسلِمين الّذينَ لَم تَزِغْ قُلُوبُهُم عَن الحَقِّ، وَوُفِّقُوا للرَّشادِ -قَديمًا وحَديثًا-»(١).

فقد أَعْجَزَ الخَلائِقَ -جَمِيعًا- نَظْمُ هذا القُرآنِ، وطَرِيقَتُهُ، ونَسَقُهُ.

ذَلِكُم أنَّ «أُسلُوبَهُ عَجيبٌ بَدِيعٌ، ليسَ مِن جِنسِ أساليبِ الكَلامِ المَعروفَةِ.

ولَمْ يَأتِ أَحَدٌ بِنَظِيرِ هذا الأُسلُوبِ؛ فإنَّه ليسَ مِن جِنسِ الشِّعْرِ، ولا الرَّجَزِ، ولا الخَطابَةِ، ولا الرَّسائِلِ.

ولا نَظْمُهُ نَظْمَ شَيءٍ مِن كَلامِ النَّاسِ -عَرَبِهِم وعَجَمِهِم-.

ونَفْسُ فَصاحَةِ القُرآنِ وبَلاغَتِهِ -هذا- عَجيبٌ خارِقٌ للعادَةِ؛ لَيسَ له نَظيرٌ في كَلامِ جَمِيعِ الخَلْقِ..» (٢).

(١) قالَهُ الإمامُ الآجُرِّيُّ في «الشَّريعَة» (١/ ٤٨٩).

(٢) «الجَواب الصَّحيح» (٥/ ٤٣٢) -لابنِ تَيميَّةَ-.

□ **التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:**

* (**أَعْيَا**): أَعْجَزَ.

* (**الوَرَىٰ**): الخَلْق.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

لا تُخْـــرِبَنَّ الوَجْـــهَ مِنـــكَ بِذِلَّـــةٍ فَخَـرابُ وَجْهِـكَ فِي الـوَرَىٰ أَنْ يُعْمَـرَا[1]

○ (**فائدةٌ**): **القُرآنُ كَلامُ اللهِ -تعالىٰ-:**

قـال العَلَّامَـةُ صِـدِّيق حَـسَن خـان -رَحِمَهُ اللهُ- في «قَطْـف الثَّمَـر» (ص٧٤) -مـا مُلَخَّصُهُ-:

«ومِن مَذهَبِ أَهلِ الحَقِّ -ومِمَّا اتَّفَقَ عليهِ أَهلُ التَّوحيدِ والصِّدقِ-: أَنَّ اللهَ لَم يَزَلْ مُتَكَلِّمًا، بِكلامٍ مَسمُوعٍ، مَفهُومٍ، مَكتُوبٍ؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[النساء:١٦٤].

وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِنكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا يُكَلِّمُهُ اللهُ -يَومَ القِيامَةِ- لَيسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ...**»[2] -الحديث-.

والقُرآنُ: كَلامُ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، ووَحْيُهُ، وتَنزِيلُهُ.

والمَسمُوعُ مِن القارِئِ: كَلامُ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-:

---

(١) «تَصحِيحُ التَّصحيف وتَحريرُ التَّحريف» (ص٤٠) -للصَّلاحِ الصَّفَدِيِّ-.

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (٦٥٣٩)، ومُسلمٌ (١٠١٦) عن عَدِيِّ بنِ حاتِم.

قالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦] -وإنَّما سَمِعَهُ مِن القارِئ-.

وقال -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح:١٥].

وهو مَحفُوظٌ في الصُّدُور؛ كما قال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

وَهُو مَكتُوبٌ في المَصاحِفِ، مَنظُورٌ بالأَعْيُنِ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ. فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [الطور:٢-٣]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ . فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٧-٧٩]..».

-١٨-

وبَهَـرَتْ أَحكامُـهُ الْـ ـغُرُّ[١] جَمِيـعَ الـشِّيَعِ

□ المعنىٰ الإجمالِيّ:

وقد أَدْهَشَت أَحكامُ هذا الدِّينِ العَظيمَةُ -كِتابًا وسُنَّةً- سائرَ النَّاسِ؛ مِن المِلَلِ، والمَذاهِبِ، والأَفكارِ -في كُلِّ البِلادِ، وَجَمِيعِ الأَزمِنَةِ-.

□ التَّفصيلُ اللُّغَوِيّ:

* (بَهَرَت): أَدهَشَتْ، وأَعْجَبَتْ.

كما قِيل -في مَدْحِ بَعضِ العُلماءِ- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾-:

لله دَرُّ (جَمالِـــهِ) وبَهائِـــهِ ذاكَ الأَغَـــرّْ
بَهَـرَ العُقُـولَ بِـسِحْرِهِ وبَيانِـهِ المُنْـشَا (غُـرَرْ)
مـا خِلْـتُ لُبًّـا في الـوَرَىٰ تُتْلَىٰ علَيـهِ ولا انْبَهَـرْ[٢]

* (الغُرّ) جمعُ: أَغَرّ؛ وهو: الشَّريفُ.

«لِسان العَرَب» (٥/ ١٥) -لِابْنِ مَنظُور-.

* (الشِّيَع)؛ جَمْعُ: شِيعَة.

(١) عَلَّقَ الدُّكتور سُليمان العُيُوني -بقولِهِ-: (هذا مُخالِفٌ للتَّسميط الّذي الْتَزَمَهُ النَّاظِمُ في منظُومَتِهِ).
(٢) «حِلْيَة البَشَر في تارِيخِ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَر» (ص١٠١٩) -لعبدِ الرَّزَّاق البِيطار الدِّمَشْقِيِّ-.

وفي القُرآنِ الكَريم: ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الحِجر:١٠].

وهِي: «الفِرْقَةُ المُتَّفِقَةُ علىٰ طَريقةٍ ومَذهَبٍ» -كما في «تَفسِيرِ أبِي السُّعُود» (٥/ ٦٩)-.

وقال محمُود بن حمزة الكِرْمانِي في «غرائب التفسير وعجائب التّأويل» (١/ ٥٨٧):

«الأوَّلُون؛ هُم: الّذين سَنُّوا الضَّلالةَ لِمَن بعدهم.

وشِيَعُهُم: أَتباعُهم -لاقْتِدائِهم بِهِم-».

○ **(فائدةٌ): مَحاسِنُ الدِّينِ الإسلامِيِّ:**

و«الدِّينُ الإسلامِيُّ -كُلُّهُ- مَحاسِنُ ومَصالِحُ؛ فهو دِينُ اليُسْرِ والسَّماحَةِ والسُّهُولَةِ، دِينُ العَدالَةِ والمُساواةِ، دِينُ الأُلْفَةِ والمَحَبَّةِ والإخاءِ، دِينُ العِلْمِ والعَمَلِ، دِينٌ يَهدِي للَّتِي هي أَقْوَمُ، دينُ الكَمالِ والشُّمُولِ، دِينُ الوَفاءِ والصِّدْقِ والأمانَةِ، دينُ العِزَّةِ والقُوَّةِ والمَنَعَةِ.

دِينٌ؛ أساسُهُ: التَّوحيدُ، ورُوحُهُ: الإخلاصُ، وشِعارُهُ: التَّسامُحُ والإخاءُ»[1].

قالَ الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ -رَحِمَهُ اللهُ- في «مِفتاح دارِ السَّعادةِ» (٢/ ٨٥٣-٨٥٥):

«وإذا تأمَّلْتَ الحِكْمَةَ الباهِرَةَ في هذا الدِّينِ القَيِّم، والمِلَّةِ الحَنِيفيَّة، والشَّريعَةِ المُحمَّدِيَّة: الّتي لا تَنالُ العِبارةُ كَمالَها، ولا يُدرِكُ الوَصْفُ حُسْنَها، ولا تَقتَرِحُ عُقولُ

(١) «كَمال الدِّين الإسلامِيّ، وحقيقته، ومَزاياه» (ص٥٧) -للشَّيخ عبد الله بن جار الله-.

العُقلاء -ولوِ اجْتَمَعَت- وكانَت علىٰ عَقْلِ أَكْمَلِ رَجُلٍ منهُم -فَوقَها!

وحَسْبُ العُقولِ الكامِلَةِ الفاضِلَةِ أَنْ أَدرَكَتْ حُسْنَها، وشَهِدَت بِفَضْلِها، وأَنَّهُ ما طَرَقَ العالَمَ شَريعةٌ أَكمَلَ، ولا أَجَلَّ، ولا أَعظَمَ مِنها.

فهِيَ -نَفسُها- الشَّاهِدُ والمَشهُودُ لَه، والحُجَّةُ والمُحْتَجُّ لَه، والدَّعْوَىٰ والبُرهانُ.

ولَو لَم يَأْتِ المُرْسَلُ بِبُرهانٍ علَيها: لَكَفَىٰ بِها بُرهانًا، وآيةً، وشاهِدًا: علىٰ أَنَّها مِن عِندِ اللهِ.

وكُلُّها شاهِدَةٌ لَهُ بكمالِ العِلمِ، وكَمالِ الحِكمَةِ، وسَعَةِ الرَّحمةِ والبِرِّ والإحسانِ، والإحاطَةِ بالغَيبِ والشَّهادَةِ، والعِلمِ بالمبادئ والعَواقِبِ، وأَنَّها مِن أَعظَمِ نِعَمِهِ الّتي أَنْعَمَ بِها علىٰ عِبادِهِ.

فما أَنْعَمَ عليهِم بِنِعْمَةٍ أَجَلَّ مِن أنْ هَداهُم لَها، وجَعَلَهُم مِن أَهلِها، ومِمَّن ارْتَضاهَا لَهُم، وارْتَضاهُم لها.

فلِهذا؛ امْتَنَّ علىٰ عِبادِهِ بأَنْ هَداهُم لَها:

قال -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

وقال -مُعَرِّفًا لِعبادِهِ، ومُذكِّرًا لهُم عَظيمَ نِعمتِهِ عليهِم بِها، مُسْتَدْعِيًا مِنهُم شُكْرَهُم علىٰ أَنْ جَعَلَهُم مِن أَهلِها-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

وتَأمَّلْ: كَيفَ وَصَفَ (الدِّينَ) -الّذي اخْتارَهُ لَهُم- بـ(الكَمالِ)، و(النِّعمَةَ) -الّتي أَسْبَغَها عليهِم- بِـ(التَّمامِ)؛ إيذانًا في (الدِّينِ) بأَنَّهُ لا نَقْصَ فيه، ولا عَيْبَ، ولا خَلَلَ، ولا شَيْءَ خارِجًا عن الحِكمَةِ -بِوَجْهٍ-.

بَل هو (الكامِلُ) في حُسْنِه وجَلالتِهِ.

ووَصَفَ النِّعمةَ بِـ(التَّمامِ)؛ إيذانًا بِدَوامِها واتِّصالِها، وأَنَّهُ لا يَسْلُبُهُم إيَّاها بَعْدَ إِذْ أعطاهُمُوها؛ بَل يُتِمُّها لَهُم بالدَّوامِ في هذه الدَّارِ، وفي دارِ القَرَارِ.

وتأمَّلْ: حُسْنَ اقْتِرانِ (التَّمامِ) بِـ(النِّعمَةِ)، وحُسْنَ اقْتِرانِ (الكَمالِ) بِـ(الدِّينِ)، وإضافةَ (الدِّينِ) إِلَيهِم؛ إذْ هُم القائمُونَ بِهِ، والمُقِيمُونَ لهُ.

و: إضافَةَ[1] (النِّعمَة) إليهِ؛ إذْ هُو وَلِيُّها، ومُسْدِيها، والمُنعِمُ بِها عليهِم؛ فهي نِعمتُهُ حَقًّا، وهُم قابِلُوها...

... وكانَ بعضُ السَّلَفِ يَقُولُ: «يا لَهُ مِن دِينٍ، لو أَنَّ لَهُ رِجالًا»[2].

وقال ابنُ القَيِّمِ -أَيضًا- في «إعلام المُوقِّعِين» (٢/ ٧٠):

«فانظُرْ إلىٰ تَناسُبِ هذِهِ الشَّريعَةِ الكامِلَةِ، الّتي بَهَرَ العُقولَ حُسْنُها وكَمالُها، وشَهِدَت الفِطَرُ بِحِكْمَتِها، وأَنَّهُ لَم يَطْرُقِ العالَمَ شَريعةٌ أَفضلُ مِنها.

ولوِ اجْتَمَعَت عُقولُ العُقلاء، وفِطَرُ الأَلِبَّاء، واقْتَرَحَت شَيئًا يَكُونُ أَحسَنَ مُقتَرَحٍ: لَمْ يَصِل اقْتِراحُها إلىٰ ما جاءَت بِهِ».

---

(١) أيْ: وَتَأمَّلْ إضافَةَ...

(٢) «المُجالَسَة» (٨٥٢) -للدِّينَوَرِيِّ-.

-١٩-

مِنـــهُ كمـــا جـــاءَ بَـــدَا فَكُـــن بِـــهِ مُعْتَـــضِدَا

□ المَعنَىٰ الإجماليّ:

والقُرآنُ الكَريمُ هو كَلامُ الله -تعالىٰ-؛ فهُو المُتكَلِّمُ بِهِ -سُبحانَهُ- ابْتِداءً، و«إِلَيْهِ يرجعُ -وَصْفًا-»[١] -أي: «يُوصَفُ اللهُ به»[٢]-.

فَاسْتَعِنْ باللهِ -تعالىٰ- علىٰ تَفَهُّمِ هذا الاعتِقادِ، والجَزْمِ بهِ، وكُن بِهذا القُرآنِ العَظِيمِ مُتمسِّكًا، وبِهِ عامِلًا، ولَهُ داعِيًا.

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ -كما في «جامع الرَّسائل» (١/ ١٦٢)-:

«قولُهُم: (منهُ بَدَأَ): نَبَّهُوا بِهِ علىٰ مُخالَفَةِ الجَهْمِيَّةِ، الّذِين قالُوا: إنَّه خَلَقَهُ في غَيرِه -مُنْفَصِلًا عنه!-.

فقال أهلُ السُّنَّةِ: (مِنهُ بَدَأ): لَم يَبتدِئ مِن غيرِهِ مِن المَوجودات؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦]».

□ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ:

* (مُعْتَضِدًا)؛ أي: (مُستعِينًا باللهِ -تعالىٰ-) -كما في «شَمس العُلُوم» (٧/ ٤٥٩٠) -لِلحِمْيَرِيِّ-.

(١) «شَرح العَقيدة الواسِطيَّة» (ص١٩٩) -للهَرَّاس-.

(٢) «التَّنبيهات اللَّطيفة» (ص٨٢) -لِلسَّعْدِيّ-.

ومنهُ: قَولُهُ -تعالىٰ-: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[القصص:٣٥]؛ «أيْ: سَنُعِينُكَ ونُقَوِّيكَ.

وكُلُّ مُعِينٍ؛ فهو: عَضُدٌ، وعاضَدَنِي فُلانٌ؛ أي: عاوَنَنِي..»[1].

❍ **تَنبيهٌ:**

البَيانُ الأوَّلُ فِي شَرْحِ (وإلَيْهِ يَعُودُ) -أيْ: يرجعُ-: لا يَتعارَضُ -بِحالٍ- مع بَيانٍ آخَرَ ذَكَرَهُ أئمَّةُ السُّنَّةِ -رحِمَهُمُ اللهُ-؛ وهو: «إليهِ يَعُودُ -أي: عِلْمُهُ-، فلا يَبْقَىٰ في المَصاحِفِ منهُ حَرفٌ، ولا في الصُّدُورِ منهُ آيَةٌ»[2].

كما صَحَّ عن حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ؛ حتَّىٰ لا يُدْرَىٰ ما صِيامٌ، ولا صَلاةٌ، ولا نُسُكٌ، ولا صَدَقَةٌ! وَلَيُسْرَىٰ علىٰ كِتابِ اللهِ -عزَّ وجَلَّ- في لَيْلَةٍ؛ فلا يَبْقَىٰ في الأَرْضِ مِنهُ آيَةٌ**...»[3].

قال الإمامُ ابنُ كَثيرٍ في «البِداية والنِّهاية» (١/ ٤١): «وهذا دالٌّ علىٰ أنَّ العِلمَ قد يُرفَعُ مِن النَّاسِ -في آخِرِ الزَّمانِ-؛ حتَّىٰ إنَّ القُرآنَ يُسْرَىٰ عليهِ النِّسيانُ -في

(١) «التَّفسير البَسِيط» (١٤/ ٥١) -للواحِدِيِّ-.

(٢) «الفَتاوَىٰ الكُبْرَىٰ» (٥/ ١٦) -لِشَيخِ الإسلامِ-.

(٣) رواهُ ابنُ ماجَه (٤٠٤٩)، والبزَّار (٢٨٣٨)، والحاكِم في «المُستدرَك» (٤/ ٤٧٣).

وصحَّحَهُ البُوصِيرِيُّ في «مِصباح الزُّجاجة» (٣/ ٢٥٤)، وشيخُنا الألبانِيُّ في «سِلسلةِ الأحادِيثِ الصَّحيحةِ» (٨٧).

وانظُر «لوائح الأنوار السَّنِيَّة» (١/ ٢٣٥) -لِلسَّفَّارِينِيِّ-.

و «يَدْرُسُ»: يُمْحَىٰ شَيئًا فَشَيئًا.

المَصاحِفِ والصُّدُورِ-، ويَبْقَىٰ النَّاسُ بِلا عِلْمٍ...».

○ **(فائدةٌ): في كَلامِ اللهِ -تعالىٰ-:**

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ في «مَجمُوع الفتاوَىٰ» (٣/ ٤٠١): «القُرآنُ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ علىٰ رَسُولِهِ ﷺ، هو هذا القُرآنُ الّذي يَقرَؤُه المُسلمُونَ، ويَكتُبُونَهُ في مَصاحِفِهِم.

وهو كَلامُ اللهِ؛ لا كَلامُ غَيْرِهِ -وإن تَلاهُ العِبادُ، وبَلَّغُوهُ بحَرَكاتِهِم، وأَصواتِهِم-؛ فإنَّ الكَلامَ لِمَن قالَهُ مُبْتَدئًا؛ لا لِمَن قالَهُ مُبَلِّغًا مُؤدِّيًا، قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة:٦].

وهذا القُرآنُ في المَصاحِفِ؛ كما قال-تعالىٰ-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ. فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البيِّنة:٢-٣]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة:٧٧-٧٨].

والقُرآنُ كَلامُ الله -بحُروفِهِ، ونَظْمِهِ، ومَعانِيه-؛ كُلُّ ذلِكَ يَدخُلُ في القُرآنِ، وفي كَلامِ الله...».

-٢٠-

ولا تُجـــادِلْ أَحَـــدًا في آيَـــةٍ[١] وارْتَـــدِعِ

□ المَعْنَىٰ الإجمالِيّ:

لا تُجادِلْ في أَيٍّ مِن آيِ القُرآنِ الكَريمِ -بل ولا في آيَةٍ مِنهُ- أَحَدًا مِن النَّاسِ الّذين لا يُريدُونَ الحَقَّ، ولا يَطلُبُونَهُ!

إذْ تَرَىٰ الواحِدَ مِنهُم «يَرُومُ تَكذِيبَ القُرآنِ بالقُرآنِ؛ لِيَدْفَعَ بَعضَهُ بِبَعْضٍ، فيُطرِّقَ إليه قَدْحًا وطَعْنًا»[٢].

وامْتَنِعْ عن ذلِكَ -كُلِّه-؛ حِفظًا لِدينِك، ورِعايةً لِيَقِينِك.

□ التفصيل اللغوي:

(وَارْتَدِعِ):

قال ابنُ مَنظُور في «لِسان العرب» (٨/ ١٢١):

«الرَّدْعُ: الكَفُّ عنِ الشَّيْءِ؛ رَدَعَهُ يَرْدَعُهُ رَدْعًا، فارْتَدَعَ: كَفَّهُ فَكَفَّ؛ قال:

أَهْـلُ الأَمَـــانَةِ إنْ مَـالُوا ومَسَّهُمُ طَيْفُ العَدُوِّ إذَا مَا ذُوكِرُوا ارْتَدَعُوا»[٣].

---

(١) ويُمكِن أنْ تُقْرَأَ: (في آيِهِ).

(٢) «تُحفة الأَبرار شَرح (مَصابيح السُّنَّة)» (١/ ١٥٩) -للبَيضاوِي-.

(٣) وانظُر «المُحْكَم» (٢/ ١٠) -لِابنِ سِيدَه-.

○ **(فائدةٌ): حُكْمُ المُجادَلَةِ في القُرآنِ:**

صَحَّ عن رَسُولِ الله ﷺ أنَّهُ قالَ: «**المِراءُ في القُرآنِ كُفْرٌ**» -ثَلاث مَرَّات- «**فما عَرَفْتُم منه: فاعْمَلُوا، وما جَهِلْتُم منهُ: فرُدُّوهُ إلىٰ عالِمِه**».

رَواهُ أحمدُ (٧٩٨٩)، والنَّسائيُّ في «السُّنَنِ الكُبرىٰ» (٨٠٩٣)، وابنُ حِبَّان (٧٤) -وغيرُهُم- بِسَنَدٍ حَسَنٍ عن أبِي هُريرةَ-.

وقال ابنُ حِبَّان -عَقِبَ رِوايتِهِ-:

«إذا مارَىٰ المَرْءُ في القُرآنِ: أَدَّاهُ ذَلِكَ -إنْ لَم يَعْصِمْهُ اللهُ- إلىٰ أنْ يَرتابَ في الآيِ المُتَشابِهِ منهُ، وإذا ارْتابَ في بَعضِهِ: أَدَّاهُ ذلك إلىٰ الجَحْدِ.

فأَطْلَقَ ﷺ اسمَ (الكُفرِ) -الّذِي هو الجَحْدُ- علىٰ بِدايَةِ سَبَبِهِ- الّذِي هُو المِراءُ-».

وقال شيخُ مَشايخِنا العَلَّامَةُ عُبيد اللهِ المُبارَكفوري الرَّحماني في «مِرعاة المَفاتيح» (١/ ٣٣٢): «**المِراءُ**: المُجادَلَةُ علىٰ مذهبِ الشَّكِّ والرِّيبة...

وسمَّاهُ (كُفْرًا): باسْمِ ما يُخافُ عاقِبَتُهُ»، وَلِكَوْنِه «رُبَّما يُفْضِي بصاحِبِهِ إلىٰ الكُفْرِ -إذا عانَدَ صاحِبَهُ الّذي يُمارِيه علىٰ الحَقِّ-.

ثُمَّ لا بُدَّ أن يَكُونَ أحدُ الرَّجُلَيْنِ مُحِقًّا، والآخَرُ مُبطِلًا.

ومَن جَعَلَ كِتابَ اللهِ سِنادَ باطِلِه؛ فقد باءَ بالكُفْرِ»[1]!

---

(١) «المُيَسَّر في شَرح (مصابيح السُّنَّة)» (١/ ١٠٩) -للتُّورِبِشْتِي-.
و«**سِناد**»؛ أي: مُستَنَد، وعِماد.

وقال الإمامُ الذَّهبِيُّ في كتابِهِ «العُلُوّ لِلعَلِيِّ **العَظِيم**» (١/ ٢٤٦):

«قال -تعالىٰ-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾[المُلك:١٦-١٧].

وقال -تعالىٰ-: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[المعارج:٤].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ. أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[غافر:٣٦-٣٧].

... إلىٰ غَيْرِ ذلِكَ مِن نُصوصِ القُرآنِ العَظيمِ -جَلَّ مُنَزِّلُهُ، وتَعَالَىٰ قائلُه-.

فإنْ أَحببتَ -يا عَبدَ اللهِ- الإنصافَ؛ فقِف مع نُصوصِ القُرآنِ والسُّنَنِ، ثُمَّ انظُر ما قالَهُ الصَّحابَةُ، والتَّابِعُون، وأئمَّةُ التَّفسيرِ -في هذه الآياتِ-، وما حَكَوْهُ مِن مَذاهِبِ السَّلَفِ:

فإمَّا أنْ تَنطِقَ بعِلْمٍ.

وإمَّا أنْ تَسكُتَ بحِلْم.

ودَعِ المِراءَ والجِدالَ؛ فإنَّ «**المِراءَ في القُرآنِ كُفْرٌ**»[1] -كما نَطَقَ بذلِكَ الحَديثُ الصَّحيحِ-.

جَمَعَ اللهُ قُلوبَنا علىٰ التَّقوَىٰ، وجَنَّبَنا المِراءَ والهَوَىٰ.

فإنَّنا علىٰ أَصلٍ صَحيحٍ، وعَقْدٍ مَتِينٍ: مِن أنَّ اللهَ -تَقَدَّسَ اسمُه- لا مِثْلَ لَهُ، وأنَّ

(١) تَقَدَّمَ تَخريجُهُ.

إيمانَنَا بِما ثَبَت مِن نُعُوتِهِ كإيمانِنا بذاتِهِ المُقَدَّسَةِ؛ إذِ الصِّفاتُ تابِعَةٌ للمَوصُوفِ[١]:

فنَعقِلُ وُجُودَ البارِي، ونُمَيِّزُ ذاتَه -المُقدَّسَةَ عن الأشْباهِ- مِن غَيْرِ أنْ نتَعَقَّلَ الماهِيَّةَ[٢].

فكذلِكَ القَولُ في صِفاتِهِ: نُؤمِنُ بها، ونَعقِلُ وُجُودَها، ونَعْلَمُها -في الجُملَةِ- مِن غَيْرِ أنْ نَتعقَّلَها، أو نُشَبِّهَها، أو نُكَيِّفَها، أو نُمَثِّلَها بصِفاتِ خَلقِهِ -تَعالَىٰ اللهُ عن ذلِكَ عُلُوًّا كَبيرًا-».

وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ في «الرِّسالةِ التَّدمُرِيَّة» (ص٤٣):

«القَولُ في الصِّفاتِ كالقَولِ في الذَّاتِ؛ فإنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] -لا في ذاتِه، ولا في صِفاتِه، ولا في أَفعالِهِ-.

فإذا كانَ لهُ ذاتٌ حقيقيَّةٌ لا تُماثِلُ الذَّواتِ، فالذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِصفاتٍ حقيقيَّةٍ لا تُماثِلُ صِفاتِ سائرِ الذَّواتِ.

فإذا قالَ السَّائلُ: كيفَ اسْتَوَىٰ علىٰ العَرشِ؟

قِيلَ لهُ -كما قال رَبِيعةُ، ومالِكٌ- وغيرُهما-: (الاستِواءُ مَعلُومٌ، والكَيفُ

(١) مِن هُنَا قَعَّدَ العُلماءُ قاعِدَةَ: (الكَلام في الصِّفاتِ كالكَلام في الذَّات).
وانظُر رِسالَةَ «الكَلامِ في الصِّفات» (ص٢٠) -للخَطِيب البَغدادِيِّ-، و«الحُجَّة في بَيانِ المَحجَّة» (١/ ١٧٤) -لِلأَصْبَهانِيِّ-، و«التّدمُرِيَّة» (ص٤٣)، و«مجموع الفتاوَىٰ» (٥/ ٣٣٠)، و(٦/ ٣٥٥) -كِلاهُما لِشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّة-.

(٢) هِي «ما يَرْتَسِمُ في النَّفْسِ مِن الشَّيءِ».
«مَجمُوع الفتاوَىٰ» (٩/ ٩٧).

مَجهُولٌ، والإيمانُ بِه واجِبٌ، والسُّؤالُ عن الكَيفِيَّةِ بِدعَةٌ)[1].

لأَنَّهُ سُؤالٌ عمَّا لا يَعلَمُهُ البَشَرُ، ولا يُمكِنُهُم الإجابَةُ عنهُ.

وكذلِكَ إذا قالَ: كيفَ يَنزِلُ رَبُّنا إلىٰ سماءِ الدُّنيا؟!

قِيلَ لهُ: كيف هُو؟!

فإذا قال: أنا لا أَعلَمُ كَيفِيَّتَهُ!

قِيلَ لهُ: ونحنُ لا نَعلمُ كَيفيَّةَ نُزُولِهِ؛ إذِ العِلمُ بكيفيَّةِ الصِّفَةِ يَستلزِمُ العِلمَ بكيفيَّةِ المَوصُوفِ، وهُو فَرْعٌ لَهُ، وتابعٌ له؛ فكيف تُطالِبُنِي بالعِلمِ بكيفيَّةِ سَمْعِهِ، وبَصَرِهِ، وتَكليمِهِ، ونُزُولِهِ، واسْتِوائِهِ، وأَنتَ لا تَعلمُ كَيفيَّةَ ذاتِهِ؟!

وإذا كُنتَ تُقِرُّ بأنَّ لَهُ ذاتًا حقيقيَّةً، ثابِتَةً في نَفْسِ الأَمرِ، مُستَوجِبَةً لِصفاتِ الكَمالِ، لا يُماثِلُها شَيْءٌ؛ فَسَمْعُهُ، وبَصَرُهُ، وكَلامُهُ، ونُزُولُهُ، واسْتِواؤُهُ: ثابِتٌ في نَفْسِ الأَمرِ، وهُو مُتَّصِفٌ بِصفاتِ الكَمالِ الّتي لا يُشابِهُهُ فيها سَمْعُ المَخلُوقِين، وبَصَرُهُم، وكَلامُهُم، ونُزُولُهُم، واسْتِواؤُهُم».

---

(١) أخرجَه عن مالِك: أبو نُعَيم في «الحِلية» (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦)، واللَّالَكائيُّ في «شرح أُصول اعتقاد أهل السُّنَّة» (٦٦٤)، والصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (١٧، ١٨)، والدارِمي في «الرَّدّ علىٰ الجهميَّة» (ص١٠٤).

قال الحافظُ ابنُ حَجَر في «الفتح» (١٣/ ٤٠٦): «إسناده جيِّد».

وصحَّحَهُ الإمامُ الذهبيُّ في «العُلُوّ» (ص١٠٣).

وانظُر رسالةَ «الأثَر المَشهُور عن الإمامِ مالِك -رَحِمَهُ اللهُ- في صِفَةِ الاسْتِواء -دراسة تحليليَّة» (ص٣٥ و٨٦) -لِلأَخِ الدُّكتور الشَّيخ عبد الرزَّاق العَبّاد البَدْر -حفظهُ اللهُ-.

-٢١-

ولا تُــــؤَوِّلْ مـــــا وَرَدْ لِلَّـــهِ مِـــن سَـــمْعٍ ويَـــدْ

□ المعنَىٰ الإجمالِيّ:

إيَّاكَ أنْ تُؤَوِّلَ -أَوْ: تُحَرِّفَ- شيئًا مِن مَعانِي القُرآنِ الكَرِيمِ، والسُّنَّة المُشرَّفةِ -عُمُومًا-، وما وَرَدَ مِن آياتٍ قُرآنيَّةٍ، أو أحاديثَ نبويَّةٍ» في صِفاتِ البارِي-سُبحانَهُ -خُصوصًا-؛ كالسَّمْعِ، واليَدِ -وغَيرِهما-؛ فاللهُ -سُبحانَهُ- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في «الرِّسالةِ التَّدمُريَّة» (ص٩٢):

«لَفظُ (التَّأوِيلِ) قد صارَ -بتعَدُّدِ الاصطِلاحاتِ -مُستعمَلًا في ثلاثَةِ مَعانٍ:

* **أحـدُهَا**: وهـو اصْـطِلاحُ كَثيـرٍ مِـن المُتـأخِّرين -مِـن المُتكلِّمِـين في الفِقْـهِ وأُصُـولِهِ-: أنَّ (التَّأوِيـلَ) هـو صَـرْفُ اللَّفـظِ عـن الاحتِمـالِ الـرَّاجِحِ إلـىٰ الاحْتِمـالِ المَرجُوحِ؛ لِدَليلٍ يَقتَرِنُ بِهِ!

وهذا هو الَّذِي عَناهُ أَكثَرُ مَن تَكَلَّمَ مِن المُتأخِّرين في تأويـلِ نُصوصِ الـصِّفاتِ، وتَرْكِ تَأوِيلِها، وهل هذا مَحمُودٌ أو مَذمُومٌ؟! أو حَقٌّ أو باطِلٌ؟!

* **الثَّـانِي**: أنَّ (التَّأوِيـلَ) بمعنَـىٰ (التَّفـسيرَ)، وهـذا هـو الغالِـبُ علـىٰ اصـطِلاحِ مُفسِّرِي القُرآن، كما يَقُولُ ابنُ جَريرٍ -وأمثالُهُ مِن المُصنِّفِين في التَّفسِير-: «واخْتَلَفَ عُلماءُ التَّأوِيل».

* **الثَّالِثُ** -مِن معانِي (التَّأوِيل)-؛ هو: الحَقيقَةُ الّتي يَؤُولُ إليهَا الكَلامُ؛ كما قالَ -تعالىٰ-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف:٥٣]».

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في «المُناظَرَة في العَقيدة الواسطِيَّة» (ص٦٦-٦٧):

«إنِّي عَدَلْتُ عن لَفْظِ (التَّأوِيلِ) إلىٰ لَفظِ (التَّحريف)؛ لأنَّ (التَّحريفَ) اسمٌ جاءَ القُرآنُ بِذَمِّهِ، وأنا تَحَرَّيْتُ في هذه «العَقيدةِ»[1] اتِّباعَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فنَفَيْتُ ما ذَمَّهُ اللهُ مِن (التَّحريفِ).

ولَمْ أَذكُرْ فِيها لَفظَ(التَّأويل): لِأَنَّهُ لَفظٌ لهُ عِدَّةُ مَعانٍ...

ومعنَىٰ لَفظ (التَّأوِيل) -في كتابِ اللهِ- غيرُ لَفظِ (التَّأويلِ) في اصطِلاحِ المُتأخِّرِينَ[2] -مِن أَهلِ الأُصُولِ والفِقْهِ-، وغيرُ معنَىٰ لَفظِ (التَّأويلِ) في اصطِلاحِ كَثيرٍ مِن أهلِ التَّفسيرِ والسَّلَفِ».

○ **(فائدةٌ): قَواعِدُ إثباتِ الصِّفاتِ للهِ -تعالىٰ-:**

قال الحافِظُ أبو بَكر الخَطيبُ البَغدادِيُّ في رِسالتِهِ «الكَلام في الصِّفات» (ص١٩-٢٥):

«أمَّا الكَلامُ في (الصِّفات):

---

(١) «الواسِطِيَّة».

(٢) وهو ما ألَّفَ الإمَامُ ابنُ قُدامة -رَحِمَهُ اللهُ- فيه-: رسالتَه «ذمّ التَّأويل».

فإنَّ ما رُوِيَ منها[١] -في «السُّنَن» و«الصِّحاح»: مذهبُ السَّلَفِ -رضوانُ الله عليهِم- إثباتُها، وإجراؤُها علىٰ ظَواهِرِها، ونَفْيُ الكَيفيَّةِ، والتَّشبيهِ عنها.

وقد نَفَاهَا قومٌ؛ فأَبْطَلُوا ما أَثْبَتَهُ اللهُ -سُبحانَهُ-.

وحقَّقَها قَومٌ مِن المُثْبِتِين؛ فخَرَجُوا في ذلك إلىٰ ضَرْبٍ مِن التَّشبِيهِ والتَّكييف!

والقَصدُ: إنَّما هو سُلُوكُ الطَّريقةِ المُتوسِّطَةِ بَيْنَ الأَمْرَيْن.

ودِينُ اللهِ بَيْنَ الغالِي فِيهِ، والمُقصِّر عنهُ:

والأَصلُ -في هذا-: أنَّ الكَلامَ في الصِّفاتِ فَرْعٌ علىٰ الكَلامِ في الذَّاتِ، ويُحتَذَىٰ في ذَلِكَ حَذوُهُ ومِثالُهُ.

فإذا كان مَعلُومًا: أنَّ إِثباتَ رَبِّ العالَمِين -عزَّ وجلَّ- إنَّما هو إثباتُ وُجود؛ لا إثباتُ كَيفيَّة؛ فكذلك: إثباتُ صِفاتِهِ؛ إنَّما هو إثباتُ وُجودٍ؛ لا إثباتُ تَحديدٍ وتَكييفٍ.

فإذا قُلْنَا: للهِ -تعالىٰ- يَدٌ، وسَمْعٌ، وبَصَرٌ؛ فإنَّما هي صفاتٌ أَثْبَتَها اللهُ -تعالىٰ- لِنَفْسِهِ.

ولا نَقُولُ: أنَّ مَعنَىٰ (اليَد): القُدرَة! ولا أنَّ معنَىٰ (السَّمع والبَصَر): العِلم!

ولا نَقُولُ: إنَّها جَوارِحُ!

ولا نُشبِّهُها بالأَيدِي، والأَسماع، والأَبصار-الّتي هي جوارحُ وأدواتٌ للفِعلِ-.

---

(١) أيْ: الأَحادِيث الوَارِدَة في صِفاتِ اللهِ -تعالىٰ-.

ونَقُولُ: إنَّما وَجَبَ إثباتُها؛ لأنَّ التَّوقِيفَ[١] وَرَدَ بِها، ووَجَبَ نَفْيُ التَّشبِيهِ عَنها؛ لِقَولِهِ -تباركَ وتعالَىٰ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقولِهِ -عزَّ وجَلَّ-: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤].

ولمَّا تَعَلَّقَ أَهلُ البِدَعِ علىٰ عَيْبِ أَهلِ النَّقْلِ -بِرواياتِهِم هذه الأَحاديثَ-، ولَبَّسُوا علىٰ مَن ضَعُفَ عِلمُهُ: بأَنَّهُم يَرْوُونَ ما لا يَلِيقُ بالتَّوحيدِ! ولا يَصِحُّ في الدِّينِ! ورَمَوْهُم بكُفْرِ أَهلِ التَّشبيه! وغَفلَةِ أَهلِ التَّعطِيل:

أُجِيبُوا بأنَّ في كِتابِ اللهِ -تعالىٰ- آياتٍ مُحكَمَاتٍ: يُفهَمُ مِنها المُرادُ بِظاهِرِها، وآياتٍ مُتشابِهاتٍ: لا يُوْقَفُ علىٰ معنَاها إلَّا بِرَدِّها إلىٰ المُحكَمِ.

ويَجِبُ تَصديقُ الكُلِّ، والإيمانُ بالجَمِيعِ.

فكذلِكَ أخبارُ الرَّسُولِ ﷺ؛ جارِيَةٌ هذا المَجْرَىٰ، ومُنَزَّلَةٌ علىٰ هذا التَّنزِيلِ: بِرَدِّ المُتشابِهِ مِنها إلىٰ المُحكَمِ.

ويُقبَلُ الجَمِيعُ.

وتَنقَسِمُ الأَحادِيثُ المَروِيَّةُ في الصِّفاتِ ثلاثَةَ أَقسامٍ:

* **مِنها أَخبارٌ ثابِتَةٌ**: أجمعَ أئمَّةُ النَّقْلِ علىٰ صِحَّتِها؛ لاسْتِفاضَتِها، وعَدالَةِ ناقِلِيها:

فيَجِبُ قَبُولُها، والإيمانُ بِها، مع حِفظِ القَلْبِ أنْ يَسْبِقَ إليهِ اعتقادُ ما يَقتضِي

(١) يَعني: النَّصّ.

تَـشبِيهَ اللهِ بِخَلْقِـهِ، ووَصْـفَهُ بِمـا لا يَلِيـقُ بِـهِ مِـن الجَـوارِحِ، والأَدواتِ، والتَّغَيُّـرِ، فالحَرَكَاتِ.

* **والقِسْمُ الثَّانِي**: أَخبارٌ ساقِطةٌ بِأسانِيدَ واهِيَةٍ، وأَلفاظٍ شَنِيعَةٍ، أَجمعَ أَهلُ العِلْمِ بالنَّقْلِ علىٰ بُطُولِها[1]:

فهذِهِ لا يَجُوزُ الاشتِغالُ بِها، ولا التَّعريجُ عليها.

* **والقِسْمُ الثَّالِث**: أَخبارٌ اخْتَلَفَ أَهلُ العِلْمِ في أَحوالِ نَقَلَتِها؛ فقَبِلَهُم البَعضُ دُونَ الكُلِّ:

فهذِه يَجِبُ الاجْتِهادُ والنَّظَرُ فيها[2]؛ لِتُلْحَقَ بأَهلِ القَبُولِ، أو تُجْعَلَ في حَيِّزِ الفَسادِ».

ورَوَىٰ الحافِظُ الخَلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٣١١)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (ص٢٥٤) -بإسنادٍ صحيحٍ- عن أَبِي عُبَيد القاسِم بنِ سَلّام، أَنَّهُ قال:

«هذه الأحاديثُ حَقٌّ، لا شَكَّ فيها؛ نَقَلَها الثِّقاتُ -بَعضُهُم عن بَعض-؛ حتَّىٰ صارَت إلينا، نُصدِّقُ بها، ونُؤمِنُ بِها علىٰ ما جَاءَت».

وروَىٰ عبدُ اللهِ بنُ أحمَد في «السُّنَّةِ» (٤٩٥) عن أحمدَ بنِ إبراهِيمَ: سَمِعتُ وَكِيعًا يَقُولُ: نُسَلِّمُ هذه الأحاديثَ -كما جاءَت-، ولا نَقُولُ: كيفَ كذا؟ ولا: لِمَ كَذا؟».

---

(١) أي: بُطلانها.

«جَمْهَرَة اللُّغَة» (١/ ٣٥٩) -لابنِ دُرَيد-.

(٢) مِن ذَوِي الأهليَّةِ العلميَّةِ لِذلك -لا غَيْر-.

وقالَ الإمامُ أَبُو عُمَر يُوسُفُ بنُ عبد البَرّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «التَّمهيد» (٧/ ١٤٥):

«أَهلُ السُّنَّةِ مُجمِعُونَ علىٰ الإقرارِ بِالصِّفاتِ الوارِدَةِ -كُلِّها- في القُرآنِ والسُّنَّةِ، والإيمانِ بِها، وحَمْلِها علىٰ الحَقِيقَةِ -لا علىٰ المَجازِ-؛ إلَّا أنَّهُم لا يُكَيِّفُونَ شَيئًا مِن ذلِك، ولا يَحُدُّونَ فيهِ صِفَةً مَحصُورَةً.

وأمَّا أَهلُ البِدَعِ، والجَهمِيَّةُ، والمُعتَزِلَةُ -كُلُّها- والخَوارِجُ-؛ فكُلُّهُم يُنكِرُها، ولا يَحمِلُ شَيئًا مِنها علىٰ الحَقيقةِ! ويَزعُمُونَ أنَّ مَن أَقَرَّ بِها مُشَبِّهٌ!

وهُم -عِندَ مَن أَثْبَتَها- نافُونَ لِلمَعبُود!!

والحَقُّ فيما قالَهُ القائِلُونَ بِمَا نَطَقَ بِهِ كِتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ- وهُم أئمَّةُ الجَماعَةِ-».

-٢٢-

وقُــلْ هُــوَ اللهُ أَحَــدْ قَــوْلَ امْــرِئٍ مُتَّبِــعِ

□ المعنَىٰ الإجماليّ:

وَأَقِرَّ -أيُّها المُوحِّدُ- بأنَّ اللهَ -تعالىٰ- «رَبُّ العالَمِين، واحِدٌ -لا شَريكَ له-.

وهو التَّوحيدُ الَّذِي دَلَّ عليهِ الشَّرعُ والعَقلُ»[1].

فهذا هو (الاتِّباعُ) الصَّحيحُ للقُرآنِ والسُّنَّةِ.

وقال العَلَّامَةُ صِدِّيق حَسَن خان في «فَتْح البَيان في مَقاصِد القُرآن» (١/ ٣٢٦) -في تَفسِيرِ قَولِ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: لا شَريكَ لهُ في الأُلُوهِيَّةِ، ولا نَظِيرَ لهُ في الرُّبُوبِيَّةِ.

والتَّوحيدُ؛ هُو: نَفْيُ الشَّريكِ، والقَسِيمِ، والشَّبِيهِ؛ فاللهُ -تعالىٰ- واحِدٌ في أَفعالِهِ -لا شَرِيكَ لهُ يُشارِكُهُ في مَصْنُوعاتِهِ-، وواحِدٌ في ذاتِهِ -لا قَسِيمَ لَهُ-، وواحِدٌ في صِفاتِهِ- لا يُشبِهُهُ شَيْءٌ مِن خَلْقِهِ-.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تَقْرِيرٌ للوَحدانِيَّةِ: بِنَفْيِ غَيْرِهِ مِن الأُلوهِيَّةِ، وإثباتِها لَهُ.

وفيهِ الإرشادُ إلىٰ التَّوحيدِ، وقَطْعِ العَلائِقِ، والإشارةُ إلىٰ أن أوَّلَ ما يَجِبُ بَيانُهُ، ويَحْرُمُ كِتمانُهُ: هُو أَمْرُ التَّوحيدِ».

(١) «دَرْء تَعارُض العَقل والنَّقل» (٣/ ٣٩٤) -لِشَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيميَّة-.

○ **(فائدةٌ): إخلاصُ التَّوحِيدِ لله:**

قال الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ في «الصَّواعِق المُرسَلَة» (٢/ ٧٤٦):

«وهَـل يُفهَـمُ مِـن قَولِـهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخـلاص:١] غيـرُ ذاتِ رَبِّ العالَمِين، وأنَّهُ واحِدٌ لا شَريكَ لهُ، وأنَّهُ لَم يُولَدْ مِن غَيْرِهِ، ولَم يَلِدْ مِنهُ غَيرُه، وليسَ له مَن يُماثِلُهُ ويُكافِئُهُ؟!».

وقـال -رَحْمَـةُ الله عليـه- في «هِدَايـة الحَيـارَىٰ في أَجوِبَـةِ اليَهُـودِ والنَّـصَارَىٰ» (ص٥٢٢-٥٢٤):

«النُّبُوَّاتُ -مِن أَوَّلِها إلىٰ آخِرِها- مُتَّفِقَةٌ علىٰ أُصولٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ -سُبحانَهُ وتَعَالَىٰ- قَدِيمٌ[1]، واحِدٌ، لا شَريكَ لهُ في مُلْكِهِ، ولا نِـدَّ، ولا ضِـدَّ، ولا وَزِيـرَ، ولا مُـشِيرَ، ولا ظَهِيـرَ، ولا شـافِعَ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣].

الثَّانِي: أنَّهُ لا والِدَ لَهُ، ولا وَلَدَ، ولا كُفْؤَ، ولا نَسِيبَ -بِوَجْهٍ مِن الوُجُوه-، ولا زَوجَةَ.

الثَّالِث: أنَّه غَنِيٌّ بِذاتِهِ، فلا يَأكُلُ، ولا يَشْرَبُ، ولا يَحتاجُ إلىٰ شَيْءٍ مِمَّا يَحتاجُ إليهِ خَلْقُهُ -بِوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ-.

الرَّابِع: أنَّـهُ لا يَتَغَيَّرُ، ولا تَعْرِضُ لـهُ الآفـاتُ -مِن الهَرَمِ، والمَرَضِ، والسِّنَةِ،

(١) هذا مِن بابِ الإخبارِ عنِ اللهِ -تعالىٰ-؛ لا أَنَّهُ اسمٌ لَهُ -سُبحانَه-.
وانظُر كِتابِي «الرِّياض النَّدِيَّة.. علىٰ مَتن (العَقِيدة الطَّحاوِيَّة)» (ص٢٥).

والنَّومِ، والنِّسيانِ، والنَّدَمِ، والخَوفِ، والهَمِّ، والحُزْنِ -ونحوِ ذلِكَ-.

الخامِسُ: أنَّهُ لا يُماثِلُ شَيئًا مِن مَخلُوقاتِهِ؛ بلْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾-لا فِي ذاتِه، ولا فِي صِفاتِه-.

السَّادِس: أنَّهُ لا يَحِلُّ في شَيْءٍ مِنْ مَخلُوقاتِهِ، ولا يَحِلُّ في ذاتِهِ شيءٌ مِنها؛ بل هُو بائِنٌ[1] عن خَلْقِهِ بذاتِهِ، والخَلْقُ بائِنُونَ عَنهُ.

السَّابِعُ: أنَّهُ أَعظَمُ مِن كُلِّ شيءٍ، وأَكبَرُ مِن كُلِّ شيءٍ، وفَوْقَ كُلِّ شيءٍ، وغالِبٌ علىٰ كُلِّ شيءٍ، وليسَ فوقَه شَيءٌ -أَلْبَتَّة-.

الثَّامِن: أنَّهُ قادِرٌ علىٰ كُلِّ شيءٍ؛ فلا يُعجِزُهُ شَيءٌ يُريدُهُ؛ بَل هو الفَعَّالُ لِمَا يُريدُ.

---

(١) أيْ: مُنفَصِل.

قال الإمامُ ابنُ بَطَّة في «الإبانة» (٧/ ١٣٦) -تَحتَ (باب الإيمان بأنَّ اللهَ -عزَّ وجَلَّ- علىٰ عَرْشِهِ، بائنٌ مِن خَلْقِهِ، وعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ)-:

«وأَجْمَعَ المُسلِمُونَ -مِن الصَّحابَةِ والتَّابعِين، وجَمِيعِ أَهلِ العِلْمِ مِن المُؤمنِين- أنَّ اللهَ -تباركَ وتعالَىٰ- علىٰ عَرْشِهِ، فَوقَ سَماواتِهِ، بائِنٌ مِن خَلْقِهِ، وعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ.

لا يَأْبَىٰ ذلِكَ ولا يُنكِرُهُ إلَّا مَن انْتَحَلَ مَذاهِبَ الحُلُولِيَّةِ -وهُم قَوْمٌ زاغَت قُلُوبُهُم، واسْتَهْوَتْهُم الشَّياطِينُ، فمَزَّقُوا مِن الدِّين-، وقالُوا: إنَّ اللهَ -ذاتَهُ- لا يَخْلُو مِنهُ مَكانٌ! فقالُوا: إنَّهُ في الأَرضِ كَما هُو في السَّماء! وهُو بذاتِهِ حالٌّ فِي جَمِيعِ الأَشياءِ! وقد أَكْذَبَهُم القُرآنُ، والسُّنَّةُ، وأَقاوِيلُ الصَّحابةِ والتَّابعِين -مِن عُلماءِ المُسلمِين-.

فقِيل لِلحُلُولِيَّةِ: لِمَ أَنْكَرْتُم أنْ يَكُونَ اللهُ -تَعالَىٰ- علىٰ العَرْشِ؛ وقد قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٩]؟!».

التَّاسِعُ: أَنَّهُ عَلَّامٌ بكُلِّ شيءٍ، يَعلَمُ السِّرَّ وأَخْفَىٰ، ويَعلَمُ ما كانَ، وما يَكُونُ، وما لَم يَكُن لَو كان كيفَ يَكُون.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، ولا ساكِنٍ، ولا مُتحرِّكٍ: إلَّا وهو يَعْلَمُهُ -علىٰ حقيقتِهِ-.

العاشِرُ: أَنَّهُ سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، يَسمعُ ضَجيجَ الأَصوات -باختِلافِ اللُّغات، علىٰ تَفَنُّنِ الحاجات-، ويَرَىٰ دَبِيبَ النَّملَةِ السَّوداء، علىٰ الصَّخرَةِ الصَّمَّاء، في اللَّيلَةِ الظَّلْماء.

قد أحاطَ سَمْعُهُ بِجَمِيعِ المَسمُوعات، وبَصَرُهُ بِجَمِيعِ المُبصَرَات، وعِلمُهُ بجَمِيعِ المَعلومات، وقُدْرَتُهُ بجَمِيعِ المَقدُورات.

ونَفَذَتْ مَشيئَتُهُ في جَمِيعِ البَرِيَّات، وعَمَّتْ رَحْمَتُهُ جَميعَ المَخلُوقات، ووَسِعَ كُرسِيُّهُ الأَرضَ والسَّماوات.

الحادِيَ عَشَر: أَنَّهُ الشَّاهِدُ الّذي لا يَغِيبُ، ولا يَسْتَخْلِفُ أَحَدًا علىٰ تَدْبِيرِ مُلكِهِ، ولا يَحتاجُ إلىٰ مَن يَرفعُ إليهِ حَوائجَ عِبادِهِ، أو يُعاوِنُهُ علَيها، أو يَستعطِفُهُ علَيهِم، ويَستَرحِمُه لهُم.

الثَّانِيَ عَشَر: أَنَّهُ الأَبَدِيُّ البَاقِي، الّذي لا يَضْمَحِلُّ، ولا يَتَلاشَىٰ، ولا يُعْدَمُ، ولا يَمُوتُ.

الثَّالِثَ عَشَر: أَنَّهُ المُتكلِّمُ، المُكَلِّمُ، الآمِرُ، النَّاهِي، قائلُ الحَقِّ، وهادِي السَّبِيلِ، ومُرسِلُ الرُّسُل، ومُنْزِلُ الكُتُبِ، والقائِمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ -مِن الخَيرِ والشَّرِّ-، ويُجازِي المُحسِنَ علىٰ إِحسانِهِ، والمُسِيءَ بإساءَتِهِ.

الرَّابِعَ عَشَر: أَنَّهُ الصَّادِقُ في وَعْدِه وخَبَرِهِ؛ فلا أَصدَقَ مِنهُ قِيلًا، ولا أَصدَقَ منهُ حَديثًا، وهو ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

الخامِسَ عَشَر: أَنَّهُ -تعالىٰ- صَمَدٌ[1] -بِجَمِيعِ مَعانِي الصَّمَدِيَّةِ-؛ فيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ ما يُناقِضُ صَمَدِيَّتَهُ.

السَّادِسَ عَشَر: أَنَّهُ قُدُّوسٌ سَلامٌ؛ فهو المُبَرَّأُ مِن كُلِّ عَيْبٍ، ونَقْصٍ، وآفَةٍ.

السَّابِعَ عَشَر: أَنَّهُ الكامِلُ الّذي لَهُ الكَمالُ المُطلَقُ -مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ-.

الثَّامِنَ عَشَر: أَنَّهُ العَدْلُ الّذِي لا يَجُورُ، ولا يَظْلِمُ، ولا يَخافُ عِبادُهُ منهُ ظُلْمًا.

... فهذا ممَّا اتَّفَقَتْ عليهِ جَميعُ الكُتُبِ والرُّسُلِ.

وهو مِن المُحكَمِ الّذي لا يَجُوزُ أنْ تَأتِيَ شَريعةٌ بخِلافِهِ، ولا يُخْبِرَ نَبِيٌّ بخِلافِهِ -أَصْلًا-».

○ (فائدةٌ): الاتِّباعُ الحَقُّ لِلحَقِّ:

قال العَلَّامَةُ عبدُ الحَمِيدِ بنُ بادِيس الجَزائِرِيُّ في «مَبادِئ الأُصول» (٤٩):

«**الاتِّباعُ**؛ هو: أَخْذُ قَولِ المُجتَهِدِ -مع مَعرِفَةِ دَلِيلِهِ، ومَعرِفَةِ كَيفِيَّةِ أَخذِهِ للحُكْمِ

---

(١) قال العَلَّامَةُ عبدُ الرَّحمنِ السَّعْدِيُّ في «بَهجَةِ قُلوبِ الأَبرار وقُرَّة عُيونِ الأَخيار في شَرْحِ جَوامِعِ الأَخبار» (ص٢٩١):

«ومِن تَحقيقِ أَحَدِيَّتِهِ، وتَفَرُّدِهِ بِها: أَنَّهُ (الصَّمَد)؛ أي: الرَّبُّ الكامِل، والسيِّدُ العَظِيم، الّذِي لَمْ يَبْقَ صِفَةُ كَمالٍ إلَّا اتَّصَفَ بها، ووُصِفَ بِغايتِها وكَمالِها؛ بحيثُ لا تُحِيطُ الخَلائقُ بِبَعضِ تِلكَ الصِّفاتِ بقُلُوبِهِم، ولا تُعَبِّرُ عنها أَلْسِنَتُهُم».

مِن ذَلِكَ الدَّلِيل -حَسَبَ[1] القَواعِدِ المُتقدِّمَةِ-.

وأَهْلُهُ؛ هُم: المُتعاطُونَ لِلعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ واللِّسانِيَّةِ، الّذِين حَصَلَت لَهُم مَلَكَةٌ صَحيحةٌ فِيهِما؛ فيُمْكِنُهُم -عندَ اخْتِلافِ المُجتهِدِين-: مَعرِفَةُ مَراتِبِ الأَقوالِ- في القُوَّةِ والضَّعْفِ-، واخْتِيارُ ما يَتَرَجَّحُ منها، واسْتِثمارُ ما فِي الآياتِ والأحادِيثِ مِن أنْواعِ المَعارِفِ المُفِيدَةِ في إنارَةِ العُقُولِ، وتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وتَقويمِ الأَعمالِ.

ولِهذا؛ كان حَقًّا علىٰ المُعلِّمِين والمُتعلِّمِين -للعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ واللِّسانِيَّةِ- أنْ يَجْرُوا -في تَعْلِيمِهِم وتَعَلُّمِهِم- علىٰ ما يُوصِلُ إلىٰ هذه الرُّتْبَةِ- علىٰ الكَمالِ-».

وقال -رَحِمَهُ اللَّهُ- كما في «الآثارِ» (١/ ٢٥٢) -لَهُ-:

«لا نَجاةَ لِلنَّاسِ مِن هذا التِّيهِ -الّذِي نَحْنُ فيهِ، والعَذابِ المُنَوِّعِ الَّذِي نَذُوقُهُ ونُقاسِيه- إلَّا:

بالرُّجُوعِ إلىٰ القُرآنِ -إلىٰ عِلْمِهِ، وهَدْيِهِ- في بِناءِ العَقائِدِ، والأَحكامِ، والآدابِ -عليهِ-، والتَّفَقُّهِ فيهِ، والسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ شَرْحُهُ وبَيانُهُ.

والاستِعانَةِ علىٰ ذلِكَ بِإِخْلاصِ القَصْدِ، وصِحَّةِ الفَهْمِ.

والاعْتِضادِ بأَنظارِ العُلماءِ الرَّاسِخِين، والاهْتِداءِ بِهَدْيِهِم في الفَهْمِ عن رَبِّ العالَمِين».

وقال الإمامُ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «إعلام المُوقِّعِين» (١/ ١٧٤) -مُفسِّرًا

---

(١) انظُر -للفائدة- حَول ضَبط (حرف السِّين) -تَسكِينًا، أو تَحريكًا- ومعنىٰ كُلٍّ-: «إسفار الفَصيح» (٢/ ٧٤١) -لِأبي سَهْل الهَرَوِيِّ-.

قولَ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]-:

«فَنَفَىٰ الإيمانَ حَتَّىٰ يُوجَدَ تَحكِيمُهُ -وَحدَهُ-، وهُو: تَحكِيمُهُ -في حالِ حَياتِهِ-، وتَحكيمُ سُنَّتِهِ -فقط- بَعْدَ وَفاتِهِ-.

وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرات:١]؛ أي: لا تَقُولُوا حتَّىٰ يَقُولَ.

وقال -أيضًا-رَحِمَهُ اللهُ- فيهِ- (٤/ ١٨٨):

«كان السَّلَفُ الطَّيِّبُ يَشتدُّ نَكِيرُهُم وغَضَبُهُم علىٰ مَن عارَضَ حَديثَ رَسُولِ الله ﷺ بِرَأْيٍ، أو قِياسٍ، أو استِحسانٍ، أو قَولِ أَحَدٍ مِن النَّاسِ -كائِنًا مَن كَان-.

ويَهجُرُونَ[1] فاعِلَ ذلِكَ، ويُنكِرُونَ علىٰ مَن يَضرِبُ لَهُ الأَمثالَ، ولا يُسَوِّغُونَ غَيْرَ الانْقِيادِ لَهُ، والتَّسلِيمِ، والتَّلَقِّي بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ.

ولا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِم التَّوَقُّفُ في قَبُولِهِ حتَىٰ يَشهَدَ لَهُ عَمَلٌ! أَو قِياسٌ! أو يُوافِقَ قَولَ فُلانٍ وفُلانٍ!!

بَل كانُوا عامِلِينَ بِقَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وبِقَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

(١) ولِلهَجْرِ أحكامٌ دَقيقةٌ؛ مبنيٌّ كثيرٌ مِنها علىٰ أُصول تَرجيح المَصالح والمَفاسد.
وانظُر «القَول البَدِيع في مسائلِ الهَجْرِ والتَّبدِيع» -لِفضِيلةِ الأخِ الدُّكتور الشَّيخِ إبراهيمَ الرُّحَيْلِيِّ -حفظَهُ اللهُ-.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وبِقَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٣] -وأمثالِها-.

فَدُفِعْنَا إلىٰ زَمانٍ إذَا قِيلَ لِأَحَدِهِم: «ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ كذَا وكذا»، يَقُولُ: مَن قالَ بِهَذا؟!

ويَجْعَلُ هذا دَفْعًا في صَدْرِ الحَدِيثِ!

أو يَجعلُ جَهْلَهُ بالقائِلِ [بِهِ] حُجَّةً لَهُ في مُخالَفَتِهِ! وتَرْكِ العَمَلِ بِهِ!

ولَوْ نَصَحَ نَفْسَهُ: لَعَلِمَ أنَّ هذا الكَلامَ مِن أَعظَمِ الباطِلِ، وأنَّهُ لا يَحِلُّ لَهُ دَفْعُ سُنَنِ رَسُولِ الله ﷺ بِمِثْلِ هذا الجَهْل..».

وقال الإمامُ ابنُ عَبدِ البَرِّ في «جامِعِ بَيانِ العِلْمِ وفَضْلِه» (٢/ ٧٨٧):

«التَّقليدُ -عندَ العُلماءِ- غَيرُ الاتِّباعِ؛ لأنَّ الاتِّباعَ؛ هو: تَتَبُّعُ القائِلِ علىٰ ما بانَ لَكَ مِن فَضْلِ قَولِهِ، وصِحَّةِ مَذهبِهِ.

والتَّقليدُ: أنْ تَقُولَ بِقَولِهِ، وأنتَ لا تَعرِفُ وَجْهَ القَولِ، ولا مَعناهُ! وتَأْبَىٰ مَن سِواه!

أو أنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَؤُهُ، فتَتَّبِعَهُ مَهابَةَ خِلافِهِ -وأنْتَ قد بانَ لَكَ فَسادُ قَولِهِ-!

وهذا مُحَرَّمٌ القَولُ بِهِ في دِينِ اللهِ -سُبحانَهُ وتَعالَىٰ-».

وقال شيخُنا العَلَّامَةُ الألبانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «التَّوَسُّل؛ أَنواعُه وأحكامُه» (٧٨):

«كُلُّ مُخلِصٍ مُنصِفٍ يَعلَمُ -عِلمَ اليَقِينِ-بأنَّنَا -والحمدُ للهِ- مِن أَشَدِّ النَّاسِ

حُبًّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ومِن أَعرَفِهِم بِقَدْرِهِ وحَقِّه، وفَضْلِه ﷺ.

وبِأَنَّهُ أَفضَلُ النَبِيِّين، وسيِّدُ المُرسَلِين، وخاتَمُهم، وخَيْرُهُم، وصاحبُ اللِّواءِ المَحمُود، والحَوضِ المَورُود، والشَّفاعَةِ العُظمَىٰ، والوَسِيلة، والفَضِيلَة، والمُعجِزات الباهِرات.

وبِأَنَّ اللهَ -تعالىٰ- نَسَخَ بِدِينِهِ كُلَّ دِينٍ، وأَنزَلَ عَلَيهِ سَبْعًا مِن المَثانِي، والقُرآنَ العَظِيم، وجَعَلَ أُمَّتَهُ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠].

... إِلَىٰ آخِرِ ما هُنالِك مِن فَضائلِهِ ﷺ ومَناقِبِه، الّتي تُبَيِّنُ قَدْرَهُ العَظِيمَ، وجاهَهُ المُنِيفَ -صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ- تَسليمًا كَثِيرًا-.

أَقُولُ: إنَّنا -والحمدُ لله- مِن أوَّلِ النَّاسِ اعتِرافًا بذلِك -كُلِّه-، ولعلَّ مَنزِلَتَهُ ﷺ -عندَنا- مَحفُوظَةٌ أكثرَ بِكَثِيرٍ ممَّا هي مَحفُوظَةٌ لَدَىٰ الآخَرِين، الّذِين يَدَّعُونَ مَحَبَّتَهُ، ويَتظاهَرُونَ بِمعرِفَةِ قَدْرِه؛ لأنَّ العِبرةَ في ذلِك -كُلِّه- إنَّما هي في الاتِّباع لَهُ ﷺ، وامْتِثالِ أَوامِرِهِ، واجْتِنابِ نَواهِيه؛ كما قالَ -سُبحانَهُ وتعالىٰ-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١].

ونحنُ -بِفَضْلِ اللهِ- مِن أَحرَصِ النَّاسِ علىٰ طاعَةِ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، واتِّباعِ نَبِيِّهِ ﷺ.

وهُما أَصدَقُ الأدِلَّةِ علىٰ المَوَدَّةِ، والمَحَبَّةِ الخالِصَةِ».

-٢٣-

وإنَّـــهُ عَـــزَّ وجَـــلّ كَلَّـمَ مُوسَىٰ ذَا الوَجَـلْ

□ المعنَىٰ الإجمالِيّ:

أنَّ اللهَ -سُبحانَهُ وتعالَىٰ- تكَلَّمَ بِكَلامٍ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وكَمالِهِ.

وبِهِ كَلَّمَ مُوسَىٰ الكَلِيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ حتَّىٰ أصابَهُ الخَوفُ عليه السلام، فطَمْأَنَهُ رَبُّهُ -تعالىٰ-.

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (**الوَجَل**)؛ هو: الخَوفُ[1].

وكَوْنُ مُوسَىٰ (ذا الوَجَل) عليه السلام؛ إشارةٌ إلىٰ قولِ اللهِ -تعالىٰ-:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ[2] وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمُوسَىٰٓ

(١) وَفَرَّقَ بعضُ العُلماءِ بَيْنَ (الخَوفِ)، و(الوَجَلِ) -كما في كتابِ «الفُرُوق» (ص٢٤٣) -للعسكَرِيِّ-.

(٢) «قالَ أهلُ التَّفسير: لَم يَكُن ما رَآهُ نَارًا، بَل كانَ نُورًا، وإنَّما سمَّاهُ: (نارًا)؛ لأنَّ النَّارَ لا تَخْلُو مِن النُّور؛ ولأنَّهُ كان في ظَنِّ مُوسَىٰ أنَّهُ نار.
وأكثرُ المُفسِّرين علىٰ أنَّه: (نُور الرَّبّ)..».
قالَهُ السَّمعانِيُّ في «تفسيرِه» (٤/ ٧٨).

إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[النمل:٧-١٠].

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

لَيْـثُ الـضِّرابِ ولَكِـنْ مِـن ضَـرائِبِه ... دَفْعُ المَخُوفِ وأَمْنُ الخائِفِ الوَجِلِ[1]

○ **(فائدةٌ): كَلامُ اللهِ -تعالىٰ-:**

١- قال العَلَّامَةُ مُحمَّدٌ الأَمِينُ الشِّنقِيطِيُّ في «العَذْب النَّمِير» (٢/ ٥٦٨):

«وَصَفَ اللهُ -تعالىٰ- نَفْسَهُ بأَنَّهُ مُتكَلِّمٌ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، و: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، و: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦].

ووَصَفَ بَعضَ خَلْقِهِ بالكَلام، فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤]، وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾[يس:٦٥].

ولا شَكَّ أنَّ للهِ كَلامًا لائِقًا بكَمالِهِ وجَلَالِه، ولِلمَخلُوقِين كَلامٌ مُناسِبٌ لِحالِهِم، وعَجْزِهِم، وفَنائِهِم، وافْتِقارِهِم.

وبَيْنَ كَلامِ الخالِقِ والمَخلُوقِ مِن المُنافاةِ كَما بَيْنَ ذاتِ الخالِقِ والمَخلُوقِ.

ولا شَكَّ أنَّ ما وُصِفَ بِهِ اللهُ -مِن هذه الصِّفاتِ- مُخالِفٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ

(١) «خريدة القَصْر» (١/ ٩٣ -قِسم شُعراء المَغرب والأندلُس) -للعِمادِ الأَصفهانِيِّ-.

المَخلُوق؛ كمُخالَفَةِ ذاتِ اللهِ لِذاتِ المَخلُوقِ؛ فلا مُناسَبَةَ بَيْنَ الذَّاتِ والذَّات، ولا بَيْنَ الصِّفَةِ والصِّفَة:

فاللهُ حَقٌّ، وصِفاتُهُ حَقٌّ، والمَخلُوقُونَ حَقٌّ، وصِفاتُهُم حَقٌّ؛ إلَّا أنَّ صِفَةَ كُلٍّ بحَسَبِهِ؛ فصِفَةُ اللهِ بالِغَةٌ مِن الكَمالِ والتَّنزِيهِ ما تتَعاظَمُ أنْ تُشبِهَهُ صِفاتُ المَخلُوقِين؛ كما أنَّ ذاتَ الخالِقِ تتَعاظَمُ أنْ تُشبِهَ ذَواتَ المَخلُوقِين».

٢- قالَ الكَرَجِيُّ[١] في «النُّكَتِ الدَّالَّةِ علىٰ البَيان» (١/ ٢٨٠): قولُهُ: «﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]: «حُجَّةٌ علىٰ الجَهمِيَّةِ، وهِي مِن كِبارِ الحُجَجِ عليهِم.

ويَحتجُّونَ بأنَّ (الكَلامَ) -مِنهُ-سُبحانَهُ- علىٰ المَجازِ!!

والمَجَازُ لا يُؤكَّدُ بالمَصدَرِ، وقد أَكَّدَهُ -جلَّ وعَلَا- كما تَرَىٰ-، فجاءَ بِـ(التَّكلِيم).

وقد بَلَغَنِي عن بَعضِ المُتَحَذْلِقِين مِن أُستاذِيهِم: أنَّهُ لَمَّا نَظَرَ إلىٰ ما يُلزِمُهُ في هذه الآيةِ -مِن تأكيدِ المَصدَرِ[٢]- تَطَرَّقَ إلىٰ تَأوِيلٍ أَقبحَ مِن المَجازِ! فقال: معنَىٰ (كَلَّمَهُ): أَوجَدَ كَلامًا سَمِعَهُ!!

فقُبْحًا لِقَومٍ يَدَّعُون الفَلْسَفَةَ في دَقِيق العويصِ، ثُمَّ يَنسلِخُونَ منهُ انْسِلاخَ الشَّعْرَةِ مِن العَجِينِ!!

---

(١) «بفتحتَيْن». قالَه الحافظُ ابنُ حَجَر في «تبصير المُنتبِه» (٣/ ١٢٠٩).

(٢) انظُر «نفائس الأصول» (٤/ ١٨٩٩) -لِلقَرَافِيِّ-.

أَلَيْسَ مِن أُصولِهِم -وَيْحَهُم-: أنْ لا يَقبَلُوا شيئًا يَدفعُهُ العَقلُ؟!

فأيُّ عَقلٍ يَقبَلُ أنْ يُسمَّىٰ الكَلامُ -كَلامًا- قَبْلَ أنْ يَتكَلَّمَ بِهِ؟!

فلَو أنَّهُم -حَيثُ خالَفُوا القُرآنَ- ثَبَتُوا علىٰ المَعقُولِ؛ كانَ أَقَلَّ لِفَضِيحتِهِم -عندَ أنفُسِهِم-..

وهُم -مع خِلافِهِم القُرآنَ، وخُرُوجِهِم مِن العُقُولِ -قد غَلِطُوا في اللُّغَةِ أَفْحَشَ غَلَطٍ -فيما زَعَمُوا أنَّ (كَلَّمَ اللهُ): أَوجَدَهُ كَلامًا خَلَقَهُ لهُ! لا كَلامًا تَكَلَّمَ بِهِ-!

إذْ لَو كان كَذلِكَ؛ لَكَان: (وأكلم اللهُ موسَىٰ إكلامًا)؛ كما قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس:٢١]؛ أي: جَعَلَ لهُ قَبْرًا، فيَكُونُ (أكلمَهُ): جَعَلَ لَهُ كَلامًا!»...

... ولَقَد بَلَغَنِي عن بَعضِ سُفهائِهِم أنَّهُ ذَهَبَ بِـ(التَّكليمِ) إلىٰ (الكَلْم) -مِن الجراحة-!

ولَمْ يَحْفِلْ بِتحوِيلِ المَدحِ ذَمًّا؛ حِرْصًا علىٰ تَصحِيحِ مَقالَتِهِ في نَفْيِ الكَلامِ عن خالِقِهِ! وتحقيقِ الجَرْحِ منهُ علىٰ نَبِيِّهِ ﷺ!!

٣- وَنَقَلَ السَّمْعانِيُّ في «تَفسِيرِهِ» (١/ ٥٠٣) عن الفَرَّاءِ، وثَعْلَبٍ، قالَا: «إنَّ العَرَبَ تُسَمِّي ما يُوصَلُ إلىٰ الإنسانِ: (كَلامًا) -بأيِّ طَرِيقٍ وَصَلَ إلَيْهِ-، ولكِنْ؛ لا تُحَقِّقُهُ بالمَصْدَرِ؛ فإذا حُقِّقَ الكَلامُ بالمَصدَرِ [تَكليمًا]، لَم تَكُن إلَّا حقيقَةَ الكَلامِ...

فلمَّا حَقَّقَ اللهُ كَلامَهُ مُوسَىٰ بالتَّكلِيمِ: عُرِفَ أنَّهُ حَقيقةُ الكَلامِ مِن غَيْرِ واسِطَةٍ...

فإنْ قالَ قائِلٌ: بِأيِّ شَيءٍ عَرَفَ مُوسَىٰ أنَّهُ كَلامُ اللهِ؟

قِيلَ: بِتَعرِيفِ اللهِ -تعالىٰ- إيَّاهُ، وإنزالِ آيَةٍ عَرَفَ مُوسَىٰ -بِتِلْكَ الآيةِ- أنَّهُ كَلامُ اللهِ -تعالىٰ-.

وهذا مَذهَبُ أَهلِ السُّنَّةِ: أَنَّهُ سَمِعَ كَلامَ اللهِ -حَقيقةً- بِلا كَيْفٍ-.

وقالَ وائِلُ بنُ داوُد: مَعنَىٰ قولِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]؛ أي: مِرارًا[1] -كَلَامًا بَعْدَ كَلامٍ-».

ولَوْلَا ما أَحبَبْتُ مِن وُقُوفِ أَهلِ السَّلامَةِ -مِن أَهلِ نِحْلَتِنا[2] -علىٰ فَضائِحِهِم - لِيَتَعوَّذُوا باللهِ مِنها-: لَصُنْتُ هذا الكِتابَ عن إِيرادِ هذه الحَماقاتِ فِيهِ».

(١) «السُّنَّة» (٥٤٦)، و(١١٧٦) -لعبدِ اللهِ بنِ الإمامِ أَحمدَ-.

(٢) أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، دُعاةِ مَنهجِ السَّلَف الصَّالح.

-٢٤-

لَمَّــا تَجَلَّــىٰ لِلْجَبَــلْ جَهْـرًا كَلامًـا مُـسْمَعِ

□ **الشَّرحُ الإجماليّ:**

لَمَّـا ظَهَـر اللهُ[١] -تعـالىٰ- لِلجَبَـلِ - «ظُهـورًا بِـلا كَيـف»[٢]- سَـمِعَ نبـيُّ اللهِ عليه السلام كَلامَ اللهِ -عزَّ وجَلَّ- المَسمُوعَ -الّذي جَهَرَ بِهِ- سماعًا حَقيقِيًّا -علىٰ ما يَليقُ بجَلالِ اللهِ -تعالىٰ- وكَمالِهِ-.

□ **التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ:**

* **(تَجَلَّىٰ)**: «ظَهَرَ نُورُهُ» -كما في «صَحيحِ البُخارِيّ» (٥/ ٥٩)-.

قال الماوَرْدِيُّ في «النُّكَت والعُيُون» (٢/ ٢٥٨): «مَأخُوذٌ مِن: (جِلاء العَرُوس) -إذَا ظَهَرَت-، ومِن: (جِلاء المِرْآة) -إذا أضاءَت-».

* **(مُسْمَع)**؛ أي: مَسمُوع.

ومِنـهُ: قَـولُ الله -تعـالىٰ-: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[النساء:٤٦]؛ أي: «مَسمُوع» -كما في «تَفسير عَبد الرَّزَّاق» (٥٩٤)-.

---

(١) «تَفسير السَّمعانِيّ» (٢/ ٢١٢).

(٢) «تَفسير النَّسَفِيّ» (١/ ٦٠٢).

○ **(فائدة) : تَجَلِّي اللهِ -تعالىٰ-:**

قالَ السُّيُوطِيُّ في «مُعْتَرَك الأَقران» (٢/ ١٠٠):

«أمَّا (تَجَلِّي الرَّبِّ لِلجَبَل)؛ فإنَّما كان ذلِكَ لِأجلِ مُوسَىٰ؛ لأنَّه سَأَلَ رُؤيتَهُ، فقالَ لَهُ: لا تُطِيقُ ذَلِكَ، ولكِنْ: سَأَتَجَلَّىٰ لِلجَبَل -الّذِي هو أَقوَىٰ منكَ وأَشَدُّ -؛ فإنِ استقرَّ، وأَطاقَ الصَّبْرَ لِرُؤيتِي ولِهَيْبَتِي: أَمْكَنَ أنْ تَرَىٰ أَنْتَ! وإنْ لَم يُطِقْ؛ فأَحْرَىٰ ألَّا تَرَىٰ أَنْتَ!!

فعَلَىٰ هذا: إنَّما جَعَلَ اللهُ الجَبَلَ مِثالًا لِمُوسَىٰ».

وقال الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ في «حادِي الأَرواح» (ص٢٨٧):

«قَولُهُ -سُبحانَهُ وتعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] : مِن أَبْيَنِ الأَدِلَّةِ علىٰ جَوازِ رُؤيتِهِ -تَبارَكَ وتَعالىٰ-؛ فإنَّهُ إذا جازَ أنْ يَتَجَلَّىٰ للجَبَلِ -الّذي هو جَمادٌ، لا ثَوابَ له، ولا عِقابَ عليه-؛ فكيفَ يَمتَنِعُ أنْ يَتَجَلَّىٰ لِأنبيائِهِ، ورُسُلِه، وأَولِيائِه -في دارِ كَرامَتِهِم-، ويُرِيهِم نَفْسَهُ؟!

فأَعْلَمَ -سُبحانَهُ وتَعالَىٰ- مُوسَىٰ أنَّ الجَبَلَ إذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤيتِهِ -في هذه الدَّار-، فالبَشَرُ أَضْعَفُ...».

○ **(فائدةٌ) : كَلامُ اللهِ -سُبحانَهُ- بحَرْفٍ وصَوْتٍ:**

قال العَلَّامَةُ ابنُ شيخِ الحَزَّامِين[1] الواسِطِيُّ في «نَصيحةِ الإخوان» (ص٢٧):

---

(١) انظُر «تَوضيح المُشتبه» (٣/ ١٦٥) -لابنِ ناصِرِ الدِّين الدِّمَشقِيِّ-.

«وكذلِكَ لَهُ -سُبحانَهُ- صَوتٌ يَليقُ بِهِ -يُسمَعُ-.

ولا يَفتَقِرُ ذلِك الصَّوتُ المُقدَّسُ إلىٰ الحَلْقِ والحَنْجَرَةِ[1]؛ فكَلامُ اللهِ كَما يَليقُ بِهِ، وصَوتُهُ كَمَا يَليقُ بِهِ.

ولا نَنْفِي الحَرْفَ والصَّوتَ عن كَلامِهِ -سُبحانَهُ- لافْتِقارِهِما مِنَّا إلىٰ الجَوارِح واللَّهَواتِ!-؛ فإنَّهُما في جَنابِ الحَقِّ لا يَفْتَقِرَانِ إلىٰ ذَلِك.

وهذا يَنْشَرِحُ الصَّدْرُ لَهُ، ويَستَريحُ الإنسانُ مِن التَّعَسُّفِ..».

قُلْتُ:

وفي «صَحيحِ البُخارِيّ» (٩/ ١٤١) -مُعَلَّقًا-، وَوَصَلَهُ في «الأَدَب» (٩٧٠) -المُفرَد-، وفي كتاب «خَلْق أَفعال العِباد» (٤٦٣)، وابنُ أَبِي عاصِم في «السُّنَّة» (٥١٤)، والرُّويانِيّ في «مُسنَدِه» (١٤٩١)، والطَّبرانِيُّ في «المُعجَم الكَبِير» (١٣/ رقم ٣٣١)، والضِّياءُ المَقدِسِيُّ في «الأحادِيث المُختارَة» (٩/ ٢٦)، والحاكِمُ في «المُستدرَك» (٣٦٣٨) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ أُنَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -بِسَنَدٍ حَسَن-، قال: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**يَحشُرُ اللهُ العِبادَ** -أو: **النَّاس- عُراةً، غُرْلًا**[2]، **بُهْمًا**».

قُلْنا: ما (بُهْمًا)؟

قال: «**ليسَ معهُم شيءٌ، فيُنادِيهم بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَن بَعُدَ** -أَحسَبُهُ قال: -**كما يَسمَعُهُ مَن قَرُبَ**-: **أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ...**».

---

(١) انظُر -للفائدة-: «دُرّة الغوَّاص في أوهام الخَوَاصّ» (ص٢٨٠) -للحريريِّ-.

(٢) غيرَ مَختُونِين.

قُلْتُ:

وهـذا حَـدِيثٌ صَـحيحٌ صَـريحٌ في إِثبـاتِ كَـلامِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعـالىٰ- بِـصَوتٍ -كَما يَليقُ بِعَظَمَتِهِ وجَلالِهِ-.

وقد احْتجَّ بِهِ علىٰ هـذا المعنَىٰ إمـامُ أَهـلِ السُّنَّةِ والحَـدِيثِ الإمـامُ أَبُـو عبـدِ الله مُحمَّـدُ بـنُ إسـماعيلَ البُخـارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقـال -فِـي كِتابِـهِ «خَلْـق أَفعـال العِبـاد» (ص٩٢)-:

«وإِنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُنادِي بِصَوتٍ، يَسْمَعُهُ مَن بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَن قَرُبَ.

فلَيْسَ هذا لِغَيْرِ الله -جَلَّ ذِكْرُهُ-.

وفي هـذا دَليـلٌ أنَّ صَـوتَ اللهِ لا يُـشْبِهُهُ أَصـواتُ الخَلْـقِ؛ لأنَّ صَـوتَ اللهِ -جَـلَّ ذِكْرُهُ- يُسْمَعُ مِن بُعْدٍ كَمَا يُسْمَعُ مِن قُرْبٍ...»[1].

(١) وانظُر «سِلسلة الأحاديث الصَّحيحة» (٣٢٥٠) -لِشَيخِنَا الألبانِيِّ-، وبَوَّبَ علَيه: (الصَّوت الإلهِيّ، والإيمان به).

-٢٥-

أَصْــغَىٰ إِلَيْــهِ فَــوَعَىٰ   بِأُذْنِــــهِ مــــا سَـــمِعَا

◻ الشَّرحُ الإجماليّ:

وقَد سَمِعَ نَبيُّ اللهِ مُوسَىٰ عليه السلام كَلامَ اللهِ -تعالىٰ- بِأُذُنَيْهِ -باهْتِمامٍ بالِغٍ؛ حتَّىٰ وَعَىٰ وفَهِمَ ما سَمِعَهُ مِن رَبِّهِ -تعالىٰ-.

◻ التَّفصيلُ اللُّغَويّ:

* (**أَصْغَىٰ**)؛ قالَ الزَّبِيدِيُّ في «تاج العَرُوس» (٣٢/ ١٢٦):

«أَصْغَىٰ إِلَيْهِ بأُذْنِهِ: سَمِعَ».

ومِنهُ: قَولُ اللهِ -تَعالَىٰ- ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام:١١٣] (١).

وقال العَسكَرِيُّ في «الفُرُوق» (ص٢٨٤):

«الفَرْقُ بَيْنَ (السَّمْعِ) و(الإصغاءِ): أنَّ السَّمْعَ هو: إدراكُ المَسمُوعِ، والسَّمْعُ -أيضًا-: اسم الآلَةِ الّتِي يُسْمَعُ بها.

والإصغاءُ؛ هو: طَلَبُ إدراكِ المَسمُوعِ بإمالَةِ السَّمْعِ إليه؛ يُقالُ: صَغَا يَصغُو؛ إذا مالَ وأَصْغَىٰ لِغَيْرِه، وفي القُرآنِ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]؛ أي: مَالَت،

(١) قال ابنُ عَرَفَة في «تَفسيرِهِ» (٢/ ١٨٤): «هذا راجِعٌ إلىٰ استِماعِ الآيَةِ».

وصَغْوُكَ مع فُلانٍ؛ أي: مَيْلُكَ.

○ **(فائدةٌ) : في كَلامِ اللهِ -تعالىٰ- لِمُوسَىٰ عليه السلام :**

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّةَ في «مَجموع الفَتاوَىٰ» (٦/ ٥٣٢):

«ما أَخْبَرَ اللهُ بهِ في كِتابِهِ: مِن تَكليمِ مُوسَىٰ، وسَمْعِ مُوسَىٰ لِكَلامِ الله: يَدُلُّ علىٰ أنَّه كَلَّمَهُ بِصَوْتٍ؛ فإنَّهُ لا يُسْمَعُ إلَّا الصَّوتُ؛ وذلِكَ أنَّ اللهَ قال في كتابِهِ -عن مُوسىٰ-: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:١٣]، وقال في كتابِهِ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٤]:

فَفَرَّقَ بَيْنَ (إيحائِهِ) إلىٰ سائرِ النبيِّين، وبَيْنَ (تَكليمِهِ) لِمُوسَىٰ؛ كما فَرَّقَ -أيضًا- بَيْنَ النَّوعَين-في قَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]-؛ فَفَرَّقَ بَيْنَ (الإيحاءِ)، و(التَّكليمِ) مِن وَرَاءِ حِجابٍ.

فَلَو كانَ تَكليمُهُ لِمُوسَىٰ إلْهامًا أُلْهِمَهُ مُوسَىٰ -مِن غَيْرِ أنْ يَسْمَعَ صَوْتًا -لَم يَكُن فَرْقٌ بَيْنَ (الإيحاءِ) إلىٰ غَيْرِهِ، و(التَّكليم) لَهُ.

فلَّما فَرَّقَ القُرآنُ بَيْنَ هذا وهذا، وعُلِمَ -بإجماعِ الأُمَّةِ -ما اسْتَفاضَت بهِ السُّنَنُ عن النبيِّ ﷺ- مِن تَخصيصِ مُوسَىٰ بتَكليمِ اللهِ إيَّاهُ-: دَلَّ ذَلِكَ علىٰ أنَّ الّذي حَصَلَ لهُ ليسَ مِن جِنسِ الإلهامَاتِ، وما يُدرَكُ بالقُلوبِ؛ إنَّما هو كَلامٌ مَسمُوعٌ بالآذانِ.

ولا يُسمَعُ بِها إلَّا ما هُو صَوْتٌ».

وقال أَبُو نَصْر السِّجْزِيُّ في «الرِّسالة إلَىٰ أَهْل زَبِيد في الرَّدّ علىٰ مَن أَنْكَر الحَرْف والصَّوْت» (ص١٦٥):

«الله -تعالىٰ- قالَ لِمُوسَىٰ عليه السلام: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:١٣]، والاسْتِماعُ بَيْنَ الخَلْقِ لا يَقَعُ إلَّا إلَىٰ صَوْتٍ، وهو غَيرُ الإفهامِ؛ لأنَّ الفَهْمَ يَتأَخَّرُ عَن السَّمْعِ».

-٢٦-

ثُــمَّ أَجَــابَ مُــسْرِعَا جَــوَابَ ثَبْــتٍ أَرْوَعِ

❑ المعنَىٰ الإجماليّ:

أنَّ نَبِيَّ اللهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَجابَ لِرَبِّهِ -بَعْدَ سَمَاعِ كَلامِهِ، ووَعْيِهِ عنهُ جَوابَ صاحِبِ القَلْبِ الثَّابِتِ؛ كما قالَ -سُبحانَهُ- عنهُ-: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣].

قال أَبُو حَيَّان الأندَلُسِيُّ في «البَحْرِ المُحِيط» (٥/ ١٦٧):

«قالَ [مُوسَىٰ] ذاكَ علىٰ سَبِيلِ الإنابَةِ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-، والرُّجُوعِ إليهِ -عندَ ظُهورِ الآياتِ-، علىٰ ما جَرَتْ بِهِ عادَةُ المُؤمِنِ عندَ رُؤيةِ العَظائِمِ».

❑ التَّفصيلُ اللُّغويّ:

❋ **(أجابَ)**؛ قال العَسكريُّ في «الفُروق» (ص١٨٤): «(أجابَ)؛ معناهُ: فَعَلَ الإجابَةَ، و(اسْتَجابَ): طَلَبَ أنْ يَفعَلَ الإجابَةَ؛ لأنَّ أَصلَ الاسْتِفعالِ لِطَلَبِ الفِعلِ.

وصَلَحَ (اسْتَجابَ)، بمعنىٰ (أَجَاب)؛ لأنَّ المعنَىٰ فيها يَؤُولُ إلىٰ شيءٍ واحِدٍ، وذلِكَ أنَّ (اسْتَجابَ) طَلَبُ (الإجابةَ) بِقَصْدِهِ إليها».

❋ **(أَرْوَعِ)**؛ قال الحِمْيَرِيُّ في «شَمسِ العُلُوم» (٤/ ٢٦٨٤): «الحَدِيد[1] الفُؤاد».

---

(١) القَوِيّ.

○ **(فائدة): في الاستِجابَةِ للهِ -تعالىٰ-، ولِرَسُولِه ﷺ:**

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم في «إغاثَة اللَّهفان» (١/ ٣٢):

«قالَ -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]؛ فَأَخْبَرَ -سُبحانَهُ وتعالىٰ- أنَّ حَيَاتَنا إنَّما هِيَ بما يَدعُونا إليهِ الرَّسُولُ مِن العِلْمِ والإيمانِ؛ فعُلِمَ أنَّ مَوتَ القَلْبِ وهَلاكَهُ بِفَقْدِ ذلِكَ.

وشَبَّهَ -سُبحانَهُ- مَن لا يَستجِيبُ لِرَسُولِهِ بِأَصحابِ القُبُورِ[1].

وهذا مِن أَحسَنِ التَّشبِيهِ؛ فإنَّ أَبدانَهُم قُبُورٌ لِقُلُوبِهم، فقد ماتَت قُلوبُهُم، وقُبِرَت في أَبدانِهِم؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

ولَقَد أَحْسَنَ القائِلُ:

وفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسامُهُم قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُم في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِم ... وَلَيْسَ لَهُم حَتَّىٰ النُّشُورِ نُشُورُ»[2].

(١) كما في قَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[الأنعام: ٣٦].

(٢) وانظُر «بَدائِع التَّفسِير» (٢/ ٣٣١) -الجامِع لِتَفسِير ابنِ القَيِّم-.

-٢٧، ٢٨-

ولا تُوافِقْ مَن غَوَىٰ وقُلْ بِأنَّ ذَا القُوَىٰ
حَقًّا علىٰ العَرْشِ اسْتَوَىٰ كَمَا أَرادَ فَاسْمَعِ

◻ الشَّرْحُ الإجمالِيّ:

لا تُوافِقْ -أيُّها المُوَحِّدُ- قَوْلَ مَن انْحَرَفَ عن الصِّراطِ السَّوِيِّ؛ بِصَرْفِهِ أَلفاظَ بَعضِ الآياتِ الكَريمَةِ عن مَعناهَا الحَقِّ الصَّوابِ.

وأَثْبِتْ للهِ -تعالىٰ- ما أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ -سُبحانَهُ- مِن صِفَةِ الاسْتِواءِ علىٰ العَرْشِ -وهو (العُلُوُّ والارْتِفاعُ)[1]- كما أَرَادَ اللهُ- تَعالىٰ-؛ مُسْتَمِعًا لِحُكْمِه، مُستَجِيبًا لِأَمْرِهِ وقَولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: «فِي سِتَّةِ مَواضِعَ»[2].

كما نَصَّ القُرآنُ الكَرِيمُ -أيضًا- في قَولِهِ -سُبحانَهُ-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

◻ التَّفصيلُ اللُّغوِيّ:

قال السَّمْعانِيُّ في «تَفسِيرِهِ» (٢/ ٢٨٤) -ما مُلَخَّصُهُ-:

* «(غَوَىٰ): خَرَجَ عن الرُّشْدِ في أَمْرِ دِينِهِ ودُنياه، والغَيُّ: ضِدُّ الرُّشْدِ.

قال الشَّاعِرُ:

---

(١) «صَحيح البُخارِيّ» (٩/ ١٢٤).

(٢) «الفَتْوَىٰ الحَمَوِيَّة الكُبْرَىٰ» (ص٢٠٢).

ومَن يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ علىٰ الغَيِّ لائِمًا»[1].

* (**اسْتَوَىٰ**): قال الشيخُ صالحٌ الفَوْزان في «شَرحِ ثلاثةِ الأُصُولِ» (ص١١٣):

«معنَىٰ (**اسْتَوَىٰ**): ارْتَفَعَ وعَلَا.

و(**العَرْشُ**)؛ هو: سَقْفُ المَخلُوقاتِ.

وهو -في اللُّغَةِ-: السَّرِيرُ.

وهو سَرِيرٌ ذُو قَوائمَ، تَحمِلُهُ المَلائِكَةُ، وهو أَعظَمُ المَخلُوقاتِ، وأَعْلَىٰ المَخلُوقاتِ.

(**الاسْتِواءُ**): صِفَةٌ مِن صِفاتِ اللهِ الفِعلِيَّةِ -كما يَليقُ بِجَلالِهِ- سُبحانَهُ وتعالىٰ-، ليسَ كاسْتِواءِ المَخلُوقِ علىٰ المَخلُوقِ.

وليسَ بحاجَةٍ إلىٰ العَرْشِ؛ لأَنَّهُ هُو الَّذِي يُمسِكُ العَرْشَ -وغَيْرَهُ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[فاطر:٤١].

فالعَرْشُ مُحتاجٌ إلىٰ اللهِ -عزَّ وجَلَّ- لأَنَّهُ مَخلُوقٌ، واللهُ غَنِيٌّ عن العَرْشِ -وغَيْرِهِ-، لكنَّهُ اسْتَوَىٰ عليهِ لِحِكْمَةٍ يَعلَمُها -سُبحانَهُ وتعالَىٰ-».

○ (**فائدةٌ**) : **اسْتِواءُ اللهِ علىٰ عَرْشِهِ:**

قال العَلَّامَةُ محمدٌ الأَمِينُ الشّنقِيطِيُّ في «مَنهَج دِراسات لآياتِ الأَسماءِ

(١) «نشوة الطرَب في تَاريخ جاهِلِيَّة العَرَب» (١/ ٤٥٨) -لابنِ سَعِيدٍ الأندَلُسِيِّ-، و«المُفضَّلِيَّات» (ص٢٤٧) -للمُفضَّل الضَّبِّيِّ-.

والصِّفات» (ص١١٩ - «مُحاضَراتِه»):

«مَن كانَ علىٰ مُعتقَدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ: إذا سَمِعَ -مَثَلًا- قَولَهُ -تعالىٰ-: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]: امْتَلَأَ قَلْبُهُ مِن الإجلالِ، والتَّعظيمِ، والإكبارِ لِصِفَةِ رَبِّ العالَمِين الّتي مَدَحَ بِها نَفْسَه، وأَثْنَىٰ عليهِ بها؛ فجَزَمَ بأنَّ تِلكَ الصِّفَةَ -الّتي تَمَدَّحَ بها خالقُ السَّماواتِ والأرضِ- بالِغَةٌ مِن غايَاتِ الكَمالِ والجَلالِ ما يَقْطَعُ عَلائقَ أَوهامِ المُشابَهَةِ بَيْنَها وبَيْنَ صِفاتِ الخَلْقِ؛ لأنَّ الصِّفَةَ لا يُمكِنُ أنْ تُشْبِهَ صانِعَها في ذاتِهِ، ولا في شَيْءٍ مِن صفاتِه.

وبإجلالِ تِلكَ الصِّفَةِ، وتَعظيمِها، وحَمْلِها علىٰ أَشْرَفِ المَعانِي اللَّائقَةِ بِكَمالِ مَن وَصَفَ بِها نَفْسَهُ -وجَلالِه-: يَسْهُلُ علىٰ ذلِكَ المُؤمِنِ السَّلَفِيِّ أنْ يُؤمِنَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، ويُثْبِتَها للهِ كما أَثْبَتَها اللهُ لِنَفْسِهِ -علىٰ أَساسِ التَّنزِيهِ-، فيَكُونَ:

أَوَّلًا: مُنزِّهًا، سالِمًا مِن أقذارِ التَّشبِيهِ.

وثانِيًا: مُؤمِنًا بالصِّفاتِ، مُصَدِّقًا بها علىٰ أساسِ التَّنزِيهِ.

فيكُونَ سالِمًا مِن أقذارِ التَّعطيل!

فيَجمعُ التَّنزيهَ، والإيمانَ بالصِّفاتِ؛ علىٰ نَحْو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فمُعْتَقَدُهُ طَريقُ سَلامَةٍ مُحقَّقَةٍ؛ لأنَّهُ مَبنِيٌّ علىٰ ما تضَمَّنَتْهُ آيَةُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ..﴾ مِن التَّنزِيهِ، والإيمانِ بالصِّفاتِ؛ فهُو:

- تَنزِيهٌ مِن غَيْرِ تَعطيلٍ.

- وإيمانٌ مِن غَيْرِ تَشبيهٍ، ولا تَمثِيلٍ.

وكُلُّ هذا طَريقُ سَلامَةٍ مُحقَّقَةٍ، وعَمَلٌ بالقُرآنِ.

فهذا هو مَذهبُ السَّلَفِ.

وأمَّا ما يُسَمُّونَهُ: (مَذهَبَ الخَلَف): فالحامِلُ لَهُم فيه علىٰ نَفْيِ الصِّفاتِ وتأوِيلِها هو: قَصْدُهُم تَنزيهَ اللهِ عن مُشابَهَةِ الخَلْقِ.

ولكنَّهُم في مُحاوَلَتِهِم لِهذا التَّنزِيهِ وَقَعُوا في ثلاثِ بَلايَا -ليسَت واحدَةٌ مِنها: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾-:

الأُولَىٰ -مِن هذه البَلايَا الثَّلاثِ-: أنَّهُم إذا سَمِعُوا قَولَ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]: زَعَمُوا أنَّ ظاهِرَ (الاسْتِواءِ) -في الآيةِ- هُو مُشابَهَةُ اسْتِواءِ المَخلُوقِين!

فتَهَجَّمُوا علىٰ ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ في مُحْكَمِ كِتابِهِ، وادَّعَوْا عليه أنَّ ظاهِرَهُ -المُتبادَرَ منهُ- هو التَّشبيهُ بالمَخلُوقِين في استِوائِهِم!

فكأنَّهُم يَقُولُونَ للهِ: هذا الاسْتِواءُ الَّذِي أَثْنَيْتَ بِهِ علىٰ نَفْسِكَ -في سَبْعِ آياتٍ مِن كِتابِكَ- ظاهِرُهُ قَذِرٌ نَجِسٌ! لا يَلِيقُ بِكَ! لأنَّهُ تَشبيهٌ بالمَخْلُوقِين!

ولا شَيْءَ مِن الكَلامِ أَقذَرُ وأَنجَسُ مِن تَشبِيهِ الخالِقِ بِخَلْقِهِ!!

﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾..

وهذه هِي **البَلِيَّةُ الأُولَىٰ** -الّتي هِيَ: التَّهَجُّمُ علىٰ نُصُوصِ الوَحْيِ، وادِّعاءُ أنَّ ظاهِرَها تَشبيهُ الخالِقِ بالمَخلُوقِ-.

وناهِيكَ بِها بَلِيَّةً.

ثُمَّ لَمَّا تَقَرَّرَت هذه البَلِيَّةُ في أَذهانِهِم، وتَقَذَّرَت قُلُوبُهُم بِأقذارِ التَّشبِيهِ: اضْطَرُّوا -بِسَبَبِهَا!- إلىٰ نَفْيِ صِفَةِ الاسْتِواءِ؛ فِرارًا مِن مُشابَهَةِ الخَلْقِ الّتي افْتَرَوْها علىٰ نُصوصِ القُرآنِ أنَّها هِي ظاهِرُها!

ونَفْيُ الصِّفَةِ الّتي أَثْنَىٰ اللهُ بِها علىٰ نَفْسِهِ -مِن غَيْرِ اسْتِنادٍ إلىٰ كِتابٍ أو سُنَّةٍ - هو:

البَلِيَّةُ الثَّانِيَةُ -الّتي وَقَعُوا فيها-، فحَمَلُوا نُصُوصَ القُرآنِ -أوَّلًا- علىٰ مَعانٍ غيرِ لائِقَةٍ باللهِ، ثُمَّ نَفَوْها مِن أَصلِها؛ فِرارًا مِن المَحذُورِ الّذِي زَعَمُوا-:

والبَلِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أنَّهُم يُفسِّرُونَ الصِّفَةَ الّتي نَفَوْها بِصِفَةٍ أُخرَىٰ -مِن تِلقاءِ أَنفُسِهِم-، مِن غَيرِ استِنادٍ إلىٰ وَحْيٍ!-؛ مع أنَّ الصِّفَةَ الّتي فسَّرَها بِها هي بالِغَةٌ غايَةَ التَّشبِيهِ بالمَخلُوقِين.

فيَقُولُون: ﴿**ٱسْتَوَىٰٓ**﴾: ظاهِرُهُ مُشابَهَةُ اسْتِواءِ المَخلُوقِين؛ فمَعنَىٰ ﴿**ٱسْتَوَىٰٓ**﴾: «اسْتَولَىٰ»!

ويَستدِلُّونَ بِقَولِ الرَّاجِزِ -في إطلاقِ (الاسْتِواءِ) علىٰ (الاستِيلاء)-:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودَمٍ مِهْرَاقِ[1]

ولا يَدْرُونَ أنَّهُم شَبَّهُوا اسْتِيلاءَ اللهِ علىٰ عَرْشِهِ -الَّذِي زَعَمُوهُ- باسْتِيلاءِ (بِشْرِ ابنِ مَروانَ) علىٰ العِراقِ!

(١) انظُر ما سيأتِي -قريبًا- مِن كلامِ الإمام ابنِ كَثير -رَحِمَهُ اللهُ-.

فأيُّ تَشبيهٍ بِصِفاتِ المَخلُوقِين أَكبَرُ مِن هذا؟!

وهل يَجُوزُ لِمُسلِمٍ أنْ يُشَبِّهَ صِفَةَ اللهِ -الّتي هي الاستِيلاءُ المَزْعُومُ!- بِصِفَةِ (بِشْرٍ) -الّتي هي استِيلاؤُهُ علىٰ العِراقِ-؟!

وصِفَةُ (الاستِيلاءِ) مِن أَوغَلِ الصِّفاتِ في التَّشبِيهِ بِصِفاتِ المَخلُوقِين؛ لأنَّ فيها التَّشبِيهَ باسْتِيلاءِ مالِكِ الحِمارِ علىٰ حِمارِهِ! ومالِكِ الشَّاةِ علىٰ شاتِهِ!!

ويَدخُلُ فيها كُلُّ مَخلُوقٍ قَهَرَ مَخلُوقًا، واسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ!

وفي هذا مِن أنواعِ التَّشبِيهِ ما لا يُحصِيهِ إلَّا اللهُ.

فإنْ زَعَمَ مَن شَبَّهَ -**أَوَّلًا**-، وعَطَّلَ -**ثانِيًا**-، وشَبَّهَ -**ثالِثًا**- أيضًا- أنَّ (الاسْتِيلاءَ) -المَزعُومَ- مُنَزَّهٌ عن مُشابَهَةِ اسْتِيلاءِ المَخلُوقِين!

قُلْنَا: نحنُ نَسأَلُكَ ونَطلُبُ مِنكَ الجَوابَ -بإنصافٍ-:

أيُّهُمَا أَحَقُّ بالتَّنزِيهِ عن مُشابَهَةِ الخَلْقِ: (الاسْتِواءُ) الّذِي مَدَحَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ في مُحْكَمِ كِتابِهِ -وهُو نَفْسُ القُرآنِ الّذِي يُتْلَىٰ، ولِتالِيهِ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنهُ عَشْرُ حَسَناتٍ[1]؛ لأنَّهُ كَلامُ اللهِ-، أمْ الأحَقُّ بالتَّنزِيهِ هو (الاسْتِيلاءُ) الّذِي جئتُم بِهِ مِن تِلقاءِ أَنفُسِكُم -مِن غيرِ اسْتِنادٍ إلىٰ الوَحْيِ-؟!

ولا شَكَّ أنَّ الجَوابَ الحَقَّ:

---

(١) كما رَواهُ الترمذيُّ (٢٩١٠) -وغيرُه- عن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنه.
وصحَّحَهُ شيخُنا -رحمه الله- في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٣٢٧).

أنَّ اللَّفظَ الوارِدَ في القُرآنِ أَحَقُّ بالتَّنزِيهِ -والحَملِ علىٰ أَشْرَفِ المَعانِي، وأَكمَلِها- مِن اللَّفظِ الَّذِي جاءَ بِهِ مُعَطِّلٌ مِن كِيسِهِ الخاصّ؛ لا مُستَنَدَ لَهُ مِن الوَحْيِ!!».

وقالَ الإمامُ ابنُ كَثِيرٍ في «البِدايَةِ والنِّهاية» (٩/ ٢٦٢ - طَبْع مِصْرَ):

«كان الأَخْطَلُ مِن نَصارَىٰ العَرَبِ المُتَنَصِّرَةِ -قَبَّحَهُ اللهُ، وأَبْعَدَ مَثْواهُ-، وهُو الَّذِي أَنْشَدَ بِشْرُ بنُ مَرْوانَ قَصِيدَتَهُ الّتي يَقُولُ فيها:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودَمٍ مِهْرَاقِ

وهذا البَيْتُ تَستدِلُّ بِهِ الجَهْمِيَّةُ علىٰ أَنَّ (الاسْتِواءَ علىٰ العَرْشِ) بِمَعْنَىٰ (الاسْتِيلاء)!

وهذا مِن تَحريفِ الكَلِمِ عن مَواضَعِهِ!

وليسَ في بَيْتِ هذا النَّصرانِيِّ حُجَّةٌ، ولا دَلِيلٌ -علىٰ ذَلِك-، ولا أَرادَ اللهُ -عزَّ وجَلَّ- باسْتِوائِهِ علىٰ عَرْشِهِ (استِيلاءَهُ) عليهِ -تَعالَىٰ اللهُ عن قَولِ الجَهْمِيَّةِ عُلُوًّا كَبِيرًا-.

فإنَّهُ إنَّما يُقالُ: (اسْتَوَىٰ علىٰ الشَّيْءِ) إذا كان ذلِكَ الشَّيْءُ عاصِيًا علَيْهِ قَبْلَ استِيلائِهِ عليهِ؛ كاسْتِيلاءِ (بِشْرٍ) علىٰ العِراقِ، واسْتِيلاءِ المَلِكِ علىٰ المَدِينَةِ -بَعْدَ عِصْيَانِها علَيْهِ-!

وعَرْشُ الرَّبِّ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا عليهِ نَفَسًا[1] واحِدًا؛ حتَّىٰ يُقالُ: اسْتَوَىٰ عليهِ! أَوْ:

(١) يَعْنِي: ولا لحظة واحدة.

معنَىٰ الاسْتِواء: (الاسْتِيلاء)!

ولا تَجِدُ أَضْعَفَ مِن حُجَجِ الجَهمِيَّةِ؛ حتَّىٰ أدَّاهُم الإفلاسُ مِن الحُجَجِ إلىٰ بَيْتِ هذا النَّصْرَانِيِّ المَقبُوحِ!

وليسَ فيهِ حُجَّةٌ -واللهُ أَعلَمُ-».

وقال شيخُنا الإمامُ الألبانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في مُقدِّمَتِهِ علىٰ «مُختَصَرِ العُلُوِّ لِلعَلِيِّ العَظِيمِ» (ص٣١-٣٢) -للإمامِ الذَّهَبِيِّ- ما مُلَخَّصُهُ-:

«الاسْتِيلاءُ -لُغَةً- لا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ المُغالَبَةِ -كما في تَرجَمَةِ الإمامِ اللُّغَوِيِّ ابنِ الأَعرابِيِّ[1] مِن «تاريخِ بَغدادَ» (٣/ ٢٠١)-؛ فقد جاءَ فيها:

(أنَّ رَجُلًا قالَ -أَمامَهُ- مُفسِّرًا (الاسْتِواءَ): مَعناهُ: اسْتَوْلَىٰ!

فقالَ لَهُ الإمامُ: اسْكُت، العَرَبُ لا تَقُولُ للرَّجُلِ: (اسْتَوْلَىٰ علىٰ الشَّيْءِ)؛ حتَّىٰ يَكُونَ لهُ فيهِ مُضادٌّ، فأيُّهُما غَلَبَ قِيلَ: (اسْتَوْلَىٰ)، واللهُ -تعالىٰ- لا مُضادَّ لَهُ).

وسَنَدُهُ عنهُ صَحيحٌ.

فَأَسْأَلُ المُتَأَوِّلَةَ: مَن هُو المُضادُّ للهِ -تعالىٰ- حتَّىٰ تَمَكَّنَ (!) اللهُ -تعالىٰ- مِن التَّغَلُّبِ عليهِ، والاسْتِيلاءِ علىٰ مُلْكِهِ عنهُ؟!

وهذا إلزامٌ لا مَخْلَصَ لهُم مِنهُ إلَّا بِرَفْضِهِم لِتَأْوِيلِهِم، ورُجُوعِهِم إلىٰ تَفْسِيرِ السَّلَفِ.

---

(١) المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٢٣١هـ)، ترجمَهُ الذهبيُّ في «السِّيَر» (١٠/ ٦٨٧)، ووَصَفَهُ بِـ(إمامِ اللُّغَةِ).

ولَمَّا تَنَبَّهَ (!) لِهَذَا بَعضُ مُتكلِّمِيهِم[1] جاءَ بِباقعةٍ أُخرَىٰ:

وذلِكَ أَنَّهُ تَأَوَّلَ (الاستِيلاءَ) -الّذِي هُو عندَهُم المُرادُ مِن (الاسْتِواء)- بأَنَّهُ: استِيلاءٌ مُجَرَّدٌ عن معنَىٰ (المُغالَبَةِ)-!!

قُلتُ: وهذا مع كَونِهِ مُخالِفًا لِلُّغَةِ -كما سَبَقَ عن ابنِ الأَعرابِيِّ-؛ فإنَّ أَحْسَنَ ما يُمكِنُ أنْ يُقالَ فيهِ: إنَّهُ تَأوِيلٌ لِلتَّأوِيلِ!!

ولَيْتَ شِعْرِي؛ ما الّذِي دَخَلَ بِهِم إلىٰ هذه المآزِقِ؟!

أَلَيْسَ كانَ الأَوْلَىٰ بِهِم أنْ يَقُولُوا: اسْتَعْلَىٰ (اسْتِعلاءً) مُجَرَّدًا عن المُشابَهَةِ؟!

هذا لو كان (الاسْتِعلاءُ) -لُغَةً- يَسْتَلْزِمُ المُشابَهَة؛ فكَيْفَ وهي غيرُ لازِمَةٍ؟!

لِأَنَّ (الاسْتِواء) -في القُرآنِ- فَضْلًا عن اللُّغَةِ- قد جاءَ مَنسُوبًا إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- كما في آياتِ (الاسْتِواءِ علىٰ العَرْشِ)-، كما جاءَ مَنْسُوبًا إلىٰ غَيْرِهِ -سُبحانَهُ- كما قالَ في سَفِينَةِ نُوحٍ -: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[هود:٤٤]، وفي النَّباتِ: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[الفتح:٢٩]:

فاسْتِواءُ (السَّفِينَةِ) غيرُ اسْتِواء (النَّبَات).

وكذلِكَ (اسْتِواءُ) الإنسانِ علىٰ ظَهْرِ الدَّابَّةِ، (واسْتِواءُ) الطَّيْرِ علىٰ رَأْسِ الإنْسان، (واسْتِواؤُهُ) علىٰ السَّطْحِ.

---

(١) هو (ابنُ المُعلِّم)، المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٧٢٥هـ)، تَرجمَ لهُ الذَّهبيُّ في «مُعجَم شيوخِه» (٢/ ٢٧٤).
... مُشيرًا إلىٰ (هَنَاتٍ) مِنه!!
وقد نَقَلَ كَلامَهُ في (الاستِواء): الكوثريُّ في تعليقِهِ علىٰ «الأسماء والصِّفات» (ص٤٠٦)!!

فكُلُّ هذا (اسْتِواءٌ)، ولَكِنَّ اسْتِواءَ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِهِ، تَشْتَرِكُ في اللَّفظِ، وتَختلِفُ في الحَقِيقَةِ.

فاسْتِواءُ اللهِ -تعالىٰ- هُو اسْتِواءٌ واسْتِعلاءٌ يَليقُ بِهِ -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١].

وأمَّا (الاسْتِيلاءُ)؛ فلَمْ يَأتِ إِطلاقُهُ علىٰ اللهِ -تعالىٰ- مُطْلَقًا- إلَّا علىٰ أَلْسِنَةِ المُتكلِّمِينَ!

فتَأمَّلْ ما صَنَعَ الكَلامُ بِأهلِهِ؟!

لقد زَيَّنَ لَهُم أنْ يَصِفُوا اللهَ بِشَيْءٍ هُو مِن طَبِيعةِ المَخلُوقِ واخْتِصاصِهِ، ولَمْ يَرْضُوا أنْ يَصِفُوهُ بالاسْتِعلاءِ الّذِي لا يُماثِلُهُ شَيْءٌ -وقد قالَ بِهِ السَّلَفُ-!!».

-٢٩، ٣٠-

وَهْـوَ تَعـالَىٰ في الـسَّمَا عـالٍ ومَعْنَـا[1] أَيْنَمَـا
بِغَيْـرِ كَيْـفٍ لا كَمَـا يَخْطُـرُ لِلْمُبْتَـدِعِ

□ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

أنَّ اللهَ -سُبحانَهُ وتَعَالَىٰ- تَقَدَّسَت أَسماؤُهُ، وعَظُمَت صِفاتُهُ -في السَّماءِ- كما وَصَفَ نَفْسَهُ العَلِيَّةَ-، وعلىٰ ما يَليقُ بِجَلالِهِ وكَمالِهِ- مِن غَيْرِ تَكييفٍ، ولا تَمْثِيلٍ، ولا تَحرِيفٍ-.

وهو -كذلِك- عَزَّ وجَلَّ- مَعَنا بِعِلْمِهِ -كما قالَ -تعالىٰ-: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وكما قالَ -سُبحانَهُ- لِمُوسَىٰ وهارُون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]..

كُلُّ ذَلِكَ علىٰ مَعنَىٰ قَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١] -لا فِي ذاتِهِ، ولا فِي صِفاتِهِ-.

لـيسَ كما يَقَعُ مِن المُبتدِعَةِ -في قُلوبِهِم ونُفوسِهِم- مِن التَّشبِيهِ، والتَّأويلِ؛ فالتَّعطِيلِ!!

---

(١) قال ابنُ المُلَقِّن في «التَّوضِيح لِشَرح الجامِع الصَّحيح» (٢/ ٣٩٨):
«(مَعَ) -بِفَتْح العَيْن-: علىٰ اللُّغَةِ الفَصِيحَةِ المَشهُورَةِ، وبِها جاءَ القُرآنُ.
وفِي لُغَةٍ قَلِيلَةٍ: بِإسكانِها».
وانظُر «المُحْكَم» (١/ ٥٥) - لابنِ سِيدَه-.

◻ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (كَيفَ): «اسمٌ مَعناهُ (الاستِفهام)» -كَمَا في «المُحكَم» (٧/ ١١٥) -لابنِ سِيدَه-.

و«(التَّكييفُ) -لُغَةً-؛ هو: تَعيينُ كُنْهِ الصِّفَةِ.

و: الحالُ الّتي عليها الشَّيءُ»[1].

وأمَّا -شَرْعًا-؛ فهو: «حِكايَةُ كَيفيَّةِ الصِّفَةِ؛ كَقَولِ القائِلِ: كَيفيَّةُ يَدِ الله، أو نُزُولِهِ إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا: كَذَا وكَذَا»[2].

❍ (فائدةٌ): الفَرْقُ بَيْن التَّكييفِ والكَيْفِ:

«وهُنا يَجِبُ أنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ (التَّكييفِ)، و(الكَيف)؛ فلا يَصِحُّ أنْ يُقالَ: نُثبِتُ صِفاتِ الله مِن غَيْرِ كَيف؛ لأنَّ صِفاتِ الله -سُبحانَهُ- لَها كَيفيَّةٌ، ولكنَّها مَجهُولَةٌ.

ولذلِكَ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ يَنْفُونَ عِلْمَهُم بالكَيْفِ -إذْ لا يَعلمُ كيفيَّةَ ذاتِهِ أو صِفاتِهِ إلَّا هُو -سُبحانَهُ-.

ولا يَنْفُونَ الكَيْفَ؛ فإنَّ كُلَّ شيءٍ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ علىٰ كَيفيَّةٍ -ما-:

فمَن نَفَىٰ الكَيْفَ؛ فهو مُعَطِّلٌ.

---

(١) انظُر «منهج الشَّيخ عبد الرزَّاق عَفِيفي، وجُهُوده في تقريرِ العَقيدة، والرَّدّ علىٰ المُخالِفين» (ص٢٩٦) -لأحمدَ بنِ عَلِيٍّ الزَّامِلِي-.

(٢) «فَتْح رَبِّ البَرِيَّة بتَلخِيصِ (الحَمَوِيَّة)» (ص١٩) -للعَلَّامَةِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ-.

ومَن نَفَىٰ عِلمَهُ بالكَيْفِ؛ فهو مُوَحِّدٌ، قد فوَّضَ العِلمَ بذلِك إلىٰ رَبِّهِ»[١].

○ **(فائدةٌ): اللهُ -سُبحانَهُ- في السَّماء:**

قال الإمامُ ابنُ قُتَيْبَةَ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٢٧٦هـ) -رَحِمَهُ اللهُ- في «تأويلِ مُختلف الحديث» (ص٣٩٥):

«والأُمَمُ كُلُّها -عَرَبِيُّها وعَجَمِيُّها- تَقولُ: (إنَّ اللهَ -تعالىٰ- في السَّماءِ)- ما تُرِكَت علىٰ فِطَرِها، ولَم تُنقَلْ عن ذلكَ بالتَّعليم[٢].

وفي الحديثِ: أَنَّ رَجُلًا أَتىٰ رسولَ الله ﷺ بأَمَةٍ أَعجَمِيَّةٍ -للعِتْقِ-؛ فقالَ لها رسُولُ الله ﷺ: «**أينَ الله -تعالىٰ-**؟».

فقالَتْ: في السَّماء.

قال: «**فمَن أنَا؟**».

قالَت: أنتَ رسُولُ الله ﷺ.

فقالَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «**هِيَ مُؤمِنَةٌ**»..

وأَمَرُهُ بِعِتْقِها.

هذا أو نَحوُهُ.

قُلتُ:

يُشيرُ -رَحِمَهُ اللهُ- إلىٰ ما رَواهُ الإمامُ مُسلمٌ في «صَحيحِهِ» (٥٣٧) عن مُعاوِيَةَ بنِ

(١) «نَواقِض تَوحيد الأسماء والصِّفات(ص٤٥) -لِناصِر القِفارِي-.

(٢) أي: بِتعلِيمِها مُخالَفَةَ الحَقِّ والفِطْرَةِ.

الحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قالَ: كانَت لِي جارِيَةٌ تَرْعَىٰ غَنَمًا لِي-قِبَلَ أُحُدٍ والجُوَانِيَّة[1]-، فَاطَّلَعْتُ -ذاتَ يَوْمٍ-، فإذا الذِّيبُ قد ذَهَبَ بشاةٍ مِن غَنَمِها، وأنا رَجُلٌ مِن بَنِي آدمَ، آسَفُ[2] كما يَأسَفُون، لكِنِّي صَكَكْتُها[3] صَكَّةً، فأتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فعظَّمَ ذلِكَ عَلَيَّ، قُلتُ:

يا رَسُولَ الله؛ أَفَلا أَعتِقُها؟

قال: «**ائتِنِي بها**».

فأتَيْتُهُ بِها، فقال لَهَا: «**أينَ اللهُ؟**».

قالَت: في السَّماءِ.

قالَ: «**مَن أَنَا؟**».

قالَت: أنتَ رَسُولُ الله.

قال: «**أَعْتِقْها، فإنَّها مُؤمِنَةٌ**».

وقالَ الإمامُ أَبُو إبراهِيمَ المُزَنِيُّ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٢٦٤هـ) -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «أُصولِ السُّنَّةِ» (ص١-٢):

«عَصَمَنَا اللهُ -وإيَّاكُم- بالتَّقوَىٰ، ووَفَّقَنَا -وإيَّاكُم- لِمُوافَقَةِ الهُدَىٰ؛ أمَّا بَعْدُ:

فإنَّكَ -أصْلَحَكَ اللهُ- سألتَنِي أنْ أُوَضِّحَ لَكَ مِن السُّنَّةِ أَمْرًا تَصبِرُ نَفْسَكَ علىٰ

---

(١) مَوضِع شَمال المَدِينَة النَّبوِيَّة.

(٢) أَغْضَبُ.

(٣) ضَرَبْتُها بِكَفِّ يَدِي.

التَّمَسُّكِ بِهِ، وتَدْرَأُ بِهِ عنكَ شُبَهَ الأَقاوِيلِ، وزَيْغَ مُحدَثَاتِ الضَّالِّين.

وقد شَرَحْتُ لَكَ مِنهاجًا مُوضَّحًا مُنِيرًا، لَم آلُ نَفْسِي -وإيَّاك -فيه- نُصْحًا-.

بَدَأتُ فيهِ بحَمدِ اللهِ ذِي الرُّشْدِ والتَّسديدِ:

الحَمدُ للهِ أَحَقَّ مَن ذُكِر، وأَوْلَىٰ مَن شُكِر-وعليهِ أُثْنِي-.

الواحِدُ الصَّمَدُ الّذِي ليسَ لهُ صاحِبَةٌ ولا وَلَد، جَلَّ عن المَثِيل، فلا شَبِيهَ لهُ، ولا عَديل، السَّمِيعُ البَصِير، العَليمُ الخَبِير، المَنِيعُ الرَّفِيع:

عالٍ علىٰ عَرْشِه -في مَجْدِه- بذاتِه-، وهُو دانٍ بعِلْمِه مِن خَلْقِه، أحاطَ عِلمُهُ بالأُمورِ، وأنفَذَ في خَلْقِهِ سابِقَ المَقدُور، وهُو الجَوادُ الغَفُور، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩]..».

وقال الإمام ابنُ عَبدِ البَرِّ -المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٤٦٣هـ) -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابِهِ «التَّمهيد» (٧/ ١٣٨):

«أَخبَرَنَا أَبُو مُحمَّد عبدُ اللهِ بنُ مُحمَّدِ بنِ عَبدِ المُؤمِنِ، قال: حدَّثَنا أحمدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ حَمدَانَ بنِ مالِكٍ، قال: حدَّثَنَا عبدُ الله بنُ أَحمدَ بنِ حَنبَلٍ، قال: حدَّثَنِي أَبِي، قال: حدَّثَنا سُرَيجُ بنُ النُّعْمان، قال: حدَّثَنا عبدُ الله بنُ نافِعٍ، قال: قال مالِكُ بنُ أَنَسٍ: (اللهُ -عزَّ وجَلَّ- في السَّماءِ، وعِلمُهُ في كُلِّ مَكانٍ، لا يَخْلُو مِنهُ مَكان)[1].

وقِيلَ لِمالِكٍ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه:٥]؛ كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟!

(١) «الإبانَة الكُبْرَىٰ» (١١٠) -لابنِ بَطَّةَ-، و«الشَّريعَة» (٦٥٣) -لِلآجُرِّيِّ-.

فقالَ مالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: اسْتِواؤُهُ مَعقُولٌ، وكَيفيَّتُهُ مَجهُولَةٌ، وسُؤالُكَ عن هذا بِدعَةٌ، وأَراكَ رَجُلَ سُوءٍ).

وقد رُوِّينا عن رَبِيعَةَ بنِ أَبِي عبدِ الرَّحمن، أَنَّهُ قالَ -في قولِ الله -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ مِثلَ قَولِ مالِكٍ هذا -سَواءً-.

وأمَّا احْتِجاجُهُم[1] بقَولِهِ -عزَّ وجَلَّ-: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]: فلا حُجَّةَ لَهُم في ظاهِرِ هذِهِ الآيَةِ؛ لأنَّ عُلماءَ الصَّحابَةِ والتَّابعِين -الّذينَ حُمِلَت عنهُم التَّآويلُ[2] في القُرآنِ -قالُوا -في تأوِيلِ هذه الآيةِ-: هو علىٰ العَرْشِ، وعِلمُهُ في كُلِّ مَكانٍ).

وما خالَفَهُم في ذلِكَ أَحَدٌ يُحْتَجُّ بِقَولِهِ..».

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ -تعالىٰ- في «الفتوَىٰ الحمويَّة الكُبْرَىٰ» (ص٥٢٥):

«مَن تَوَهَّمَ أنَّ كَونَ اللهِ (في السَّماءِ) بمعنَىٰ: أنَّ السَّماءَ تُحِيطُ بِهِ، وتَحوِيه! فهو كاذِبٌ -إنْ نَقَلَهُ عن غَيرِهِ!-، وضالٌّ -إنِ اعْتَقَدَهُ في رَبِّهِ!-!

وما سَمِعْنا أَحَدًا يَفهَمُهُ مِن اللَّفظِ! ولا رأَينا أَحدًا نَقَلَهُ عن أَحَدٍ!

ولو سُئِلَ سائرُ المُسلِمِينَ: هل تَفهمُونَ مِن قولِ اللهِ -تعالىٰ-: ورَسُولِهِ: «أنَّ

---

(١) يَعنِي: المُخالِفِين.

(٢) مُفردُها (تأْويل)؛ وهو: التَّفسِير.

اللهَ في السَّماءِ»: أنَّ السَّماءَ تَحوِيهِ؟! لبادَرَ كُلُّ أَحَدٍ منهُم إلىٰ أنْ يَقُولَ: هذا شيءٌ لَعَلَّهُ لَم يَخطُرْ بِبالِنا!!

وإذا كان الأَمرُ هكذا؛ فمِن التَّكَلُّفِ أنْ يُجْعَلَ ظاهِرُ اللَّفظِ شيئًا مُحالًا لا يَفْهَمُهُ النَّاسُ منهُ، ثُمَّ يُريد أنْ يَتأوَّلَهُ!

بل عندَ المُسلمِين: أنَّ اللهَ (في السَّماءِ) وهو علىٰ العرشِ واحِدٌ؛ إذِ السَّماءُ إنَّما يُرادُ بِهِ (العُلُوُّ)، فالمعنَىٰ: أنَّ اللهَ في العُلُوِّ؛ لا فِي السُّفْلِ.

وقد عَلِمَ المُسلمُونَ أنَّ كُرسِيَّهُ -سُبحانَهُ- وَسِعَ السَّماواتِ والأرضَ[1]، وأنَّ الكُرسِيَّ في العَرشِ كَحَلْقَةٍ مُلْقاةٍ بأرضِ فَلاةٍ[2]، وأنَّ العَرشَ خَلْقٌ مِن مَخلُوقاتِ اللهِ، لا نِسبةَ [لهُ] إلىٰ قُدرةِ اللهِ وعَظَمَتِهِ.

فكيفَ يُتَوَهَّمُ -بَعْدَ هذا- أنَّ خَلْقًا يَحصُرُهُ ويَحوِيهِ[3]، وقد قالَ -سُبحانَهُ-: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٣٧]؛ بمعنَىٰ: (علَىٰ) -ونحوِ ذلِكَ-؟!

وهو كَلامٌ عربيٌّ -حقيقةً؛ لا مَجازًا-.

---

(١) كما في (آية الكُرسي) مِن (سُورة البَقرة: ٢٥٥).

وقد صحَّ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَولُهُ: «(الكُرسيُّ): مَوضعُ القدمَين» -كما في «مُختصَر العُلُوّ» (ص١٠٢) -لشيخِنا-.

(٢) انظُر «سِلسِلَة الأحاديث الصَّحيحة» (١٠٩) -لِشَيخِنا الإمامِ الألبانيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

(٣) كيفَ؛ واللهُ -تعالىٰ- يقولُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٧].

وهذا يَعلمُهُ مَن عَرَفَ حَقائقَ مَعانِي الحُرُوفِ..».

وقال الإمامُ ابنُ القيِّمِ في «مَدارِجِ السَّالِكِين» (٢/ ٨٥):

«حِفظُ حُرْمَةِ نُصُوصِ الأَسماءِ والصِّفاتِ: بإجراءِ أَخْبَارِها علىٰ ظَواهِرِها -وهُو: اعْتِقادُ مَفهُومِها المُتَبادَرِ إلىٰ أَذهانِ العامَّةِ-...

... كما قالَ مالِكٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وقد سُئِلَ عن قَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]: كَيفَ اسْتَوَىٰ؟!-:

فَأَطْرَقَ مالِكٌ، حتَّىٰ عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ[1]، ثُمَّ قالَ: الاسْتِواءُ مَعلُومٌ، والكَيفُ غَيرُ مَعقُولٍ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عنهُ بِدعَةٌ.

فَفَرَّقَ بَيْنَ (المعنَىٰ) المَعلُومِ -مِن هذه اللَّفظَةِ-، وبَيْنَ (الكَيْفِ) الّذِي لا يَعْقِلُهُ البَشَرُ.

وهذا الجَوابُ مِن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شافٍ، عامٌّ في جَمِيعِ مَسائلِ الصِّفاتِ.

فمَن سَأَلَ عن قَولِهِ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]: كيفَ يَسمعُ ويَرَىٰ؟

أُجِيبَ بهذَا الجَوابِ بِعَيْنِهِ، فقِيلَ لَهُ: السَّمْعُ والبَصَرُ مَعلُومٌ، والكَيفُ غيرُ مَعقُولٍ.

وكذلِكَ مَن سَأَلَ عن العِلْمِ، والحَياةِ، والقُدرَةِ، والإرادَةِ، والنُّزُولِ، والغَضَبِ،

(١) هُو «العَرَق مِن الشِّدَّة» -كما في «إكمال المُعْلِم» (٣/ ٥٩١) -لِلقاضِي عِيَاض-.

والرِّضا، والرَّحمةِ، والضَّحِكِ -وغيرِ ذلِكَ-.

فمعانِيهَا -كُلُّها- مَفهُومَةٌ[١].

وأمَّا كَيفِيَّتُها؛ فغيرُ مَعقُولَةٍ؛ إذ تَعَقُّلُ الكَيفيَّةِ فَرْعُ العِلْمِ بِكيفِيَّةِ الذَّاتِ وكُنْهِهَا.

فإذا كانَ ذلِكَ غَيرَ مَعقُولٍ للبَشَرِ؛ فكيفَ يُعقَلُ لَهُم كَيفيَّةُ الصِّفاتِ؟!

والعِصمَةُ النَّافِعَةُ في هذا البَابِ:

أنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِن غَيرِ تَحريفٍ ولا تَعطيل، ومِن غَيْرِ تَكييفٍ ولا تَمثِيل.

بلْ تُثْبَتُ لَهُ الأَسماءُ والصِّفاتُ، وتُنْفَىٰ عَنهُ مُشابَهَةُ المَخلُوقاتِ؛ فيَكُونُ إثباتُكَ مُنَزَّهًا عن التَّشبِيهِ، ونَفْيُكَ مُنَزَّهًا عن التَّعطِيلِ:

فمَن نَفَىٰ حَقيقةَ الاستِواءِ؛ فهُوَ مُعطِّلٌ.

ومَن شَبَّهَهُ باسْتِواءِ المَخلُوقِ علىٰ المَخلُوقِ؛ فهُو مُمَثِّلٌ.

---

(١) واعتَبِر ذلك بنعيم أهلِ الجنَّة، وما وَعَدَ اللهُ -تعالىٰ- به عِبادَهُ المُتَّقِين فيها.
ونَعيمُها: لا يَخْطُرُ علىٰ قَلْبِ بَشَرٍ؛ فضلًا عن أنْ يَعْلَمَه، أو أنْ يُدرِكَ حَقائقَه مَخلوقٌ.
فَفِي كثيرٍ مِن آياتِ القُرآن الكريم: أنّ في الجنَّةِ فاكهةً، وشرابًا، وفَرُشًا، وخَدَمًا، و.. و..
ونحنُ -عندما نقرأ هذه الآياتِ في وَصْفِ نَعِيمِ أهلِ الجنَّةِ -نَفْهَمُ المُرادُ؛ فلَم يُخاطِبْنَا اللهُ -تعالىٰ- بها إلّا لِنَفْهَم.
ولكِنْ؛ هل نُدرِك حقائقَها وكيفيَّاتِها؟!
﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾..
﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾..

ومَن قالَ: اسْتِواءٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]؛ فهُو المُوَحِّدُ، المُنَزِّهُ.

وهكـذا الكَـلامُ في: الـسَّمْعِ، والبَـصَرِ، والحَيـاةِ، والإرادَةِ، والقُـدْرَةِ، واليَـدِ، والوَجْهِ، والرِّضا، والغَضَبِ، والنُّزُولِ والضَّحِكِ -وسائِرِ ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ-».

○ **(فائدة): في مَعِيَّةِ اللهِ -تعالىٰ- لِخَلْقِه:**

قالَ العَلَّامَةُ عبدُ الرَّحمنِ السَّعْدِيُّ في «تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ المَنَّان في خُلاصَةِ تَفسِيرِ القُرآن» (ص٣١٠):

«إخبارُ اللهِ أنَّهُ (مَع عِبادِهِ) يَرِدُ في القُرآنِ علىٰ أَحَدِ مَعْنَيَيْن:

- **أحدُهُما**: المَعِيَّةُ العامَّةِ؛ كَقَولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧]؛ أيْ: هُو مَعَهُم بِعِلْمِهِ، وإِحاطَتِهِ.

- **الثَّانِي**: المَعِيَّةُ الخاصَّة، وهي أَكثَرُ وُرُودًا في القُرآنِ، وعَلامَتُهَا: أنْ يَقْرِنَها اللهُ بالاتِّصافِ بالأَوصافِ الّتي يُحِبُّهَا، والأَعمالِ الّتِي يَرْتَضِيها، مِثلُ قَولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، و: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، و: ﴿..مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، و: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، و: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦].

وهذه المَعِيَّةُ تَقتضِي العِنايةَ مِن اللهِ، والنَّصْرَ، والتَّأييدَ، والتَّسدِيدَ، بِحَسَبِ قِيامِ العَبدِ بذلِك الوَصفِ الّذي رُتِّبَت عليهِ المَعِيَّةُ».

وقال الشَّيخُ محمد أَمان الجامِي -رَحِمَهُ اللهُ- في كِتابِهِ «الصِّفات الإلهِيَّة في الكِتابِ والسُّنَّةِ» (ص٢٤٠):

«المعِيَّةُ -بِنَوعَيْها- لا تُفيدُ المُخالَطَةَ، والمُمازَجَةَ الذَّاتِيَّة -لا شَرْعًا، ولا لُغَةً-.

بل تَمْنَعُ ذلِكَ باعتِبارِ إضافتِها إلىٰ اللهِ -تعالىٰ-:

أمَّا لُغَةً؛ فإنَّ لَفْظَةَ (مَعَ) لا تَدُلُّ إلَّا علىٰ مُطْلَقِ المُصاحَبَة[1] والمُقارَنَة.

وهذه المُقارَنَةُ -أو المُصاحَبَةُ- أَعَمُّ مِن أنْ تَكُونَ بالذَّاتِ، أو بِمَعانٍ أُخَرَ.

وإنَّ السِّياقَ والقَرائنَ -الّتي تُحِيطُ بالمَقامِ - هي الّتي تُعَيِّنُ نَوعَ تِلكَ المُصاحَبَةِ.

فإذا وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ بالمعِيَّةِ -في عَدِيدٍ مِن الآياتِ القُرآنِيَّةِ، وجاءَ ذِكْرُها فِيمَا صحَّ عن رَسُولِهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ فعلَيْنَا أنْ نُؤمِنَ بأنَّ مَعِيّتَهُ -سُبحانَهُ- إنَّما هِي مَعِيَّةُ عِلْمٍ، واطِّلاعٍ، وإحاطَةٍ -إنْ كانَت عامَّةً-.

وتَزِيدُ علَيْها معنىٰ الحِفظِ، والنَّصرِ، والتَّأييد -إنْ كانت خاصَّةً-.

ولا يَنْبَغِي أَنْ نَفهَمَ مِنها أيَّ معنًىٰ مِن المعانِي الّتي لا تَلِيقُ بالله -تعالىٰ-..».

(١) وانظُر «جامِع المَسائل» (١/ ١٦٦- المجموعة الثالثة) -لِشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ-.

-٣١، ٣٢-

مَـنْ قَاسَـهُ مِـنَ البَـشَرْ بِخَلْقِـهِ فَقَـدْ كَفَـرْ
وَقَـدْ أَطَـاعَ ونَـصَرْ أَمْـرَ الهَـوَىٰ المُتَّبَـعِ

□ المعنَىٰ الإجماليّ:

مَن قاسَ اللهَ -تَعَالَىٰ- وهو الخالِقُ العَظيمُ -جَلَّ وعَلَا- بِشيءٍ مِن مَخلُوقاتِهِ؛ فلا شَكَّ أنَّهُ يَكفُرُ بِذلِكَ -والعِياذُ باللهِ-؛ لأنَّهُ أَطاعَ هَواه، وأضاعَ هُداه، ونَصَرَ ما يَهْواه -مِن الأَهواءِ المُنتَشِرَةِ بَيْنَ النَّاسِ-الّتِي يَتَّبِعُونَها بِغيرِ حَقٍّ-...

□ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ:

* (القِياس) -في اللُّغَةِ-؛ هو: (المُساواةُ والتَّقدِيرُ)[١].

وفي الاصطِلاحِ؛ هُو: (حَمْلُ مَجهُولٍ علىٰ مَعلُوم؛ لِمُساواتِهِ لَهُ في حُكْمِهِ)[٢].

* (كَفَرَ)؛ الكُفْرُ -في اللُّغَةِ-: السَّتْرُ والتَّغطِيَةُ.

قال ابنُ فارِس: «الكاف والفاء والرَّاء، أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ علىٰ معنًىٰ واحِدٍ، وهو: السَّتْرُ والتَّغطِيَةُ»[٣].

وقال ابنُ الأَثِيرِ: «أَصلُ الكُفْرِ: تَغطِيَةُ الشَّيءِ تَغطِيَةً تَستهلِكُهُ»[٤].

---

(١) «رَفْع النِّقاب عنْ تَنقِيح (الشِّهاب)» (٥/ ٢٥٤) -لِلرَّجْراجِي-.
(٢) «الحُدُود الأَنِيقَة والتَّعرِيفات الدَّقِيقَة» (ص٨١) -للشَّيخ زكريَّا الأَنصارِيّ-رَحِمَهُ اللهُ-.
(٣) «مُعجَم مَقاييس اللُّغَة» (٥/ ١٩١) -لابنِ فارِس-.
(٤) «النِّهاية» (٨٠٧).

وقد أُطلِقَ (الكُفْرُ) -في اللُّغَةِ- عِدَّةَ إطلاقاتٍ؛ كُلُّها تَرجِعُ إلىٰ المعنَىٰ -نَفْسِهِ-:

مِنهُ: تَسمِيَةُ المُزارِعِ: (كافِرًا)؛ قال -تعالىٰ-: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠]؛ أي: الزُّرَّاع؛ وذلِكَ لأنَّ المُزارِعَ يَسْتُرُ البِذْرَ في الأَرضِ[١].

كما أُطلِقَ (الكافِرُ) -في اللُّغَةِ- علىٰ اللَّيْلِ؛ لأنَّهُ يَستُرُ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ شَيءٍ[٢].

... وهكذا.

* (الهَوَىٰ)؛ قالَ الواحِدِيُّ في «التَّفسيرِ البَسِيطِ» (٧/ ٤٨٨):

«قَولُـهُ -تعـالىٰ-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾[المائـدة:٧٧]؛ (الأهواء): جَمْعُ (هَوًىٰ)، و(هَوًىٰ): فَعَلٌ، وجَمْعُهُ: (أَفعالٌ) [أَهواء].

ومعنَىٰ (الأَهواء) -هُنا-: المَذاهِبُ الّتي تَدعُو إلَيها الشَّهوَةُ دُونَ الحُجَّةِ.

وقد يَشُقُّ علىٰ الإنسانِ النَّظَرُ، ويَمِيلُ طَبْعُهُ إلىٰ بَعضِ المَذاهِبِ، فيعتقِدُهُ، فيَكُونُ ذلِكَ هَوًىٰ.

قال الشَّعْبِيُّ: ما ذَكَرَ اللهُ -تعالىٰ- هَوًىٰ في القُرآنِ إلَّا ذَمَّهُ[٣]؛ كَقَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ﴾ [ص:٢٦]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم:٣].

ومِثْلُهُ كَثِيرٌ.

---

(١) انظُر «تَهذِيب اللُّغَة» (٤/ ٣١٦٢) -لِلأزهَرِيِّ-.
(٢) «شَمس العُلُوم» (٤/ ٢٤١١) -لِلحِمْيَرِيِّ-.
(٣) انظُر «ذَمّ الكَلام» (٤٦٢) -لِلهَرَوِيّ-.

قالَ أَبُو عُبَيد: لَم نَجِدِ الهَوَىٰ يُوضَعُ إلَّا في مَوضِعِ الشَّرِّ؛ لا يُقالُ: فُلانٌ يَهْوَىٰ الخَيْرَ، إنَّما يُقالُ -في الخَيْرِ-: يُريدُ، ويُحِبُّ.

وقالَ بَعضُهُم: الهَوَىٰ إلَهٌ يُعْبَدُ مِن دُونِ الله؛ قالَ اللهُ -تَعالَىٰ-: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية:٢٣].

وقِيلَ: سُمِّيَ الهَوَىٰ هَوًىٰ؛ لأَنَّهُ يَهوِي بِصاحِبِهِ في النَّارِ»[(١)].

○ **(فائدةٌ): ذَمُّ الهَوَىٰ:**

وقالَ الشَّاطِبِيُّ في «الاعتِصام» (١/ ٢٤٧):

«قَد دَلَّ الشَّرْعُ علىٰ أنَّ (الهَوَىٰ) هُوَ المُتَّبَعُ الأَوَّلُ في البِدَعِ، وهُو المَقصُودُ السَّابِقُ -في حَقِّهِم-، ودَليلُ الشَّرعِ كالتَّبَعِ -في حَقِّهِم-.

ولِذلِكَ؛ تَجِدُهُم يَتأَوَّلُونَ كُلَّ دَليلٍ خالَفَ هَواهُم، ويَتَّبِعُونَ كُلَّ شُبهَةٍ وافَقَت أَغراضَهُم.

أَلَا تَرَىٰ إلىٰ قَولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران:٧]؛ فأَثْبَتَ لَهُمُ الزَّيْغَ -أَوَّلًا-، وهُوَ: المَيلُ عن الصَّوابِ..»[(٢)].

---

(١) «سُنَن الدَّارِمِيّ» (٤٠٩).

(٢) (**تَنبِيهٌ**): مِمَّا يَنْتَشِرُ -كَثِيرًا- بَيْنَ الخاصَّةِ والعامَّةِ -حَدِيثٌ مَنسُوبٌ إلىٰ رَسُولِ الله ﷺ -في هذا البَابِ-، نَصُّهُ: «**لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حتَّىٰ يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»!

وقد رَواهُ ابنُ أَبِي عاصِم في «السُّنَّةِ» (١٥)، والخَطِيبُ في «تاريخِ بَغدادَ» (٤/ ٤٦٩)، وابنُ بَطَّةَ في «الإبانَةِ» (٢٧٩)، والأَصبهانِيُّ في «التَّرغِيب» (٣٠) عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرو، عنه ﷺ.

=

○ **(فائدةٌ): لا يُقاسُ اللهُ -تعالىٰ- بِخَلْقِهِ:**

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ في «العَقيدةِ الواسِطِيَّةِ» (ص٦٥):

«ومِنَ الإيمانِ باللهِ: الإيمانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ في كِتابِهِ العَزِيزِ، وبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحمَّدٌ ﷺ -مِن غَيْرِ تَحريفٍ ولا تَعطِيل، ومِن غَيْرِ تَكييفٍ ولا تَمثِيل-.

بَل يُؤمِنُونَ بِأنَّ اللهَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فلا يَنْفُونَ عنهُ ما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

ولا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَواضِعِهِ.

ولَا يُلحِدُونَ في أَسماءِ اللهِ وآياتِهِ.

ولا يُكَيِّفُونَ.

ولا يُمَثِّلُونَ صِفاتِهِ بِصِفاتِ خَلْقِهِ؛ لأنَّهُ -سُبحانَهُ- لا سَمِيَّ لَهُ، ولا كُفْءَ لَهُ، ولا نِدَّ لَهُ.

ولا يُقاسُ بِخَلْقِهِ -سُبحانَهُ وتَعالَىٰ-؛ فإنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وبِغَيْرِهِ، وأَصدَقُ قِيلًا، وأَحسَنُ حَدِيثًا مِن خَلْقِهِ.

ثُمَّ رُسُلُهُ صادِقُونَ مُصدَّقُون؛ بخِلافِ الّذِين يَقُولُونَ علَيهِ ما لا يَعْلَمُون».

فَـ«قِياسُ اللهِ -الخالِقِ لِكُلِّ شيءٍ، الغَنِيِّ عن كُلِّ شيءٍ، الصَّمَدِ، الّذِي يَفْتَقِرُ إلَيْهِ كُلُّ شيءٍ- بالمَخلُوقاتِ الضَّعِيفَةِ المُحتاجَةِ-: عَدْلٌ لَها بِرَبِّ العالَمِين، ومَن عَدَلَهَا

=

وقد ضَعَّفَهُ الحافظُ ابنُ رَجَب الحَنْبَلِيُّ في «جامِع العُلوم والحِكَم» (٢/ ٣٩٤) -وغَيْرُهُ-.

بـرَبِّ العـالمِين؛ فإنَّـهُ في ضَـلالٍ مُبِـين» -كمـا قـالَ شـيخُ الإسـلامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «بَيـانِ تَلبِيسِ الجَهْمِيَّة» (٣/ ٦٢٢)-.

وقـال أُسـتاذُنا الـشَّيخُ مُحمَّـدُ بـنُ صـالحٍ العُثَيمِـين -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «شَـرحِ العَقيـدةِ الواسِطِيَّة» (١/ ١٣٠):

«فَقَولُ المُؤلِّفِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «ولا يُقاسُ بِخَلْقِهِ»- بَعدَ قَولِهِ: «لا سَـمِيَّ، ولَا كُـفْءَ لَه، ولا نِدَّ لَه»- يعنِي: القِياسَ المُقْتَضِيَ للمُساواةِ...

إِذًا؛ يَمتَنِعُ القِياسُ بَينَ اللهِ وبَيْنَ الخَلْقِ؛ للتَّبَايُنِ بَيْنَهُما.

وإذا كُنَّا في الأحكامِ: لا نَقِيسُ الواجِبَ علىٰ الجائِزِ، أو الجـائزَ علىٰ الواجِـبِ؛ ففِي بابِ الصِّفاتِ -بَيْنَ الخالِقِ والمَخلُوقِ -مِن بابِ أَوْلَىٰ.

لَو قالَ لَكَ قائلٌ: اللهُ مَوجُـودٌ، والإنسانُ مَوجُـودٌ، ووُجُـودُ اللهِ كَوُجُـودِ الإنسانِ -بالقِياسِ-!

فنَقُولُ: لا يَصِحُّ؛ لأنَّ وُجُودَ الخالِقِ واجِبٌ، ووُجُودَ الإنسانِ مُمْكِنٌ.

فلَو قالَ: أَقِيسُ سَمْعَ الخالِقِ علىٰ سَمْعِ المَخلُوقِ!

نَقُولُ: لا يُمْكِـنُ؛ سَـمْعُ الخـالِقِ واجِـبٌ لـهُ، لا يَعْتَرِيـهِ نَقْـصٌ، وهُـو شـامِلٌ لِكُـلِّ شيءٍ، وسَـمْعُ الإنسانِ مُمْكِـنٌ؛ إذْ يُجُـوزُ أنْ يُوَلَـدَ الإنسانُ أَصَـمَّ، والمَولُـودُ سَـمِيعًا يَلحَقُهُ نَقْصُ السَّمْعِ، وسَمْعُهُ مَحدُودٌ.

إِذًا؛ لا يُمْكِنُ أنْ يُقاسَ اللهُ بِخَلْقِهِ؛ فكُلُّ صِـفاتِ اللهِ لا يُمْكِـنُ أنْ تُقـاسَ بِـصِفاتِ خَلْقِهِ؛ لِظُهورِ التَّبايُنِ العَظِيمِ بَيْنَ الخالِقِ وبَيْنَ المَخلُوقِ».

○ **(فائدةٌ): مِن قَواعِدِ إثباتِ الأَسماءِ والصِّفات:**

قالَ العَلَّامَةُ مُحمَّدٌ الأَمِينُ الشِّنقِيطِيُّ في «مَنْع جَوازِ المَجاز عن المُنْزَلِ للتَّعَبُّدِ والإِعْجَاز» (ص٤٣):

«الصِّفاتُ الإلَهِيَّةُ تَختلِفُ حَقائقُها باخْتِلافِ مَوصُوفاتِها؛ فلِلْخالِقِ -جَلَّ وعَلَا- صِفاتٌ حَقيقِيَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، ولِلْمَخلُوقِ صِفاتٌ حَقيقيَّةٌ تُناسِبُهُ وتُلائمُهُ.

وكُلٌّ مِن ذلِكَ حقيقةٌ في مَحَلِّهِ.

ومَعانِي صِفاتِ اللهِ -جَلَّ وعَلَا- مَعرُوفَةٌ، وكَيفِيَّاتُها لا يَعلمُها إلَّا اللهُ؛ كَمَا قالَ مالِكٌ وأُمُّ سَلَمَةَ[1]: «الاسْتِواءُ غيرُ مَجهُول، والكَيفُ غَيرُ مَعقُول».

والدَّلِيلُ علَىٰ أنَّ (الكَيفَ) غَيرُ مَعقُولٍ: قَولُهُ -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وحاصِلُ تَحريرِ الحَقِّ في مَسألَةِ (آياتِ الصِّفاتِ) -علىٰ وَجْهٍ لا إشكالَ فيهِ- مَبْنِيٌّ علىٰ أَمْرَيْن:

الأَوَّل: الإيمانُ بِكُلِّ ما ثَبَتَ في الكِتابِ العَزِيز، والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ -علىٰ وَجْهِ الحَقيقَةِ؛ لا المَجاز-.

الثَّاني: نَفْيُ التَّشبِيهِ والتَّمثِيلِ عن كُلِّ وَصْفٍ ثَبَتَ للهِ في كتابٍ، أو سُنَّةٍ صَحيحَةٍ.

فمَن نَفَىٰ وَصْفًا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، أو أَثبَتَهُ لهُ رَسُولُهُ ﷺ؛ فهُو مُعطِّلٌ.

---

(١) تَقَدَّمَ تَخريجُهُ عنِ الإمامِ مالِكٍ (ص١٣٢).

وقال الذَّهَبِيُّ في «العُلُوّ» (ص٦٥): «فأمَّا عن أُمِّ سَلَمَة؛ فلا يَصِحُّ».

ومَعلُومٌ أَنَّهُ لا يَصِفُ اللهَ أَعلَمُ باللهِ مِن اللهِ، ولا يَصِفُ اللهَ -بَعْدَ اللهِ- أَعلَمُ بِهِ مِن رَسُولِ الله ﷺ: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٤٠].

ومَن شَبَّهَ وَصْفَ رَبِّهِ بِصِفاتِ المَخلُوقِ؛ فهُو مُشَبِّهٌ مُلحِدٌ.

وكُلُّ تَعطِيلٍ ناشِئٌ عن تَشْبِيهٍ.

ومَن آمَنَ بِصِفاتِ رَبِّهِ مُنَزِّهًا لَهُ عن التَّشبِيهِ والتَّمثِيلِ بِصِفاتِ الحَوادِثِ؛ فهو مُؤمِنٌ مُوحِّدٌ، سالِمٌ مِن وَرْطَةِ التَّشبِيهِ والتَّعطِيل، جامِعٌ بَيْنَ الإيمانِ والتَّنزِيه.

والدَّلِيلُ علىٰ ما ذَكَرْنَا -مِن أَنَّ تَحريرَ المَقامِ حاصِلٌ بالأَمْرَيْنِ المَذكُورَيْنِ-: قَولُهُ -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]:

فقَولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ فيهِ نَفْيُ التَّمثِيلِ.

وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ فيهِ إثباتُ الصِّفاتِ -علىٰ الحَقِيقَةِ-.

وإذا كانَ نافِي بَعْضِ الصِّفاتِ يَضْطَرُّ إلىٰ الاعْتِرافِ بأَنَّهُ -جَلَّ وعَلَا- ذاتٌ مُخالِفَةٌ لِجَمِيعِ الذَّواتِ؛ فعلَيْهِ أنْ يَعتَرِفَ بأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِصِفاتٍ لا يُماثِلُها شَيءٌ مِن صِفاتِ المَخلُوقِين.

فصِفاتُهُ تُخالِفُ صِفاتِهِم كمُخالَفَةِ ذاتِهِ لِذَواتِهِم».

قُلْتُ:

رَوَىٰ اللَّالَكائِيُّ في «شَرح أُصول اعتِقاد أَهل السُّنَّة» (٩٣٦) عن نُعَيْمِ بنِ حَمَّادٍ -شَيْخ الإمام البُخارِيِّ-، قال:

«مَن شَبَّهَ اللهَ بِشَيْءٍ مِن خَلْقِهِ؛ فقَد كَفَر، ومَنْ أَنكَرَ ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ فقد

كَفَر، فلَيس ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ ورَسُولُهُ تَشْبِيهٌ».

وأَوْرَدَهُ الذَّهَبِيُّ في «سِيَرِ أعلام النُّبَلاء» (١٠/ ٦١٠)، ثُمَّ قال:

«هذا الكَلامُ حَقٌّ؛ نَعُوذُ باللهِ مِن التَّشبِيهِ، ومِن إِنكارِ أَحادِيثِ الصِّفاتِ.

فمَا يُنكِرُ الثَّابِتَ مِنها مَن فَقُهَ.

وإِنَّما بَعْدَ الإِيمانِ بِها -هُنا- مَقامَان مَذمُومان:

* تَأْوِيلُها وصَرْفُها عن مَوضُوعِ الخِطابِ!

فمَا أَوَّلَها السَّلَفُ، ولا حَرَّفُوا أَلفاظَها عن مَواضِعِها، بلْ آمَنُوا بِها، وأَمَرُّوها كَما جاءَتْ.

* **المَقامُ الثَّانِي**: المُبالَغَةُ في إِثباتِها، وتَصَوُّرُها مِن جِنسِ صِفاتِ البَشَر، وتَشَكُّلُها في الذِّهْنِ!

فهذا جَهْلٌ وضَلَالٌ.

وإِنَّمَا الصِّفَةُ تابِعَةٌ لِلمَوصُوفِ.

فإِذا كانَ المَوصُوفُ -عَزَّ وجَلَّ- لَمْ نَرَهُ، ولا أَخْبَرَنَا أَحَدٌ أَنَّهُ عايَنَهُ -مع قَولِهِ لَنَا في تَنْزِيلِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]-؛فكيف بَقِيَ لِأذهانِنَا مَجالٌ في إِثباتِ كَيفِيَّةِ البارئ -تعالَىٰ اللهُ عن ذلِك-؟!

فكذلِكَ صِفَاتُهُ المُقدَّسَةُ؛ نُقِرُّ بِها، ونَعْتَقِدُ أَنَّها حَقٌّ، ولا نُمَثِّلُها -أَصْلًا-، ولا نَتَشَكَّلُها».

○ **(فائدةٌ): تَعريفُ (الكُفْرِ) -في الشَّرْعِ-:**

نَقَلَ الأَزْهَرِيُّ عن اللَّيثِ -في تَعريفِهِ-، أنَّهُ: «نَقِيضُ الإيمان»[١].

وقال الرَّاغِبُ الأَصفهانِيُّ: «الكافِرُ -علىٰ الإطلاقِ-: مُتعارَفٌ فيمَن يَجْحَدُ الوحدانِيَّةَ، أو النُّبُوَّةَ، أو الشَّريعَةَ -أو ثلاثَتَها-»[٢].

وقال ابنُ حَزْم -في تَعريفِ (الكُفْر) -في الشَّريعةِ-: «جَحْدُ الرُّبُوبِيَّة، وجَحْدُ نُبُوَّةِ نَبِيٍّ مِن الأَنبياء صَحَّت نُبُوَّتُهُ في القُرآن، أو جَحْدُ شَيءٍ مِمَّا أَتَىٰ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ -مِمَّا صَحَّ عند جاحِدِه- بِنَقْلِ الكافَّةِ-، أو عَمَلُ شيءٍ قامَ البُرهانُ بأنَّ العَمَلَ بِهِ كُفْرٌ»[٣].

وقالَ ابنُ القَيِّم: «**الكُفْرُ**: جَحْدُ ما عُلِمَ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ جاءَ بِهِ، سَواءٌ كانَ مِن المَسائلِ الّتي يُسَمُّونَها: (عِلمِيَّة)، أو: (عملِيَّة)؛ فمَن جَحَدَ ما جاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ -بَعْدَ مَعرِفَتِهِ بأنَّهُ جاءَ بِهِ-؛ فهُو كافِرٌ في دِقِّ الدِّينِ وجُلِّهِ»[٤].

وقال العلّامةُ السَّعْدِيُّ: «حَدُّ (الكُفْرِ) -الجامِعُ لِجَمِيعِ أَجناسِهِ، وأنواعِهِ، وأَفرادِهِ- هُو: جحدُ ما جاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، أو جَحدُ بعضِهِ»[٥].

ويَقُولُ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ: «وَفَرْقٌ بَيْنَ معنَىٰ الاسْمِ المُطلَقِ، إذَا قِيلَ:

---

(١) «تَهذِيب اللُّغة» (٤/ ٣١٦٠).

(٢) «المُفرَدَات» (ص٧١٥).

(٣) «الفِصَل» (٣/ ٢٥٣).

(٤) «مُختصَر الصَّواعِق المُرسَلَة» (ص٦٢٠).

(٥) «الإرشاد إلىٰ مَعرِفة الأَحكام» (ص٢٠٣، ٢٠٤).

كافِرٌ، أو: مُؤمِنٌ، وبَيْنَ المعنَىٰ المُطلَق للاسْمِ -في جَمِيعِ مَوارِدِهِ-؛ كما في قَولِهِ ﷺ: «**لا تَرجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضرِبُ بَعضُكُم رِقابَ بَعض**»[(١)]:

فَقَولُه: «**يَضرِبُ بَعضُكُم رِقابَ بَعض**»: هؤلاءِ يُسَمَّوْنَ (كُفَّارًا) تَسمِيَةً مُقيَّدَةً، ولا يَدخُلُونَ في الاسْمِ المُطلَقِ إذا قِيلَ: (كافِر)، و: (مُؤمِن)»[(٢)].

أَوْ قُلْ: (كُفْرٌ أَصْغَر)[(٣)] -دُونَ الأَكْبَر-.

«وقد اسْتَبَّ كَثيرٌ مِن الصَّحابة علىٰ عَهدِهِ، وفِي حُضُورِه؛ فَوَعَظَهُم، وأَصْلَحَ بَيْنَهُم، ولَمْ يُكفِّرْهُم! بَلْ بَقَوْا أَنْصارَهُ، ووُزَرَاءَهُ في الدِّين»[(٤)].

○ (فائدةٌ): العَلاقَةُ بَيْنَ المعنَىٰ اللُّغَوِيِّ، والمَعْنَىٰ الشَّرعِيِّ لِلكُفْرِ[(٥)]:

المعنَىٰ الشَّرعِيُّ لِلكُفْرِ مُسْتَقًىٰ مِن المعنَىٰ اللُّغَوِيِّ لِلَفْظَةِ (الكُفْرِ) -كما دَلَّت علىٰ ذلِكَ أَقوالُ العُلماءِ المُحقِّقِين-:

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (١٢١)، ومُسلمٌ (٦٥).

(٢) «اقتِضاء الصِّراط المُستَقِيم» (١/ ٢١٢).

(٣) «فَتَاوَىٰ ابنِ باز» (٩/ ١٢٥)، و«التَّمهيد بِشَرْحِ كتابِ (التَّوحِيد)» (ص٣٩٤) -لِصالِح آل الشَّيخ-.

قُلْتُ:

وبَعْضُ العُلماءِ يُطلِقُ علىٰ (الكُفْرِ الأَصْغَرِ): أَنَّهُ: (كُفْرٌ عَمَلِيّ)!

وفِي هذا تَجَوُّزٌ!!

(٤) «معارِج القَبُول» (٣/ ١٠١٧) -لِلعلَّامة حافِظ الحَكَمِي-.

(٥) «التَّكفِير وضَوابِطه» (ص٥٨-٥٩) -للأخِ الشَّيخ الدُّكتور إبراهيم الرُّحَيلي- .

والتَّعلِيقاتُ لَهُ.

قال اللَّيثُ: «إنَّما سُمِّيَ الكافِرُ كافِرًا؛ لأنَّ الكُفْرَ غطَّىٰ قَلْبَهُ»[١].

قال الأَزهَرِيُّ: «ومعنَىٰ قَولِ اللَّيْثِ -هذا- يَحتاجُ إلىٰ بَيانٍ يَدُلُّ عليهِ:

وإيضاحُهُ: أنَّ الكُفْرَ -في اللُّغَةِ- مَعناهُ: التَّغطِيَةُ، والكافِرُ ذُو كُفْرٍ؛ أي: ذُو تَغطِيَةٍ لِقَلْبِهِ بِكُفْرِهِ، كما يُقالُ لِلابِسِ السِّلاحِ: كافِرٌ، وهُو الّذي غَطَّاهُ السِّلاحُ.

وفِيهِ قَولٌ آخَرُ أَحسَنُ مِمَّا ذَهَبَ إليهِ اللَّيثُ؛ وذلِكَ أنَّ الكافِرَ لَمَّا دَعاهُ اللهُ -جَلَّ وعَزَّ- إلىٰ تَوحِيدِهِ، فقد دَعاهُ إلىٰ نِعمَةٍ يُنْعِمُ بِها عليهِ إذا قَبِلَها؛ فلمَّا رَدَّ ما دَعاهُ إلَيْهِ مِن تَوحيدٍ: كانَ كافِرًا نِعمَةَ الله؛ أي: مُغَطِّيًا لَها بإبائِه»[٢].

وقال ابنُ فارِس: «والكُفْرُ ضِدُّ الإيمانِ؛ سُمِّيَ لأنَّهُ تَغطيةُ الحَقِّ»[٣].

فَظَهَرَ -بِهذا- ارْتِباطُ المعنَىٰ الشَّرعِيِّ لِلكُفْرِ بالمعنَىٰ اللُّغَوِيِّ، وأنَّ المعنَىٰ الشَّرعِيَّ مُستمَدٌّ مِن المعنَىٰ اللُّغَوِيِّ -وإنِ اخْتَلَفَت أَقوالُ العُلماءِ في وَجهِ التَّرابُطِ بَيْنَهُما -بَعْدَ اتِّفاقِهِم أنَّ معنَىٰ السَّتْرِ والتَّغطِيَةِ كامِنٌ في المعنَىٰ الشَّرعِيِّ -واللهُ أَعلَمُ-».

○ (فائدةٌ): أَنواعُ (الكُفْرِ)، وأَقسامُهُ:

ومِمَّا يَجِبُ التَّنبِيهُ علَيها -هُنا- ولَو إجمالًا- تَقاسِيمُ وأنواعٌ -مُهِمَّةٌ-:

---

(١) انظُر: «تهذيب اللُّغة» (٤/ ٣١٦١) -لِلأزهَرِيِّ-، و«لِسان العرب» (٥/ ١٤٥) -لابنِ مَنظُور-.

(٢) «تهذيب اللُّغة» (٤/ ٣١٦١).

(٣) «مُعجَم مَقاييس اللُّغة» (٥/ ١٩١).

أَوَّلًا: أنَّ (الكُفْرَ) مِنهُ: أَكبَر، ومِنهُ: أَصغَر[١].

ثانِيًا: مِنهُ: ما يَقَعُ بالفِعْلِ -العَمَل-، ومِنهُ: ما يَقَعُ بالقَوْلِ، ومِنهُ: ما يَقَعُ بالاعْتِقادِ.

ثالِثًا: وأَنَّهُ أَنواعٌ: تَكذِيبٌ، واسْتِكبارٌ، وإعراضٌ، وشَكٌّ، وجُحُودٌ[٢].

رابِعًا: أنَّ الوَصْفَ النَّوعِيَّ بالكُفْرِ -(مَن فَعَلَ كذَا فقد كَفَرَ، أو: فهُو كافِرٌ)- لا يَلزَمُ مِنهُ أنَّ كُلَّ فاعِلٍ لِهذَا فهُو كافِرٌ.

إذْ لا بُدَّ مِن تَحَقُّقِ شُرُوطٍ -لِلْحُكْمِ علىٰ الشَّخْصِ-، وانْتِفاءِ مَوانِعَ[٣].

وشَرْحُ ذلِك -وتَفصِيلُه- يَطُولُ...

(١) ويُعَبِّرُ بَعضُ العُلماءِ عن ذلِك -أحيانًا- بِقَولِهِم: (كُفْرٌ اعتِقادِيٌّ)، و: (كُفْرٌ عَمَلِيٌّ) -كما تَقَدَّمَ- تَعليقًا-!

وهُو شَيْءٌ غَيرُ الَّذِي يَلِيه؛ فتَنَبَّهْ.

(٢) «مَدارِج السَّالكِين» (١/ ٣٤٦).

(٣) انظُر كتابَ «التَّكفِير وضَوابِطُه» (ص٢٥١-٢٩٠)؛ فهُو مُهِمٌّ، وكتابي «التبصير بقواعد التكفير» (ص٣١-٣٧).

-٣٣، ٣٤-

وَيْـلَاهُ مِـن وَزْنِ العَمَـلْ ... وبَحْـرُهُ عِنـدِي وَشَـلْ

قَـدْ غـاضَ طَامِيـهِ وَقَـلّ ... فَمَـا[1] تَـرَىٰ في مَنْبَـعِ

□ الشَّرحُ الإجماليّ:

يَقُولُ: إنِّي لَأَخَافُ اللهَ -تعالىٰ- عِندَ وَزْنِ الأَعمالِ -يَومَ القِيامَةِ-؛ فالأَعمالُ الصَّالِحَةُ عِندِي قَليلَةٌ؛ فهي -مِن جِهَةٍ- كَبَحْرٍ نَقَصَ ماؤُهُ -المُفتَرَضُ زِيادَتُهُ-، وَقَلَّ؛ ولا مَنْبَعَ يَمُدُّهُ ويُعْطِيهِ -ويَزِيدُهُ-؛ فَمَا فائِدَتُهُ؟!

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (**وَيْلاهُ**)؛ قال الجَوهَرِيُّ في «الصِّحاحِ» (٥/ ١٨٤٦):

«(**وَيْلٌ**): كَلِمَةٌ مِثْلُ (وَيحٍ)؛ إلَّا أنَّها كَلِمَةُ عَذابٍ، يُقالُ: وَيْلَهُ، و: وَيْلَكَ، ووَيْلِي.

وفي النُّدْبَةِ[2]: وَيْلاهُ!».

ونَقَلَ العَسكَرِيُّ في «الفُرُوق» (ص٥٧٩) عن سِيبَوَيه قَولَهُ: «(وَيْح): زَجْرٌ لِمَن أَشْرَفَ علىٰ الهَلَكَةِ، و(وَيْلٌ): لِمَن وَقَعَ فيها».

---

(١) وفي نُسخَةٍ: (كَمَا).

(٢) **النُّدْبَةُ**؛ هي: الاستِصْرَاخُ بالمَفقُودِ، أو ما أُقِيمَ مَقامَهُ -علىٰ جِهَةِ التَّفجُّعِ، أو التَّوجُّعِ-؛ لا لأنْ يُجِيبَ.

كما في «شَرح أَلفِيَّة ابنِ مالِك» (٥/ ٣٧٦) -للشَّاطِبِيِّ-.

وفي «الفائِق» (٤/ ٨٥) -لِلزَّمَخْشَرِيِّ- نَقْلًا عن الفَرَّاءِ-: «إنَّ (الوَيْلَ) كَلِمَةُ شَتْمٍ، ودُعاءُ سُوءٍ».

فَـ(وَيْلاهُ)[1] -إِذَن- في الشِّعْرِ- هُنا- (للنُّدْبَةِ) -تَوَجُّعًا وتَفَجُّعًا-.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

وَيْلَاهُ إنْ نَظَرَتْ وإنْ هِيَ أَعرَضَتْ وَقْـعَ السِّهَـامِ وَنَزْعُهُـنَّ أَلِـيـمُ

كَمَا في «التَّمثِيل والمُحاضَرَة» (ص٢٩٥) -لِلثَّعالِبِيِّ-.

* **(وَشَل)**؛ قالَ الحِمْيَرِيُّ في «شَمْسِ العُلُوم ودَواءِ كَلامِ العَرَبِ مِن الكُلُوم» (١١/ ٧١٧٠):

«**الوَشَلُ**: الماءُ القَلِيلُ.

قالَ بَعضُ العَرَبِ -في وَصْفِ بِلادِ الهِند-: «ماؤُها وَشَل، وتَمْرُها دَقَل[2]، ولِصُّهَا بَطَل».

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

مُلْكُ كِسْرَىٰ تُغْنِي عنهُ كِسْرَةٌ وعَنِ البَحْرِ اجْتِزاءٌ بِالـوَشَلْ

وهو مِن «لامِيَّةِ ابنِ الوَرْدِيِّ» (رقم ٣٣) -الشَّهِيرَةِ-.

---

(١) وأمَّا حَدِيثُ «**وَيْلٌ: وادٍ في جَهَنَّم**...» -علىٰ اشْتِهارِهِ بَيْنَ النَّاس!-؛ فهُو ضَعيفٌ لا يَصِحُّ: رواهُ التِّرمِذِيُّ (٢٥٧٦)، وأحمدُ (١١٧١٢)، والحاكِمُ (٣٨٧٣)، وابنُ حِبَّانَ (٧٤٦٧) عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ -بِسَنَدٍ ضَعَّفَهُ الإمامُ ابنُ كَثِير في «تَفسِيرِه» (١/ ٣١٢)، و(٨/ ٢٦٦)-.

(٢) أَيْ: رَدِيء.

وانظُر شَرْحَها «فَتْحَ الرَّحِيمِ الرَّحْمنِ» (ص١٩٣) -لِلْقِنَاوِيِّ-.

* **(غاضَ)**؛ قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ في «غَرِيبِ الحَدِيثِ» (١/ ٥٦٥): «غاضَ الماءُ، يَغِيضُ، غَيْضًا: إذَا نَقَصَ».

و«غِيضَ: إذا فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ» -كما في «مُجْمَل اللُّغَةِ» (١/ ٦٨٩) -لابنِ فارِس-.

ومِنهُ: قولُ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ[1]﴾[هود:٤٤].

ومِنهُ -كذلِكَ- قَولُ الشَّاعِرِ:

وَأَخْطَأَتْنِي المَنَايَا لا تُطَالِعُنِي ... حَتَّىٰ كَبِرْتُ ولَمْ يَتْرُكْنَ لِي نَشَبَا
وكُنتُ بَعْدَ طُفَيلٍ كالَّذِي نَضَبَتْ ... عَنهُ السُّيُولُ وغَاضَ المَاءُ فَانْقَضَبَا[2]

* **(طَامِيهِ)**؛ قال ابنُ مَنظُور في «لِسان العَرَب» (١٥/ ١٥): «طَمَا المَاءُ يَطْمُو طُمُوًّا، ويَطْمِي طُمِيًّا: ارْتَفَعَ، وعَلَا؛ ومَلأَ النَّهَرَ، فهُوَ (طامٍ)، وكذلِكَ: إذا امْتَلأَ البَحْرُ، أو النَّهْرُ، أو البِئْرُ».

---

(١) «أَشَارَ بِهاتَيْنِ اللَّفظَتَيْنِ إلَىٰ: انْقِطاعِ مادَّةِ الماءِ مِن مَطَرِ السَّماءِ، ونَبْعِ الأَرْضِ، وذَهابِ الماءِ الّذي كانَ حاصِلًا علىٰ وَجْهِ الأَرضِ قَبْلَ الإخبارِ؛ إذْ لَو لَمْ يَكُن ذلِكَ لَمَا غاضَ الماءُ».

كما في «تَحرير التَّحبِير في صِناعَةِ الشِّعرِ والنَّثْرِ، وبَيانِ إعجازِ القُرآن» (ص٢٠٢) -لابنِ أَبِي الإصْبُع العَدْوانِيّ البَغدادِيّ-.

(٢) «الكامِل في التَّارِيخ» (٣/ ٤٩٤) -لابنِ الأَثِير-.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِر:

فَلِلْفُلْكِ في طامِي العُبَابِ تَحَدُّرٌ ولِلْعِيسِ في بَحْرِ السَّرَابِ رُسُوبُ[١]

○ **(فائدةٌ): وَزْنُ أَعمالِ العِبادِ -يَومَ القِيامَةِ-:**

قال الإمامُ البَغَوِيُّ في «مَعالِمِ التَّنزِيل» (٣/ ٢١٥) -في تَفسِيرِ قولِ اللهِ-تعالىٰ-: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف:٨-٩]:

«قالَ الأَكثَرُون: أرادَ بِهِ وَزْنَ الأَعمالِ بالمِيزانِ، وذَاكَ أَنَّ اللهَ -تعالىٰ- يَنصِبُ مِيزانًا، لَهُ لِسانٌ وكِفَّتَان؛ كُلُّ كِفَّةٍ بِقَدْرِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغرِبِ.

واخْتَلَفُوا في (كَيفِيَّةِ الوَزْنِ)، فقالَ بَعضُهُم: تُوزَنُ صَحائفُ الأَعمالِ.

ورُوِّينَا: «**أَنَّ رَجُلًا يُنشَرُ عليهِ تِسعَةٌ وتِسعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، فيُخْرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ فِيها: (شَهادَةُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ)، فتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ في كِفَّةٍ، والبِطاقَةُ في كِفَّةٍ، فطاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وثَقُلَتِ البِطاقَةُ**»[٢].

وقِيلَ: تُوزَنُ الأَشخاصُ:

ورُوِّينَا عن رسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ،**

---

(١) «النُّكَت العَصْرِيَّة في أَخبارِ الوُزَراء المِصرِيَّة» (ص٦٥) -لِنَجْمِ الدِّينِ اليَمَنِيِّ-.

(٢) رَواهُ التِّرمِذِيُّ (٢٨٢٩)، وابنُ ماجَه (٤٣٠)، وأحمد (٦٩٩٤)، وابنُ حِبَّان (٢٢٥) عن عبدِ الله بنِ عَمْرو -بسَنَدٍ صَحيحٍ-.

فلَا يَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ»[١].

وقِيلَ: تُوزَنُ الأَعمالُ -رُوِيَ ذلِكَ عن ابنِ عَبَّاس-: فيُؤتَىٰ بالأَعمالِ الحَسَنَةِ علىٰ صُورةٍ حَسَنَةٍ، وبالأَعمالِ السَّيِّئَةِ علىٰ صُورَةٍ قَبيحَةٍ، فتُوضَعُ في المِيزانِ.

والحِكمَةُ في وَزْنِ الأَعمالِ: امْتِحانُ اللهِ عِبادَهُ بالإِيمانِ في الدُّنيا، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم في العُقبَىٰ.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ قالَ مُجاهِدٌ: حَسَناتُهُ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٩]: يَجْحَدُون.

قالَ أَبُو بَكْرٍ -رضيَ اللهُ عنهُ- حِينَ حَضَرَهُ المَوتُ -في وَصِيَّتِهِ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: (إنَّما ثَقُلَت مَوازِينُ مَن ثَقُلَت مَوازِينُهُ -يَومَ القِيامَةِ-: باتِّباعِهِم الحَقَّ في الدُّنيا، وثِقَلِهِ عَلَيْهِم، وحُقَّ لِمِيزانٍ يُوضَعُ فِيهِ الحَقُّ -غَدًا- أنْ يَكُونَ ثَقِيلًا.

وإنَّمَا خَفَّتْ مَوازِينُ مَن خَفَّتْ مَوازِينُهُ -يَومَ القِيامَةِ-: باتِّباعِهِم الباطِلَ في الدُّنيا، وخِفَّتِهِ عَلَيْهِم، وحُقَّ لِمِيزانٍ يُوضَعُ فيهِ الباطِلُ -غَدًا- أنْ يَكُونَ خَفِيفًا)[٢].

فإنْ قِيلَ: قَد قالَ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ذُكِرَ بِلَفظِ الجَمْعِ، والمِيزانُ واحِدٌ؟!

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٧٢٩)، ومُسلمٌ (٢٧٨٥) عن أَبِي هُريرَةَ.

(٢) رَواهُ أَبُو نُعَيم في «حِلْيَةِ الأَولِياء» (١/ ٣٦)، وفي «مَعرِفَةِ الصَّحابَة» (١/ ٣٥)، وابنُ أَبِي شَيْبَةَ في «مُصنَّفِهِ» (٣٤٤٣٣).

قِيلَ: يَجُوزُ أنْ يَكُونَ لَفظُهُ جَمْعًا، ومَعناهُ واحِدٌ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١].

وقِيلَ: لِكُلِّ عَبْدٍ مِيزانٌ.

وقِيلَ: الأَصلُ مِيزانٌ واحِدٌ عَظيمٌ، ولِكُلِّ عَبْدٍ فِيهِ مِيزانٌ مُعلَّقٌ بِهِ.

وقِيلَ: جَمَعَهُ؛ لأنَّ المِيزانَ يَشْتَمِلُ علىٰ الكِفَّتَيْنِ، والشَّاهِدَيْنِ، واللِّسانِ، ولا يَتِمُّ الوَزْنُ إلّا باجْتِماعِهَا».

قال القُرطُبِيُّ في «التَّذكِرَة في أحوالِ المَوْتَىٰ وأُمُورِ الآخِرَة» (١/ ٧١٥):

«وإذَا انْقَضَىٰ الحِسابُ: كان بَعْدَهُ وَزْنُ الأَعمالِ؛ لأنَّ الوَزْنَ للجَزاءِ، فيَنْبَغِي أنْ يَكُونَ بَعدَ المُحاسَبَةِ، فإنَّ المُحاسَبَةَ لِتَقدِيرِ الأَعمالِ، والوَزْنَ لِإظهارِ مَقادِيرِها؛ لِيَكُونَ الجَزاءُ بحَسَبِها».

و(المِيزانُ) مِيزانٌ حَقيقيٌّ:

فقد رَوَىٰ سَلمانُ، قال: «**يُوضَعُ المِيزانُ يَومَ القِيامَةِ؛ فلو وُزِنَ فيهِ السَّماواتُ والأرضُ لَوَسِعَتْ، فتَقُولُ المَلائكَةُ: يا رَبِّ لِمَن يَزِنُ هذا؟**

فيَقُولُ اللهُ -تعالىٰ-: لِمَن شئتُ مِن خَلْقِي.

فتَقُولُ المَلائكَةُ: سُبحانَكَ؛ ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِك»[1].

---

(١) رَواهُ الآجُرِّيُّ في «الشَّريعَة» (٨٩٤)، واللَّالَكائِيُّ في «شَرحِ أُصولِ الاعتِقاد» (٢٢٠٨)، وابنُ الأَعرابِيِّ في «المُعجَم» (١٨٢٧).

قالَ شيخُنا الإمامُ الألبانِيُّ في «السِّلسِلَةِ الصَّحيحَةِ» (٢/ ٦١٩): «وإسنادُهُ صحيحٌ، ولَهُ =

واللهُ -سُبحانَهُ- يَقُولُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

وقال الحافِظُ ابنُ حَجَر في «فَتْح البارِي» (١٣/ ٥٣٨) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«قال أَبُو إسحاقَ الزَّجَّاجُ: «أَجمعَ أَهلُ السُّنَّةِ علىٰ الإيمانِ بالمِيزانِ، وأَنَّ أَعمالَ العِبادِ تُوزَنُ بهِ يَومَ القِيامَةِ، وأَنَّ المِيزانَ لَهُ لِسانٌ، وكِفَّتَانِ، ويَمِيلُ بالأَعمالِ.

وأَنْكَرَتِ المُعتَزِلَةُ المِيزانَ، وقالُوا: هُو عِبارَةٌ عن العَدلِ!

فخالَفُوا الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ لأَنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَضَعُ المَوازِينَ لِوَزْنِ الأَعمالِ؛ لِيَرَىٰ العِبادُ أَعمالَهُم مُمَثَّلَةً؛ لِيَكُونُوا علىٰ أَنفُسِهِم شاهِدِين.

وقالَ ابنُ فُورَك: أَنكَرَت المُعتَزِلَةُ المِيزانَ؛ بِناءً مِنهُم علىٰ أَنَّ الأَعراضَ يَستحِيلُ وَزْنُها؛ إذْ لا تَقُومُ بأَنفُسِها!!

وقد ذَهَبَ بعضُ السَّلَفِ إلىٰ أَنَّ (المِيزانَ) بمعنَىٰ: (العَدل والقَضاء)، وعَزَا الطَّبَرِيُّ القَولَ بذلِكَ إلىٰ مُجاهِد!

والرَّاجِحُ: ما ذَهَبَ إليهِ الجُمهُورُ.

وذُكِرَ (المِيزانُ) عندَ الحَسَنِ، فقال: لَهُ لِسانٌ، وكِفَّتانِ».

وقال شيخُ الإسلامِ في «مَجمُوع الفتاوَىٰ» (٤/ ٣٠٢):

«**المِيزانُ**: هُو ما يُوزَنُ بهِ الأَعمالُ، وهو غَيرُ (العَدْل)؛ كما دَلَّ علىٰ ذلِكَ

=
حُكْمُ المَرفُوع؛ لأَنَّهُ لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأْيِ».

الكِتابُ والسُّنَّةِ، مِثلُ قَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون:١٠٣]، وقولِهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وفي «الصَّحِيحَيْن»[١] عن النبيِّ ﷺ، أنَّهُ قالَ: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علىٰ اللِّسان، ثَقِيلتانِ في المِيزان، حَبِيبَتانِ إلىٰ الرَّحمن: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِهِ، سُبحانَ اللهِ العَظِيم**».

وقال عن ساقَيْ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُود: «**لَهُمَا في المِيزانِ أَثقَلُ مِن أُحُد**»[٢].

وهذا -وأَمثالُهُ- ممَّا يَتَبَيَّنُ أنَّ الأَعمالَ تُوزَنُ بِمَوازِينَ بِها رُجْحانُ الحَسَناتِ علىٰ السَّيِّئاتِ -وبالعَكس-.

فهو ما بِهِ يَتَبَيَّنُ العَدلُ، والمَقصُودُ بالوَزْنِ: العَدلُ -كمَوازِينِ الدُّنيا-.

وأَمَّا كَيفِيَّةُ تِلكَ المَوازِينُ؛ فهو بمَنزِلَةِ كَيفِيَّةِ سائِرِ ما أُخبِرْنَا بِهِ مِن الغَيْبِ»[٣].

وقال القُرطُبِيُّ في «التَّذكِرَة» (١/ ٧٢٤): «قال عُلماؤُنا: ولَو جازَ حَمْلُ (المِيزانِ) علىٰ ما ذَكَرُوهُ؛ لَجَازَ حَملُ الصِّراطِ علىٰ الدِّينِ الحَقِّ! والجَنَّةِ والنَّارِ علىٰ ما يَرِدُ علىٰ الأَرواحِ دُونَ الأَجسادِ مِن الأحزانِ والأَفراحِ! والشَّياطِينِ والجِنِّ علىٰ الأَخلاقِ المَذمُومةِ! والمَلائكَةِ علىٰ القِوَىٰ المَحمُودَةِ!!

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٦٤٠٦)، ومُسلمٌ (٢٦٩٤) عن أَبِي هُريرَةَ.

(٢) رَواهُ أَحمدُ (٩٢٠)، والبُخارِيُّ في «الأَدَب» (٢٣٧) -المُفرَد-، وابنُ حِبَّان (٧٠٦٩) بسَنَدٍ حَسَن.

(٣) وانظُر «جامِع المسائِل» (١/ ٣٢- المجمُوعة السَّابعة) -لَهُ- رَحِمَهُ اللهُ-.

وهذا -كُلُّهُ- فاسِدٌ؛ لأنَّهُ رَدٌّ لِمَا جاءَ بِهِ الصَّادِقُ.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**فيُعْطَىٰ صَحيفَةَ حَسَناتِه**»[1]؛ وذلِكَ يَدُلُّ علىٰ المِيزانِ الحَقيقيِّ، وأنَّ المَوزُونَ صُحُفُ الأَعمالِ».

○ (فائدةٌ): حَولَ (اللِّسان) لِـ(المِيزان):

أَكثَرُ كَلامِ العُلماءِ في إثباتِ (المِيزان) -فَقَط- كَمَا فِي «مَتْن العَقِيدَةِ الطَّحاوِيَّة» (رَقْم: ٨٢- بتحقيقي) -وغَيْرِهِ-.

ووَقَعَ ذِكْرُ (لِسانِهِ) في كَلامِ بَعضِهِم؛ كما قالَ ابنُ قُدَامَةَ في «لُمْعَة الاعتِقاد» (رَقْم:٦١): «وللمِيزانِ كِفَّتان ولِسان..» -وغَيْرُه-.

ولَمْ أَرَ دَلِيلًا خاصًّا -بَعْدَ البَحْثِ!- علىٰ إثباتِ (اللِّسانِ).

نَعَم؛ نَقَلَ الحافِظُ ابنُ حَجَر في «الفَتْح» (١٣/ ٥٣٨) عن أَبِي إِسحاق الزَّجَّاج إِجماعَ أَهلِ السُّنَّةِ علىٰ ذَلِكَ.

فإِنْ صَحَّ هذا الإِجماعُ -فَضْلًا عن دَليلٍ لَم أَقِف عليه[2]-؛ فالقولُ بِهِ واجِبٌ.

ومِن مَسائلِ «كِتاب التَّوحيد» -في (بابِ فَضْلِ التَّوحيد) (ص٦)- للشَّيخِ الإمامِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّاب-: «مَعرِفَة أنَّ المِيزان لَهُ كِفَّتان»؛ فلَم يَذكُر (اللِّسان).

وَسَبَقَ كَلامُ شَيخِ الإِسلامِ ابنِ تَيميَّةَ في «مَجموع الفتاوَىٰ» (٤/ ٣٠٢) حَول

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٦٨٥)، ومُسلِمٌ (٢٧٦٨) عن ابنِ عُمَرَ.

(٢) ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

(المِيزانِ)، قال: «وأمَّا كَيفيَّة تِلكَ المَوازِين؛ فهُو بمَنزِلَةِ كَيفيَّةِ سائرِ ما أُخْبِرْنَا بِهِ مِن الغَيْبِ».

وانظُر «التَّذْكِرَة» (٢/ ٧١٥-٧٣٥) -لِلقُرطُبِيِّ-، و«شَرْح السُّنَّة» (ص٤٢) -لِلبَرْبَهارِيِّ-، و«شَرح قصيدة ابنِ القَيِّم» (٢/ ٥٩٣) -لابنِ عِيسَىٰ-، و«مَقالات الإسلامِيِّين» (٤٧٢) -لِأَبِي الحَسَن الأَشعَرِيِّ-، و«الإبانَة الصُّغرَىٰ» (ص١٠٨-بتحقِيقي) -لابنِ بَطَّةَ-، و«لَوائح الأَنوار السَّنِيَّة» (٢/ ٣٩) -لِلسَّفَّارِينِيِّ-، و«الفِصَل في المِلَل والأَهواءِ والنِّحَل» (٤/ ٥٤ -للإمام أبي محمّد ابنِ حَزْمٍ الأَندلُسِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-) -مُهِمّ-.

ولِلحافِظِ ابنِ ناصِرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيِّ كِتابُ: «مِنهاج السَّلامَة في مِيزانِ يَومِ القِيامَة» -مَطبُوعٌ-.

ولِلشَّيخِ مَرْعِي الكَرْمِيِّ الحَنْبَلِيِّ: «تَحقيق البُرهان في إِثباتِ حَقيقةِ المِيزان» -مَطبُوعٌ -أيضًا-.

-٣٥، ٣٦-

وَاعْتَرَضَـــتْ جَهَـــنَّمُ وَنَارُهَـــا تَـــضْطَرِمُ
وَكُـــبَّ فِيَهـــا المُجْـــرِمُ وَقِيـــلَ يـــا نَـــارُ ابْلَعِـــي

◘ المعنَىٰ الإجماليّ:

إِنَّ جَهَنَّمَ جاءَت لِأهلِها وأَرْبابِها، تَجِدُّ في إحضارِهِم إلَيها، وجَلْبِهِم لَهَا؛ فهِي شَدِيدَةُ اشْتِعالِ النِّيرانِ، عَظيمتُهُ..

فيُلْقَىٰ فيها المُجرِمُونَ، وتَبْتَلِعُهُم في جَوْفِها، وحَرِّها، وهِي تَقُولُ: «**هَلْ مِن مَزِيد**»[١]؟!

... «**اللهمَّ إنّا نسألُك الجَنَّةَ، ونَعُوذُ بكَ مِن النَّارِ**»[٢].

◘ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ:

* الأَصلُ في (**اعترَضَت**): مِن الاعتِرَاضِ؛ وهو: «المَنعُ»[٣].

ولَكِنَّها -هُنا- بِمَعنَىٰ: جاءَت، وحَضَرَت.

والله -تعالَىٰ- يَقُولُ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[الكهف:١٠٠].

قال البَغَوِيُّ في «تَفسِيرِه» (٣/ ٢٢٠) -مُفسِّرًا هذه الآيةَ الكَرِيمَةَ-:

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٦٦٦١)، ومُسلِمٌ (٢٨٤٨) عن أَنَس بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) سيأتِي تَخريجُه (ص٢١٦).

(٣) «تَاج العَرُوس» (١٨/ ٤٠٨) -لِلزَّبِيدِيِّ-.

«أَبْرَزْنَا جَهنَّمَ -يَومَئِذٍ- لِلكافِرِينَ؛ حتَّىٰ يُشاهِدُوهَا عِيانًا».

«لِيَكُونَ ذلِكَ أَبْلَغَ في تَعجِيلِ الهَمِّ والحَزَنِ لَهُم» -كما قالَ ابنُ كَثِير (٥/ ٢٠١)-.

وفي «صَحيحِ البُخارِيِّ» (٧٤٣٩) -مِن حَدِيثِ أَبِي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ- عن الرَّسُولِ ﷺ قال -ضِمنَ حَديث-: «**ثُمَّ يُؤتَىٰ بِجَهنَّمَ تُعْرَضُ كأَنَّها سَراب**».

و«**تُعرَضُ**»؛ أي: تُنْصَب.

ورَوَىٰ مُسلمٌ (٢٨٤٢)، عن ابنِ مَسعُودٍ، أَنَّهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**يُؤتَىٰ بِجَهنَّم -يَومَئِذٍ- لَها سَبعُونَ أَلفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعُونَ أَلفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها**».

وَرَوَىٰ أحمدُ (١٥٩٥٨)، والنَّسائيُّ في «الصُّغرَىٰ» (٦/ ٢١)، وابنُ حِبَّان (٤٥٩٣) -بِسَنَدٍ صَحيحٍ- عن سَبْرَةَ بنِ أَبِي فاكِهٍ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إنَّ الشَّيطانَ قَعَدَ لابنِ آدَمَ بأَطْرُقِهِ؛ فقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإسلامِ، فقال لَهُ: أَتُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ، ودِينَ آبائِكَ، وآباءِ أَبِيكَ؟! قال: فعَصَاهُ، فأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجرَةِ، فقالَ: أَتُهاجِرُ، وتَذَرُ أَرْضَكَ، وسَماءَكَ -وإنَّمَا مَثَلُ المُهاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ[1]-؟! قال: فَعَصَاهُ، فَهاجَرَ، قال: ثُمَّ قَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الجِهادِ، فقال: هوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمَالِ، فتُقاتِلُ فتُقْتَلُ، فتُنْكَحُ المَرأَةُ، ويُقَسَّمُ المَالُ؟! قالَ: فعَصَاهُ، فجاهَدَ**».

(١) قال السُّيُوطِيُّ في «حاشِيَتِهِ» علىٰ «سُنَن النَّسائيِّ» (٦/ ٢١): «الحَبْلُ الطَّوِيلُ يُشَدُّ أَحَدُ طَرَفَيْهِ في وَتَدٍ -أَو غَيْرِهِ-، والطَّرَفُ الآخَرُ في يَدِ الفَرَس؛ لِيَدُورَ فِيه، ويَرْعَىٰ، ولا يَذهَبَ بِوجهِه».

فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فمَن فَعَلَ ذَلِكَ مِنهُم، فمَاتَ: كانَ حَقًّا علىٰ اللهِ أنْ يُدخِلَهُ الجَنَّةَ، أو قُتِلَ: كانَ حَقًّا علىٰ اللهِ أنْ يُدخِلَهُ الجَنَّةَ، وإنْ غَرِقَ: كانَ حَقًّا علىٰ اللهِ أنْ يُدخِلَهُ الجَنَّةَ، أو وَقَصَتْهُ دابَّةٌ: كانَ حقًّا علىٰ اللهِ أنْ يُدخِلَهُ الجَنَّةَ**».

* (**جَهَنَّم**)؛ هي: النَّارُ.

قال أَبُو بَكر الأَنبارِيُّ في «الزَّاهِر في معانِي كَلِمات النَّاس» (٢/ ١٤٦):

«وفي (جَهَنَّمَ) قَولانِ:

قال يُونُسُ -وأَكثَرُ النَّحْوِيِّين-: (**جهنَّمُ**): اسمٌ للنَّارِ الّتي يُعَذِّبُ اللهُ بِها في الآخِرَةِ.

وهي أَعجَمِيَّةٌ، لا تُجْرَىٰ[1] -للتَّعريفِ والعُجْمَةِ-.

وقال آخَرُونَ: (جهنَّمُ) اسمٌ عَرَبِيٌّ؛ سُمِّيَت نارُ الآخِرَةِ بِهِ؛ لِبُعْدِ قَعْرِها[2].

وإنَّما لَم تُجْرَ؛ لِثِقَلِ التَّعريفِ، وثِقَلِ التَّأنِيثِ».

* (**تَضْطَرِمُ**)؛ قال ابنُ قُتَيْبَةَ في «غَرِيب الحدِيث» (١/ ٥٦٣): «اضْطَرَمَتِ النَّارُ؛ إذا: الْتَهَبَت».

وفي «الصِّحاحِ» (٥/ ١٧٣٥) -لِلجَوْهَرِيِّ-: «اشْتَعَلَت النَّارُ؛ أي: اضْطَرَمَت».

والمَقصُودُ -بالعُمُومِ-: شِدَّةُ الشَّيءِ.

---

(١) أي: لا تَنصَرِفُ (مَمنوعَةٌ مِن الصَّرْف) -كما يُعبِّرُ عن ذلِكَ بعضُ اللُّغوِيِّين-.

(٢) وقال ابنُ فارِس في «مُجمَل اللُّغَة» (١/ ٢٠٨): «و(جهنَّم): مَعرُوفَةٌ، واشتِقاقُهُ مِن قَولِهِم (بِئرٌ جِهْنام)، إذا كانت بَعيدةَ القَعْرِ».

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِر:

ولا تُسَفِّهْ عِندَ الوِرْدِ عَطْشَتُها أَحلامَنَا وشَرِيبُ السُّوءِ يَضْطَرِمُ[1]

* (**كُبَّ**)؛ قال الحِمْيَرِيُّ في «شَمس العُلُوم» (٥/ ٥٧٢٣):

«كُبَّ الشَّيءُ لِوَجْهِهِ كَبًّا؛ أي: قَلَبَهُ علىٰ وَجْهِهِ، قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾[النمل:٩٠].

○ (**فائدةٌ**): **الخَوْفُ مِن (جَهَنَّم)**:

قال الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجوزِيَّةِ في «مدارِج السَّالكِين» (٢/ ٧٥):

«ذَكَرَ -سُبحانَهُ- عِبادَهُ -الَّذِينَ هُم خَواصُّ خَلْقِهِ-، وأَثْنَىٰ عليهِم بِأَحسَنِ أَعمالِهِم، وجَعَلَ منها: استِعاذَتَهُم بِهِ مِن النَّارِ، فقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٥-٦٦].

وأَخبَرَ عنهُم: أَنَّهُم تَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بِإيمانِهِم أَنْ يُنَجِّيَهُم مِن النَّارِ؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران:١٦]:

فجَعَلُوا أَعظمَ وَسائلِهِم إِلَيْهِ: وَسيلَةَ الإيمانِ، وأَنْ يُنَجِّيَهُم مِن النَّارِ».

وقال الحافظُ ابنُ رَجَبٍ الحَنبلِيُّ في «التَّخويف مِن النَّار» (ص٢٣):

---

(١) «مَجالِس ثَعْلَب» (ص٥٥).

«والخوفُ مِن عذابِ جَهَنَّمَ لا يَنجُو منهُ أَحَدٌ مِن الخَلْقِ.

وقد تَوَعَّدَ اللهُ -سُبحانَهُ- خاصَّةَ خَلْقِهِ علىٰ المَعصِيَةِ؛ قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

وقال في خَلْقِ المَلائِكَةِ المُكَرَّمِين: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٢٩].

وثَبَتَ مِن حدِيثِ أَبِي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ -في حدِيثِ الشَّفاعَة-، قال: «**فيَأْتُونَ آدَمَ..**» -وذَكَرَ الحَدِيثَ-، وقال:

«.. **فيَقُولُ آدَمُ: إنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ -اليَومَ- غَضَبًا، لَم يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثلَهُ، ولَن يَغضَبَ بَعْدَهُ مِثلَهُ، وإنَّهُ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، فَعَصَيْتُهُ، فأَخافُ أنْ يَطْرَحَنِي في النَّارِ، انْطَلِقُوا إلىٰ غَيْرِي، نَفْسِي نَفْسِي...**»[1]...

ولَم يَزَلِ الأَنبياءُ والصِّدِّيقُونَ والشُّهداءُ والصَّالحُونَ يَخافُونَ النَّارَ، ويُخَوِّفُونَ منها».

ورَوَىٰ التِّرمِذِيُّ (٢٦٠١)، وابنُ المُبارَك في «الزُّهد» (٢٧)، والبَزَّارُ (٩٧١٩) عن أبِي هُريرةَ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**ما رَأَيتُ مِثلَ النَّارِ؛ نامَ هارِبُها، ولا مِثلَ**

---

(١) رَواهُ أحمدُ (٩٦٣٣)، والنَّسائيُّ في «الكُبْرَىٰ» (١١٢٨٦).

والحديثُ: في «صَحيحِ البُخارِيّ» (٢٣٣٤٠)، ومُسلمٌ (٣٢٧) بِنَحْوِهِ -عنهُ- رضي الله عنه.

الجَنَّةِ؛ نامَ طالِبُها»[1].

ورَوَىٰ مُسلِمٌ (٥٩٠) عن ابنِ عَبَّاس، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كان يُعَلِّمُهُم هذا الدُّعاءَ -كَمَا يُعَلِّمُهُم السُّورَةَ مِن القُرآنِ-، يَقُولُ: «**قُولُوا: (اللهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن عذَابِ جَهَنَّمَ..)..**».

(١) «سِلسِلَة الأحاديث الصَّحيحة» (٩٥٣).

-٣٧، ٣٨-

وَجَنَّـــةُ الفِــرْدَوْسِ قَــدْ تَزَخْرَفَــتْ لِمَــنْ عَبَــدْ
وقَــامَ لَــيْلًا وَسَــجَدْ فِـــي طِمْـــرِهِ المُرَقَّـــعِ

◻ الشَّرحُ الإجمالِيّ:

وجَنَّةُ اللهِ -تَعالَىٰ- بِدَرَجاتِها العالِيَاتِ- مُتَزخرِفَةً، مُتَزَيِّنَةً - تَنْتَظِرُ عِبادَ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ-؛ الّذِينَ قامُوا بِمَا أَوجَبَهُ اللهُ -تعالىٰ- عليهِم مِن طاعاتٍ وعِباداتٍ، منها: قِيامُ اللَّيْلِ-؛ مُتذَلِّلِين لَهُ -سُبحانَهُ- خاشِعِين، مَتواضِعِين.

وقد قال اللهُ -تعالىٰ-: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾[الزُّمَر:٧٣]، وهو «سَوْقٌ مَصحُوبٌ بالتَّكريمِ، والتَّشريفِ، والإعزازِ، مُشَيَّعِينَ بِمَا يَشْرَحُ الصُّدُورَ، ويَسُرُّ النُّفُوسَ؛ كَتَشييعِ المَحبُوبِ إِلَىٰ أَمْرٍ مَحبُوبٍ»[1].

◻ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (**الطِّمْـر**)؛ هُو: الثَّوبُ البالِي -كما في «مُختار الصِّحاح» (ص٢٥٩) -لِلرَّازِي-، و«النِّهايَة» (٣/ ١٣٨) -لابنِ الأَثِير- وغَيرِها-.

* (**المُرَقَّع**)؛ هو: الثَّوبُ الّذي عُولِجَ بَعْدَمَا انْشَقَّ، أو فَسَدَ.

وقال الحافِظُ زَينُ الدِّينِ العِراقِيُّ[2]:

(١) «مَباحِث العَقيدة في سُورَةِ الزُّمَر» (ص٦٨٠) -لِناصِر الشَّيخ-.

(٢) كما نَقَلَهُ المُناوِيُّ في «فَيض القَدِير» (٣/ ٢٧)، والصَّنعانِيُّ في «التَّنوِير» (٤/ ٢٣٤).

«لَبِسَ المُرَقَّعَ غَيرُ واحِدٍ مِن الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين -كَعُمَر، وعَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حالَ الخِلافَةِ.

لَكِنْ؛ إنَّما شُرِعَ ذَلِكَ للتَّقَلُّلِ مِن الدُّنيا، وإيثارِ غيرِهِ علىٰ نَفْسِهِ.

أمَّا فِعلُهُ بُخلًا عن النَّفْسِ -أو غيرَهُ-؛ فمَذمُومٌ؛ لِخَبَرِ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ علىٰ عَبدِه**»(١).

وكَذَا ما يَراهُ حَمْقَىٰ الصُّوفِيَّةِ وجَهَلَتُهُم مِن تَقطِيعِ الثِّيابِ الجُدُدِ، ثُمَّ تَرقِيعِها: ظَنًّا أنَّ هذا زِيُّ الصُّوفِيَّةِ!

وهو غُرُورٌ مُحرَّمٌ؛ لأنَّهُ إضاعَةُ مالٍ، وثِيابُ شُهْرَةٍ».

○ **(فائدَةٌ): عِظَمُ الجَنَّةِ ونَعِيمُها:**

رَوَىٰ البُخارِيُّ (٧٤٢٣) عن أَبِي هُريرَةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ في الجَنَّةِ مِئةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّها اللهُ لِلمُجاهِدِين في سَبِيلِه؛ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ ما بَيْنَهُما كما بَيْنَ السَّماءِ والأَرضِ؛ فإذا سَألْتُم اللهَ؛ فَسَلُوهُ الفِرْدَوسَ؛ فإنَّهُ أَوسطُ الجَنَّةِ، وأَعلَىٰ الجَنَّةِ، وفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحمنِ**(٢)**، ومِنهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ**».

(هِيَ جَنَّةٌ طابَتْ وطَابَ نَعِيمُهَا   فَنَعِيمُها باقٍ ولَيْسَ بِفانِ

---

(١) رَواهُ أَحمدُ (٦٧٠٨)، والتِّرمِذِيُّ (٢٨١٩)، والطَّيالِسِيُّ (٢٣٧٥)، وابنُ حِبَّان (٥٣٩٣)، عن ابنِ عَمْرو -بِسَنَدٍ حَسَنٍ-.

(٢) وفي هذا الحَدِيثِ -ضِمْنَ نُصوصٍ كَثيرَةٍ- دَليلٌ عَلَىٰ عُلُوِّ اللهِ علىٰ خَلْقِهِ، وأنَّهُ فَوقَ عَرْشِهِ -كَمَا يَليقُ بِجلالِهِ وكَمالِهِ-.
وانظُر ما تَقَدَّمَ (ص١٦٨).

دَارُ الـسَّلامِ وجَنَّـةُ المَـأوَىٰ ومَنْـ زِلُ عَـسْكَرِ الإيمـانِ والقُـرآنِ
فالـدَّارُ دَارُ سَـلامَةٍ وخِطـابُهُم فِيهَـا سَـلامٌ واسـمُ ذِي الغُفْـرانِ) (١)

و«الجَنَّةُ هِيَ الجَزاءُ العَظِيمُ، والثَّوابُ الجَزِيلُ، الّذِي أَعدَّهُ اللهُ لِأَولِيائِهِ، وأهلِ طاعتِهِ.

وهِيَ نَعِيمٌ كامِلٌ، لا يَشُوبُهُ نَقْصٌ، ولا يُعَكِّرُ صَفْوَهُ كَدَرٌ.

وما حَدَّثَنا اللهُ بِهِ عَنْها، وما أَخْبَرَنَا بِهِ الرَّسُولُ ﷺ: يُحَيِّرُ العَقْلَ ويُذهِلُهُ؛ لأنَّ تَصَوُّرَ عَظَمَةِ ذلِكَ النَّعِيمِ يَعجَزُ العَقلُ عن إدراكِهِ واسْتِيعابِهِ.

اسْتَمِعْ إلىٰ قَولِهِ -تبارك وتَعالىٰ- في الحدِيثِ القُدُسِيِّ-: «**أَعدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالحِين ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ علىٰ قَلبِ بَشَر**».

ثُمَّ قَرَأَ (وفي رواية: قال أبو هُريرة: «**اقْرَؤُوا إنْ شِئتُم**»): ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾[السجدة:١٧]» (٢).

وتَظْهَرُ عَظَمَةُ هذا النَّعِيمِ بمُقارَنَتِهِ بِمَتاعِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَتاعَ الدُّنيا -بِجانِبِ نَعِيمِ الآخِرَةِ- تافِهٌ حَقِيرٌ، لا يُساوِي شيئًا:

فعَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**مَوضِعُ سَوْطٍ في الجَنَّةِ خَيْرٌ مِن الدُّنيا وما فِيها**»(٣).

---

(١) «الكافِيَة الشَّافِيَة» (ص٢٩٤ - بتحقِيقِي) -للإمامِ ابنِ القَيِّمِ-.
وانظُر «مُختصَر صحيح البُخاري» (١٩٤٩) -لشيخِنا الإمام الألبانِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-.
(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (٣٢٤٤)، ومُسلمٌ (٢٨٢٤) -عن أَبِي هُرَيرَةَ-.
(٣) رواهُ البُخارِيُّ (٣٢٥٠).

ولِذا؛ كانَ دُخُولُ الجَنَّةِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ -في حُكْمِ اللهِ وتَقدِيرِهِ- هُو الفَلاحَ العَظِيمَ، والفَوْزَ الكَبِيرَ، والنَّجاةَ العُظْمَىٰ:

قالَ -تعالىٰ-: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥].

وقالَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:٧٢].

وقالَ -أيضًا-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[النساء:١٣].

ولا شَكَّ أنَّ سَعادَةَ المُؤمنِين لا تُعادِلُها سَعادَةٌ: عِندَما يُساقُونَ مُعَزَّزِينَ مُكَرَّمِين -زُمَرًا زُمَرًا- إلىٰ جنَّاتِ النَّعِيم؛ حتَّىٰ إذا ما وَصَلُوا إلَيْها: فُتِحَت أَبْوابُها، واسْتَقْبَلَتْهُمُ المَلائكَةُ الكِرامُ يُهَنِّئُونَهُم بِسَلامَةِ الوُصُولِ -بَعْدَمَا عانَوْهُ مِن الكُرُبَاتِ، وشاهَدُوهُ مِن الأَهوالِ-:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزُّمَر:٧٣]:

أي: طابَتْ أَعمالُكُم، وأَقوالُكُم، وعَقائدُكُم، فأصبَحَتْ نُفُوسُكُم زاكِيَةً، وقُلُوبُكُم طاهِرَةً؛ فبِذلِكَ اسْتَحْقَقْتُم الجَنَّاتِ»[1].

---

(١) كُلُّ ما بَيْنَ القَوسَين -بِطُولِهِ- مِن كتابِ «الجَنَّة والنَّار» (ص١١٣-١١٥) -للدُّكتور عُمَر سُلَيمان الأَشقَر-رَحِمَهُ اللهُ-.

ومَا أَجْمَلَ ما صَحَّ عن بَعضِ أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «**كَيفَ تَقُولُ فِي الصَّلاةِ؟**».

قال: أَتَشَهَّدُ، وأَقُولُ: «اللهُمَّ إنِّي أَسأَلُكَ الجَنَّةَ، وأَعُوذُ بِكَ مِن النَّارِ»؛ أَمَا إنِّي لا أُحسِنُ دَنْدَنَتَكَ، ولا دَنْدَنَةَ مُعاذٍ!

فقال النبيُّ ﷺ: «**حَوْلَها نُدَنْدِنُ**»[1].

وقالَ ربُّنا -تعالىٰ-: ﴿**وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ**﴾ [محمد:٦]؛ أيْ: «أنَّه -تعالىٰ- عرَّفَها لهُم، فَوَصَفَها علىٰ مَا يُشَوِّقُ إليها؛ لِيَعْلَمُوا ما يَسْتَوجِبُونَ بأعمالِهِم مِن الثَّوابِ، وما يُحْرَمُونَ بارْتِكابِ المَعاصِي»[2].

○ (**فائدَةٌ**): **فَضْلُ قِيامِ اللَّيلِ**:

قالَ العَلَّامَةُ البُهُوتِيُّ فِي «الرَّوض المُرْبع» (ص١١٧):

(وصَلاةُ اللَّيلِ أَفضلُ مِن صَلاةِ النَّهارِ؛ لِقَولِهِ ﷺ: «**أَفضَلُ الصَّلاةِ -بَعْدَ المَكتُوبَةِ- صَلاةُ اللَّيلِ**». رَواهُ مُسلِمٌ [(١١٦٣)] عن أَبِي هُريرةَ؛ فالتَّطَوُّعُ المُطْلَقُ أَفضلُهُ: صَلاةُ اللَّيل).

وقال الشَّيخُ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ قاسِم العاصِمي النَّجْدِيُّ في «حاشِيَتِهِ» (٢/ ١١٩) -ما مُلَخَّصُهُ-:

(١) «إعراب القُرآن» (ص٣٧٩) -لِقِوَام السُّنَّةِ الأَصبهانِيِّ-.

(٢) رَواهُ أَبُو داود (٧٩٢)، وابنُ ماجَه (٩١٠)، وأحمد (١٥٨٩٨) -بِسَنَدٍ صَحيحٍ-.

ومعنَىٰ (**نُدَنْدِن**): «نَدُور» -كما في «لِسانِ العَرَب» (١٣/ ١٦٠) -لابنِ مَنظُور-.

«ولِمُسلِمٍ [(١١٦٣)] -أيضًا-: أنَّهُ ﷺ سُئِلَ: أيُّ الصَّلاةِ أَفضلُ -بَعدَ المَكتُوبَةِ-؟ قالَ: «**الصَّلاةُ في جَوْفِ اللَّيلِ**».

وفيهِ [(٧٥٧)] -أيضًا-: «**إنَّ في اللَّيلِ ساعَةً لا يُوافِقُها عَبدٌ مُسلِمٌ -يَسألُ اللهَ خَيْرًا مِن أَمْرِ الدُّنيا والآخِرَةِ- إلَّا أَعطاهُ إيَّاه**».

وقال: «**عليكُم بِقِيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِين قَبْلَكُم، وهو قُرْبَةٌ إلىٰ رَبِّكُم، ومُكَفِّرَةٌ للسَّيِّئاتِ، ومَنْهاةٌ عنِ الإثْمِ**» -رواهُ الحاكِمُ [(١١٥٦)] وغيرُهُ- [ابنُ خُزَيمةَ (١١٢٥)، والطَّبرانِيُّ في «المُعجَم الكَبِير» (٧٤٦٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَن الكُبْرَىٰ» (٤٣١٧)]-[(١)].

وفيهِ أَحادِيثُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ علىٰ تَأكُّدِ أَفضلِيَّةِ قِيامِ اللَّيلِ، والاستِكثارِ مِن الصَّلاةِ فيهِ.

وقال -تعالىٰ-: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[الذاريات:١٧]: يَنامُون قَليلًا مِنهُ، ويُصَلُّونَ أَكثَره.

وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:١٦].

... وغيرُ ذلِكَ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ علىٰ فَضْلِ قِيامِ اللَّيل، وتَرَتُّبِ الجَزاءِ الجَليلِ عَلَيْهِ».

---

(١) وحَسَّنَهُ العِراقِيُّ -كما في «تَخريج أحادِيث (الإحياء)» (١١٦٩).
وصحَّحَهُ ابنُ حَجَر في «فَتح البارِي» (٢/ ٢٥٨).
وانظُر: «إرواء الغَلِيل» (٢/ ٢٠٢) -لشيخِنا الإمامِ الألبانِيِّ-.

○ **(فائدةٌ): الصَّالِحُونَ هُمْ أَهلُ قِيامِ اللَّيل:**

رَوَىٰ الإمامُ ابنُ عَساكِر في «تاريخِ دِمَشْق» (٣٤/ ١٤٨)، عن أحمدَ بنِ أبِي الحَوَارِيِّ، قال: «دَخَلْتُ علىٰ أَبِي سُلَيْمان؛ فإذَا هو يَبْكِي، فقُلتُ: ما لَكَ؟!

فقالَ: زُجِرْتُ البَارِحَةَ في مَنامِي.

قُلتُ: ما الّذِي حَلَّ بِكَ؟

قالَ: بَيْنَا أنَا قد غَفَوْتُ في مِحْرَابِي، إذ وَقَفَتْ عَلَيَّ جارِيَةٌ تَفُوقُ الدُّنيا حُسْنًا، وبِيَدِها وَرَقَةٌ، وهيَ تَقولُ: أَتَنامُ -يا شَيخُ-؟!

فقُلتُ: مَن غَلَبَتْهُ عَيناهُ نامَ.

فقالَتْ: كَلَّا؛ إنَّ طالِبَ الجَنَّةِ لا يَنامُ.

ثُمَّ قالَت: أَتَقْرَأُ؟

فأَخَذْتُ الوَرَقَةَ مِن يَدِها، فإذا فِيها مَكتُوبٌ:

لَهَتْ بِكَ لَذَّةٌ عَن حُسْنِ عَيْشٍ ... مَعَ الخَيْرَاتِ في غُرَفِ الجِنانِ
تَعِيشُ مُخَلَّدًا لا مَوتَ فِيهَا ... وتَنْعَمُ في الجِنانِ مَعَ الحِسَانِ
تَيَقَّظْ مِن مَنامِكَ إنَّ خَيْرًا ... مِن النَّومِ التَّهَجُّدُ بالقُرَانِ».

... وهؤلاءِ -أَنفُسُهُم- هُم مِن صَالِحِي المُؤمِنين:

القَانِتِينَ المُخْبِتِينَ لِرَبِّهِمْ ... النَّاطِقِينَ بِأَصْدَقِ الأَقْوَالِ
التَّارِكِينَ لِكُلِّ فِعْلٍ سَيِّئٍ ... والعَامِلِينَ بِأَحْسَنِ الأَعْمَالِ
أَهوَاؤُهُم تَبَعٌ لِدِينِ نَبِيِّهِمْ ... وسِواهُمُ بالضِّدِّ فِي ذِي الحَالِ

مَـــا شـــابَهُم في دِيـــنِهِم نَقْـــصٌ وَلَا ... في قَـــولِهِم شَـــطْحُ الجَهُـــولِ الغـــالِي
عَمِلُـــوا بِمَـــا عَلِمُـــوا ولَـــمْ يَتَكَلَّفُـــوا ... فلِـــذَاكَ مـــا شـــابُوا الهُـــدَىٰ بِـــضَلالِ
وسِـــــواهُمُ بالـــــضِّدِّ حَتَّـــــىٰ إنَّهُـــــمْ ... تَرَكُـــوا الهُـــدَىٰ ودَعَـــوْا إلـــىٰ الإضْـــلَالِ
فهُـــمُ الأَدِلَّـــةُ لِلْحَيـــارَىٰ مَـــنْ يَـــسِرْ ... بِهُـــداهُمُ لَـــمْ يَخْـــشَ مِـــن إضْـــلَالِ
وهُـــمُ النُّجُـــومُ هِدايَـــةً وإضـــاءَةً ... وعُلُـــوَّ مَنزِلَـــةٍ وبُعْـــدَ مَنَـــالِ
يَمْـــشُونَ بَـــيْنَ النَّـــاسِ هَوْنًـــا نُطْقُهُـــمْ ... بـــالحَقِّ لا بِجَهالَـــةِ الجُهَّـــالِ
حِلْمًـــا وعِلْمًـــا مَـــعْ تُقًـــىٰ وتَواضُـــعٍ ... ونَـــصِيحَةٍ مَـــعَ رُتْبَـــةِ الإفْـــضالِ
يُحْيُـــونَ لَـــيْلَهُمُ بِطاعَـــةِ رَبِّهِـــمْ ... بِـــتِلاوَةٍ وتَـــضَرُّعٍ وسُـــؤالِ
وعُيُـــونُهُم تَجْـــرِي بِفَـــيْضِ دُمُـــوعِهِمْ ... مِثْـــلَ انْهِمـــالِ الوابِـــلِ الهَطَّـــالِ
في اللَّيْـــلِ رُهْبَـــانٌ وعِنـــدَ جِهـــادِهِمْ ... لِعَـــدُوِّهِم مِـــن أَشـــجَعِ الأَبْطَـــالِ
بِوُجُـــوهِهِم أَثَـــرُ الـــسُّجُودِ لِـــرَبِّهِمْ ... وبِهَـــا أَشِـــعَّةُ نُـــورِهِ المُتَلالِـــي[1]

فَ«اعْلَمُوا -رَحِمَنَا اللهُ وإيَّاكُم-: أنَّ اللهَ -عزَّ وجَلَّ- أَثْنَىٰ علَىٰ المُتهجِّدِين في اللَّيْلِ، فَأحسَنَ عليهِم الثَّناءَ، ووَعَدَهُم أَحسَنَ ما يَكُونُ مِن الوَعدِ الجَمِيلِ.

ورَغَّبَ النبيُّ ﷺ علىٰ قِيامِ اللَّيلِ، وحَثَّ أُمَّتَهُ عليه.

وهكذا العُلماءُ؛ رَغَّبُوا فيهِ، وحَثُّوا علىٰ قِيامِهِ.

ونَبْلَ -عندَ جَمِيعِ المُسلِمِينَ- مَن كانَ لهُ حَظٌّ مِن قِيامٍ.

فنحنُ نُبَيِّنُ لِإخوانِنَا ما فِيهِ مِن الفَضْلِ العَظِيمِ، والحَظِّ الجَزِيلِ؛ لِيَكُونَ الرَّاغِبُ

(١) «إغاثة اللَّهفان» (١/ ٤١٨) -لِلإمامِ ابنِ القَيِّم-.

في قِيامِ اللَّيلِ علىٰ بَصِيرَةٍ مِن أَمْرِهِ، يُتاجِرُ مَوْلَاهُ الكَرِيمَ بِعِلْمٍ، ويُحسِنُ الخِدمَةَ لِلمَوْلَىٰ -رَجاءَ القُربَةِ مِنهُ-.

فأمَّا ما وَصَفَ اللهُ -عزَّ وجَلَّ- بهِ المُتَّقِين- مِن أخلاقِهِم الشَّريفَةِ -في الدُّنيا -الّتي أَعقبَتْهُم عندَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- شَرَفَ المَنازِلِ -في دارِ السَّلامِ-؛ فَأثنَىٰ عليهِم بما تَفَضَّلَ بِهِ عليهِم، ووَفَّقَهُمْ لَهُ -فلَهُ الحمدُ علىٰ ذلِك-:

قال اللهُ -عزَّ وجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات:١٥-١٨]:

فوَصَفَهُم -جَلَّ ذِكْرُهُ- بِقِلَّةِ النَّومِ: أنَّهُم أكثرُ لَيلِهِم قِيامًا إلىٰ السَّحَرِ، ثُمَّ أَخَذُوا -عندَ السَّحَر- في الاستِغفارِ- لِمَا سَلَفَ مِنهُم مِمَّا لا يُرْضِيهِ، وإشفاقًا منهُم علىٰ أَعمالِهِم الصَّالِحَةِ ألَّا تُرْضِيَهُ-.

أَفتَرَىٰ الكَريمَ لا يُجِيبُهُم؟!

بل يُجِيبُهُم، وهو أَكرَمُ مِن ذلِك.

ثُمَّ قالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- فيمَا وَصَفَ بِهِ عِبادَهُ مِن الأَخلاقِ الّتي شَرَّفَهُم بِهَا-: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا. وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[الفرقان:٦٣-٦٤].

فوَصَفَهُمْ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أنَّهُم في مَبِيتِهِم في لَيْلِهِم لَيسَ هُم كَغَيْرِهِم مِن سائرِ النَّاسِ؛ وذلِكَ أنَّ أَكثرَ الخَلْقِ يَتلذَّذُونَ بالنَّومِ، وهؤلاءِ اسْتأثَرُوا الخِدمةَ لِمَولاهُم الكَريم.

ثُمَّ وَصَفَهُم -جَلَّ ذِكْرُهُ- في مَوضِعٍ آخَرَ-، فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة:١٦].

وقالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزُّمَر:٩].

... تَدَبَّرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- ما تَسْمَعُونَ مِن مَولاكُم الكَريمِ؛ كيفَ يُخْبِرُ بِكَثْرَةِ سُجُودِهِم، وطُولِ قِيامِهِم، وحُسْنِ خِدمتِهِم.

ثُمَّ أَخْبَرَ عنهُم -بَعْدَ هذا الكَدِّ الشَّدِيدِ-: أَنَّهُم علىٰ حَذَرٍ مِمَّا حَذَّرَهُم مِن عَظِيمِ شأنِ الآخِرَةِ، وشِدَّةِ أَهوالِها، وأَنَّ الغالِبَ علىٰ قُلوبِهِم شِدَّةُ الخَوفِ والوَجَلِ، مع المُسارَعَةِ فِيمَا يُرْضِيهِ.

وكذلِكَ وَصَفَهُم في مَوضِعٍ آخَرَ مِن كِتابِهِ، فقالَ -عزَّ وجَلَّ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقال -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[آل عمران:١١٣]:

فأَخْبَرَ -عَزَّ وجَلَّ- عن تِلاوَتِهِم للقُرآنِ في اللَّيْلِ -تَارةً قِيامًا، وتارَةً للهِ سُجَّدًا-.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ -فيما وَصَفَ بِهِ أَهلَ التَّهَجُّدِ في اللَّيْلِ-:

إِذَا مَـــا اللَّيْـــلُ أَظْلَـــمَ كَابَـــدُوهُ فَيُـــسْفِرُ عَـــنْهُمُ وَهُـــمُ رُكُـــوعُ
أَطَـــارَ الخَـــوفُ نَـــوْمَهُمُ فَقَـــامُوا وأَهْـــلُ الأَمْـــنِ فِي الـــدُّنْيَا هُجُـــوعُ»[1].

(١) النَّقلُ -بِطُولِهِ- مِن كتابِ «فَضْل قِيامِ اللَّيْل والتَّهَجُّد» (ص٧٣-٧٨) -لِلآجُرِّيِّ-.
و(**الهُجُـوعُ**: النَّـومُ باللَّيْـلِ؛ دُونَ النَّهـارِ) -كَمَـا في «الإبانَـة في اللُّغَـةِ العَرَبِيَّـةِ» (٤/ ٥٩١) -للعَوْتَبِيِّ-.

-٣٩ ، ٤٠-

وَنَهَـــدَت أبْكارُهـــا واطَّـــرَدَت أَنهارُهـــا
وَغَـــرَّدَتْ أَطيارُهـــا في كُـلِّ غُـصْنٍ مُوْنِـعِ

□ **الشَّرحُ الإجمالِيّ:**

في جَنَّةِ اللهِ -تعالىٰ- مِن النَّعِيمِ المُقِيمِ «**ما لا عَيْنٌ رَأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطرَ علىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة:١٧].

مِن ذلِكَ: الحُورُ العِين اللَّاتِي نَهَضْنَ، ودَنَيْنَ عذَارَىٰ -بِجَمالِهِنَّ، ونُهُودِ أَثْدَائِهِنَّ-، والأَنْهَارُ الجارِيَةُ -بحُسْنِها-، والأَطْيَارُ المُغَرِّدَةُ -بِجَمِيلِ أصْواتِها-؛ فَضْلًا عن الأَشْجَارِ ذاتِ الأَغصَانِ المُثْمِرَةِ -ببَهائِها ورَوْنَقِها-.

□ **التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:**

❊ **(نَهَدَت)**: أَشْرَفَتْ نُهُودُها، وبَرَزَتْ.

يُقالُ: نَهَدَ ثَدْيُ الجارِيَة يَنْهُدُ نُهُودًا؛ إذا أَشْرَفَ؛ فهي ناهِدٌ، وناهِدَةٌ.

ويُقالُ: نَهَدَ الثَّدْيُ؛ إذا ارْتَفَعَ عن الصَّدْرِ، وصارَ لهُ حَجْمٌ(٢).

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٣٢٤٤)، ومُسلمٌ (٢٨٢٤) عن أَبِي هُريرةَ.

(٢) انظُر «المخصَّص» (١/ ٦٦) -لابنِ سِيدَه-، و«لِسان العرب» (٣/ ٤٢٩) -لابنِ مَنظُور-.

* (**أَبكارُها**): قالَ في «مُختار الصِّحاح» (ص٣٨): «(**البِكْر**): العذْراءُ، والجَمعُ: (أَبكار)، والمَصدَرُ: (البَكارَة)».

ومِنهُ: قولُ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً. فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾[الواقعة:٣٥-٣٦].

○ (**فائدةٌ**): **الحُورُ العِين، وبَعضُ أَوصافِهِنَّ**:

جاءَ في وَصْفِ (الحُورِ العِينِ) -مِن نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ- شيءٌ كَثِيرٌ؛ مِنهُ:

- قَولُهُ -تَعالَىٰ- في ذِكْرِ بَعْضِ جَزاءِ أَهلِ الجَنَّةِ-: ﴿وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[الواقعة:٢٢-٢٣]:

قالَ العَلَّامَةُ السّعدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «تَفسِيرِهِ» (ص٩٩١):

«أيْ: وَلَهُم حُورٌ عِينٌ، **والحَوْرَاءُ**: الّتي في عَيْنِها كُحْلٌ ومَلاحَةٌ، وحُسْنٌ، وبَهَاءٌ.

و**العِينُ**: حِسانُ الأَعْيُنِ وضِخامُها، وحُسْنُ العَيْنِ -في الأُنْثَىٰ- مِن أَعظَمِ الأدِلَّةِ علىٰ حُسْنِها وجَمالِها.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ أَيْ: كأَنَّهُنَّ اللُّؤلُؤُ الأَبْيَضُ الرَّطْبُ الصَّافِي البَهِيُّ، المَستُورُ عن الأَعيُنِ والرِّيحِ والشَّمسِ، الّذِي يَكُونُ لَونُهُ مِن أَحسَنِ الأَلوانِ، الّذِي لا عَيبَ فيهِ بِوَجهٍ مِن الوُجُوه؛ فكذلِك الحُورُ العِينُ، لا عَيْبَ فيهِنَّ بِوَجْهٍ، بَل هُنَّ كامِلَاتُ الأَوصافِ، جَمِيلاتُ النُّعُوتِ؛ فكُلُّ ما تَأَمَّلْتَهُ مِنها لَم تَجِدْ فيهِ إلَّا ما يَسُرُّ الخاطِر، ويَرُوقُ النَّاظِر».

- **ومِنهُ**: قَولُهُ -تعالىٰ-: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[الرحمن:٥٨]:

قال الإمامُ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «جامعِ البَيان» (٢٧/ ١٥٨):

«قالَ ابنُ زَيد في قَولِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: كأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ في الصَّفاءِ، والمَرْجانُ في البَيَاضِ، الصَّفاءُ صَفاءُ الياقُوتَةِ، والبَياضُ بَياضُ اللُّؤلُؤِ».

- **ومِنهُ:** قولُهُ -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً. فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[الواقعة:٣٥-٣٧]:

قال الحافِظُ ابنُ كَثِير -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «تَفسِيرِهِ» (٤/ ٢٩٤):

«قَولُهُ: (**عُرُبًا**): قالَ سَعيدُ بنُ جُبيْر، عن ابنِ عَبَّاسٍ: يَعنِي: مُتحَبِّبَاتٍ إلىٰ أَزواجِهِنَّ، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: العُرُبُ: العَواشِقُ لِأَزواجِهِنَّ، وأَزواجُهُنَّ لَهُنَّ عاشِقُون...

وقَولُهُ: ﴿أَتْرَابًا﴾: قالَ الضَّحَّاكُ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: في سِنٍّ واحِدَةٍ -ثَلاثٍ وثلاثِينَ سَنَةً-...».

- **ومِنهُ:** قَولُهُ -تَعالَىٰ-: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[الرحمن:٧٠]:

قال الإمامُ ابنُ القيِّم في «رَوضة المُحِبِّين» (ص٢٤٣):

«وَوَصَفَهُنَّ بأَنَّهُنَّ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[الرحمن:٧٠]، وهُو جَمْعُ: (خَيْرَة)، وأَصلُها: خَيِّرَة؛ وهِي الَّتِي قد جَمَعَت المَحاسِنَ -ظاهِرًا وباطِنًا-؛ فكَمَلَ خَلْقُها وخُلُقُها؛ فهُنَّ خَيراتُ الأَخلاقِ، حِسانُ الوُجُوهِ».

... وغيرُ ذلِكَ مِن الآياتِ: كَثيرٌ.

وقَد ثَبَتَ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ -مِن هذا المَعنَىٰ- كَثيرٌ -أيضًا-؛ مِن ذلِك:

* عن أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ علىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ، ثُمَّ الّذِين يَلُونَهُم: كأَشَدِّ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إضاءةً، قُلوبُهُم علىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، لا اخْتِلافَ بَينَهُم، ولا تَباغُضَ؛ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُم زَوجَتانِ مِن الحُورِ العِين، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِنَّ مِن وَراءِ العَظْمِ واللَّحْمِ -مِن الحُسْنِ-**» -رَواهُ البُخارِيُّ (٣٠٨١)، ومُسلمٌ (٢٨٣٤)-.

قال الحافِظُ ابنُ حَجَر -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «فَتح البارِي» (٨/ ٥٧٠):

«**الحُور**: الّتِي يَحارُ فيها الطَّرْفُ، يُبَانُ مُخُّ سُوقِهِنَّ مِن وَراءِ ثِيابِهِنَّ، ويَرَىٰ النَّاظِرُ وَجهَهُ في كَبِدِ إحداهُنَّ كالمِرآةِ -مِن رِقّةِ الجِلدِ، وصَفاءِ اللَّوْنِ-».

* وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لَو أنَّ امْرَأَةً مِن نِساءِ أَهلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَت إلىٰ الأَرضِ؛ لَأضاءَت ما بَينَهُما، ولَمَلَأَتْ ما بَيْنَهُما رِيحًا، ولَنَصِيفُها**[1] **علىٰ رَأْسِها خَيْرٌ مِن الدُّنيا وما فِيها**» -رواهُ البُخارِيُّ (٢٦٤٣)-.

وقال الإمامُ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «الكافِية الشَّافِية» (ص١٧٠ - بتحقيقي) -ما مُلَخَّصُهُ- تحت عُنوان:

« **(في صِفَةِ عَرائِسِ الجَنَّةِ، وحُسْنِهِنَّ، وجَمالِهِنَّ، ولَذَّةِ وِصالِهِنَّ، ومُهُورِهِنَّ):**

فاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِسِ الجَنَّاتِ ثُمّ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا العِرْفَانِ
حُورٌ حِسَانٌ قَدْ كَمَلْنَ خَلَائِقًا وَمَحَاسِنًا مِنْ أَجْمَلِ النِّسْوَانِ

---

(١) الخِمارُ علىٰ رَأْسِها.

«التَّنوِير» (٩/ ٦٥) -لِلصَّنعانِيِّ-.

حُـورًا يَحَـارُ الطَّـرْفُ فِي الحُـسْنِ الَّـذِي قَـدْ أُلْبِـسَتْ فَـالطَّرْفُ كَـالحَيْرَانِ
وَيَقُـولُ لَمَّـا أَنْ يُـشَاهِدَ حُـسْنَهَا سُـبْحَانَ مُعْطِـي الحُـسْنِ والإِحْـسَانِ
والطَّـرْفُ يَـشْرَبُ مِـنْ كُـؤُوسِ جَمَالِهَـا فَتَـرَاهُ مِثْـلَ الـشَّارِبِ النَّـشْوَانِ
كَمَلَـتْ خَلَائِقُهَـا وَأُكْمِـلَ حُـسْنُهَا كَالبَـدْرِ لَيْـلَ الـسِّتِّ بَعْـدَ ثَمَـانِ
والـشَّمْسُ تَجْـرِي فِي مَحَاسِـنِ وَجْهِهَـا واللَّيْـلُ تَحْـتَ ذَوَائِـبِ الأَغْـصَانِ
فَتَـرَاهُ يَعْجَـبُ وَهْـوَ مَوْضِـعُ ذَاكَ مِـنْ لَيْـلٍ وَشَـمْسٍ كَيْـفَ يَجْتَمِعَـانِ
وَيَقُـولُ سُـبْحَانَ الَّـذِي ذَا صُـنْعُهُ سُـبْحَانَ مُـتْقِنِ صَـنْعَةِ الإِنْـسَانِ

... إلىٰ أَنْ قالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وهِيَ طَوِيلَةٌ-:

أَتْـرَابُ سِـنٍّ واحِـدٍ مُتَمَاثِـلٍ سِـنِّ الـشَّبَابِ لِأَجْمَـلِ الـشُّبَّانِ
بِكْـرٌ فَلَـمْ يَأْخُـذْ بَكارَتَهـا سِـوَىٰ الْـ ـمَحْبُوبِ مِـن إِنْـسٍ ولا مِـن جَـانِ

* (**واطَّرَدَت**)؛ أيْ: تَتَابَعَتْ، وجَرَتْ.

قال ابنُ الأَثِيرِ في «النِّهايَةِ» (٣/ ٨٧): «**الاضْطِرادُ**؛ هوَ: الاطِّرادُ، وهو (افْتِعالٌ) مِن (طِراد الخَيْل)، وهو عَدْوُها، وتَتابُعُها..».

وقالَ أَبُو إبراهِيم الفارَابِيّ في «مُعجَم دِيوان الأَدَب» (٢/ ٣٩٩): «والأَنهارُ (تَضْطَرِدُ): تَجرِي سَريعًا».

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

لِلَّـهِ ذَاكَ السَّـفْحُ والـوَادِي الغَـرِدْ والمَاءُ مَعْسُولُ الرُّضابِ[١] مُضْطَرِدْ[٢]

○ **(فائدةٌ): وَصْفُ الجِنانِ، وبَعضُ نَعِيمِها:**

قال الإمَامُ ابنُ القَيِّمِ في «حادِي الأَرواح» (ص٣٠٩) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«قد تَكَرَّرَ -في القُرآنِ- في عِدَّةِ مَواضِعَ- قَولُهُ -تعالىٰ-: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[البقرة:٢٥].

وفي مَوضِعٍ: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[التوبة:١٠٠].

وفي مَوضِعٍ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[يونس:٩].

وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أُمُورٍ:

أَحَدُها: وُجُودُ الأَنهارِ -فيها- حقيقةً-.

الثانِي: أَنَّها جارِيَةٌ، لا واقِفَةٌ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّها تحتَ غُرَفِهِم وقُصُورِهِم وبَساتِينِهِم- كما هو المَعهُودُ في أَنْهَارِ الدُّنيا-...

... وقال -تعالىٰ-: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾[محمد:١٥].

---

(١) هُوَ: «فُتاتُ المِسْكِ» -كما في «العَيْن» (٧/ ٣٤) -للخَلِيلِ بنِ أَحمَد-.

(٢) «خِزانَةُ الأَدَب» (١/ ٤٦٦) -لابنِ حَجَر الحَمَوِيِّ-.

فذَكَرَ -سُبحانَهُ- هذه الأَجناسَ الأَربَعَة، ونَفَىٰ عن كُلِّ واحِدٍ مِنها الآفَةَ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ في الدُّنيا:

فآفَةُ الماءِ: أنْ يَأْسَنَ ويَأْجَنَ مِن طُولِ مُكْثِهِ.

وآفَةُ اللَّبَنِ: أنْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ إلىٰ الحُمُوضَةِ، وأنْ يَصِيرَ قارِصًا.

وآفَةُ الخَمْرِ: كَراهَةُ مَذاقِها المُنافِي لِلَذَّةِ شُرْبِها.

وآفَةُ العَسَلِ: عَدَمُ تَصفِيَتِهِ.

وهذا مِن آياتِ الرَّبِّ -تَعالَىٰ-: أنْ يُجْرِيَ أَنهارًا مِن أَجناسٍ لَم تَجْرِ العَادَةُ في الدُّنيا بِإجرائِها، ويُجرِيها في غَيْرِ أُخدُود، ويَنْفِي عَنها الآفاتِ الّتي تَمْنَعُ كَمالَ اللَّذَّةِ بِها..

فتأمَّلِ اجْتِماعَ هذه الأَنهارِ الأَربَعَةِ -الّتي هي أَفضلُ أَشْرِبَةِ النَّاسِ-:

فهذا لِشُرْبِهِم وطُهُورِهِم[1].

وهذَا لِقُوَّتِهِم وغِذائِهِم.

وهذا لِلَذَّتِهِم وسُرُورِهِم.

وهذا لِشِفائِهِم ومَنفعتِهِم -واللهُ أَعلَمُ-».

---

(١) قالَ ابنُ سَيِّدِ النَّاسِ في «النَّفْحِ الشَّذِيّ» (١/ ٣٣٣):
«طُهُورٌ -بِضَمِّ الطَّاء-؛ هُو: اسْمٌ لِفِعْلِ التَّطَهُّرِ.
هذَا هُو المَشهُورُ.
واسْمُ الماءِ: الطَّهُور -بِفَتْح الطَّاء-، وكُلُّ ماءٍ نَظِيفٍ: طَهُور».

وأَنهارُ الجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِن أَعلاهَا، ثُمَّ تَنحَدِرُ -نازِلَةً- إلىٰ أَقصَىٰ دَرجاتِها؛ كما [تَقَدَّمَ الحَدِيثُ الّذِي رَواهُ] البُخارِيُّ في «صَحيحِهِ» [(٢٧٩٠)].

وفِي «صَحيحِ البُخارِيِّ» [(٥٦١٠) -مُعَلَّقًا-][1]، مِن حَدِيثِ شُعبَةَ، عن قَتادَةَ، قالَ: أَخبَرَنِي أَنَسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: «**رُفِعَتْ إلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَىٰ -في السَّماءِ السَّابِعَةِ-، نَبْقُها مِثلُ قِلالِ هَجَر، ووَرَقُها مِثلُ آذانِ الفِيَلَةِ، ويَخرُجُ مِن أَصلِها نَهْرَانِ ظاهِرَان، ونَهرانِ باطِنَان، فقُلْتُ: يا جِبريلُ! ما هذا؟ قال: أَمَّا النَّهْرانِ الباطِنَان؛ فَفِي الجَنَّةِ، وأَمَّا النَّهرانِ الظَّاهِرَان**[2]**؛ فالنِّيلُ والفُراتُ**».

وفي «صَحِيحِه» -أيضًا- [(٦٥٨١)] مِن حَدِيثِ هَمَّام، عن قَتادَةَ، عن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ في الجَنَّةِ، إذَا أَنَا بِنَهَرٍ حافَتَاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ المُجَوَّفِ، فقُلْتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ الّذِي أَعطاكَ رَبُّكَ، قال: فَضَرَبَ المَلَكُ بِيَدِهِ، فإذا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ**».

وفي «صَحيحِ مُسلِمٍ» [(٤٠٠)] مِن حديثِ المُختارِ بنِ فُلْفُل، عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**الكَوثَرُ نَهْرٌ في الجَنَّةِ، وَعَدَنِيهِ رَبِّي -عَزَّ وجَلَّ-**»...».

* **(غَرَّدَت)**؛ مِن (التَّغرِيد) وهو: التَّطرِيبُ في الصَّوتِ والغِناء[3].

---

(١) ورَواهُ مِن حدِيثِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ، عن مالِكِ بنِ صَعْصَعَة: البُخارِيُّ (٣٢٠٧)، ومُسلمٌ (١٦٤).

(٢) انظُر «دِفاع عن السُّنَّة» (ص١٤٣) -للدُّكتور محمد أبو شُهْبَة-.

(٣) انظُر «المِصباح المُنِير» (ص٤٤٤) -للفَيُّومِيِّ-.

○ (**فائدةٌ**): ما (الكَوْثَرُ):

عَن أَنَسٍ، قالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ ما الكَوثَرُ؟

قال: «**ذاكَ نَهْرٌ أَعطانِيهِ اللهُ** -يَعْنِي: فِي الجَنَّةِ-، **أَشَدُّ بَياضًا مِن اللَّبَنِ، وأَحْلَىٰ مِن العَسَلِ، فِيهِ طَيْرٌ أَعناقُها كَأَعْناقِ الجُزُرِ**»[1].

قالَ عُمَرُ: إنَّ هذه لَناعِمَةٌ!

قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا**»[2].

○ (**فائدةٌ**): **رُؤيَةُ اللهِ -تعالىٰ- أَعظَمُ نَعِيمِ أَهلِ الجَنَّةِ:**

«الجَنَّةُ ليسَت اسْمًا لِمُجَرَّدِ الأَشجارِ والفَواكِهِ، والطَّعامِ والشَّرابِ، والحُورِ العِينِ، والأَنْهَارِ، والقُصُورِ!

وأَكثَرُ النَّاسِ يَغْلَطُونَ في مُسمَّىٰ (الجَنَّةِ)!

فإنَّ الجَنَّةَ اسْمٌ لِدارِ النَّعِيمِ المُطْلَقِ الكامِلِ.

ومِن أَعْظَمِ نَعِيمِ الجَنَّةِ: التَّمَتُّعُ بالنَّظَرِ إلىٰ وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، وسَماعُ كَلامِهِ، وقُرَّةُ العَيْنِ بالقُرْبِ مِنهُ، وبِرِضْوَانِهِ.

فلا نِسبَةَ لِلَذَّةِ ما فِيها مِن المَأْكُولِ والمَشْرُوبِ والمَلْبُوسِ والصُّوَرِ، إلىٰ هذِهِ اللَّذَّةِ -أَبدًا-.

---

(١) جَمْع (جَزُور)؛ وهو: البَعِيرُ الَّذِي أُعِدَّ لِلنَّحْرِ -كما في «شَرح المَصابِيح» (٦/ ١١١) -لابنِ المَلَك-.

(٢) رَواهُ التِّرمِذِيُّ (٢٥٤٢)، وأحمدُ (١٣٣٠٦)، والنَّسائيُّ في «السُّنَن الكُبْرَىٰ» (١١٧٠٣) -بِسَنَدٍ صَحيحٍ-.

فأَيْسَرُ يَسِيرٍ مِن رِضوانِهِ أَكبَرُ مِن الجِنانِ وما فِيها مِن ذلِك؛ كمَا قالَ -تَعالىٰ-: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة:٧٢].

أيْ: أيُّ شَيْءٍ كانَ مِن رِضاهُ عَن عَبدِهِ؛ فهُو أَكبَرُ مِن الجَنَّةِ.

قَلِيلٌ مِنكَ يُقْنِعُنِي ولَكِنْ قَلِيلُكَ لا يُقالُ لَهُ قَلِيلُ[1]

ولا رَيْبَ أنَّ الأَمْرَ هَكَذَا، وهو أَجَلُّ مِمَّا يَخْطُرُ بالبَالِ، أو يَدُورُ في الخَيَالِ -ولا سِيَّمَا عِندَ فَوْزِ المُحِبِّين -هُناكَ- بِمَعِيَّةِ المُحِبِّ-.

فأيُّ نَعِيمٍ، وأيُّ لَذَّةٍ، وأيُّ قُرَّةِ عَيْنٍ، وأيُّ فَوْزٍ يُدانِي نَعِيمَ تِلكَ المَعِيَّةِ ولَذَّتَهَا، وقُرَّةَ العَيْنِ بِهَا؟!

وهَلْ فَوقَ نَعِيمِ قُرَّةِ العَيْنِ بِمَعِيَّةِ المَحبُوبِ -الّذِي لا شَيْءَ أَجَلُّ مِنهُ، ولا أَكمَلُ ولا أَجمَلُ -قُرَّةَ عَيْنٍ -أَلْبَتَّةَ-؟!

وهذا -واللهِ- هُوَ العَلَمُ الّذِي شَمَّرَ إليهِ المُحِبُّونَ، واللِّواءُ الّذِي أَمَّهُ العارِفُون.

وهُوَ رُوحُ مُسمَّىٰ الجَنَّةِ، وحَياتُها.

وبِهِ طابَتِ الجَنَّةُ، وعَلَيْهِ قامَتْ».

قالَهُ الإمامُ ابنُ القَيِّم في «مَدارِجِ السَّالكِين» (٢/ ٧٩) -مُلَخَّصًا-.

* **(مُوْنِع)**؛ أيْ: ناضِج:

قال الزَّمَخْشَرِيُّ في «أَساسِ البَلاغَةِ» (٢/ ٣٩٢): «ثَمَرَةٌ يانِعَةٌ، ومُوْنِعَة: نَضِيجَةٌ...».

---

(١) «بَصائر ذَوِي التَّمْيِيز..» (١/ ٣٠٧) -لِلفِيرُوزآبادِي-.

ومِنه؛ قولُ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾[الأنعام:٩٩]:

قال ابنُ جُزَيّ في «التَّسهِيل لِعُلومِ التَّنزِيل» (ص٣٧٠):

«أيْ: انظُرُوا إلَىٰ ثَمَرِهِ أَوَّلَ ما يَخرُجُ ضَعِيفًا، لا مَنْفَعَةَ فِيهِ، ثُمَّ يَنتقِلُ مِن حالٍ إلىٰ حالٍ؛ حتَّىٰ يُيْنِعَ؛ أي: يَنضُجَ ويَطِيبَ».

○ (فائدةٌ): أَشجارُ الجَنَّة:

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم في «حادِي الأَرواح» (ص١٦٥) -تَحتَ باب (في أَشجارِ الجَنَّةِ وبَساتِينِها وظِلالِها) -ما نَصُّهُ-:

«قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ. فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ. وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ. وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ. وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ. وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ. لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾[الواقعة:٢٧-٣٣].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾[الرحمن:٤٨]؛ وهو جَمْعُ (فَنَن)؛ وهو: الغُصْن.

وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾[الرحمن:٦٨]».

-٤١ ، ٤٢-

يَـا مَـنْ لَـهُ تَبَتُّلِـي ... فِـي كُـلِّ لَيْـلٍ أَلْيَـلِ
ومَـنْ إِلَيْـهِ مَـوْئِلِي ... دُونَ الـوَرَىٰ ومَفْزَعِـي

□ المعنَىٰ الإجمالِيّ:

أَدْعُو اللهَ -سُبحانَهُ- الَّذِي لَهُ تَعَبُّدِي، وتَرْكِي شَهواتِ الدُّنيَا ومَلَذَّاتِها -مِن أَجْلِ عَظَمَتِهِ ورِضاهُ-؛ مُصَلِّيًا فِي اللَّيْلِ لِجَلالِهِ -عزَّ وجَلَّ-، وداعِيًا لَهُ -سُبحانَهُ- آناءَ اللَّيْلِ، وأَطرافَ النَّهارِ.

فإِلَيْهِ -تعالىٰ- المَرجِعُ والمَآبُ؛ ولا لِأَحَدٍ سِواهُ -سُبحانَهُ- مِن أَصنافِ الخَلائقِ لُجُوءٌ.

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (**التَّبَتُّل**): قال التَّاجُ الفاكِهانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «رِياضِ الأَفهامِ فِي شَرْحِ (عُمدَةِ الأَحكام)» (٤/ ٥٨١):

«قال بعضُ العُلَماءِ: (**التَّبَتُّلُ**)؛ هُو: الانْقِطاعُ عنِ النِّساءِ، وتَرْكُ النِّكاحِ -انْقِطاعًا إلىٰ عِبادَةِ اللهِ -تعالىٰ-.

وأَصْلُهُ: القَطْعُ، ومِنهُ: صَدَقَةٌ بَتْلَةٌ؛ أي: مُنقَطِعَةٌ عن تَصَرُّفِ مالِكِها.

وقال الطَّبَرِيُّ: **التَّبَتُّلُ**؛ هو: تَرْكُ لَذَّاتِ الدُّنيا وشَهواتِها، والانْقِطاعُ إلىٰ اللهِ -تعالىٰ- بالتَّفَرُّغِ لِعِبادَتِهِ».

ومِنهُ: قَولُ اللهِ -تعالَىٰ-: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[المزَّمل:٨].

قال الواحِدِيُّ في «التَّفسيرِ الوَسِيط» (٤/ ٣٧٤):

«انْقَطَعَ إلَيْهِ في العِبادَةِ، وهو: رَفْضُ الدُّنيا وما فِيها، والْتِماسُ ما عِندَ اللهِ...

... ومعنَىٰ (تَبَتَّلْ إلَيْهِ): بَتِّلْ إلَيْهِ نَفْسَكَ؛ فلِذلِكَ جاءَ: (تَبْتِيلًا)».

* **(لَيْل أَلْيَل)**؛ أي: شَدِيد الظُّلْمَةِ.

وهو صِفَةٌ مُشتقَّةٌ مِن اللَّفْظِ؛ لِتأكِيدِ المَعْنَىٰ[1].

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

وكَأَنَّ نُورَ السُّرْجِ مِن جَنَباتِهِ زَهْوُ الكَواكِبِ تَحْتَ لَيْلٍ أَلْيَلِ[2]

* **(مَوْئِلِي)**؛ أيْ: رُجُوعي ومَآبِي.

«قال الفَرَّاءُ: المَوئِلُ: المَنْجَىٰ، وهُوَ: المَلْجَأُ».

كما في «تهذِيبِ اللُّغَةِ» (١٥/ ٣١٨) -لِلأَزهَرِيِّ-.

ومِنهُ: قَولُ الله -عزَّ وجَلَّ-: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلَۢا﴾[الكهف:٥٨].

«أيْ: لَيْسَ لهُم عنهُ مَحِيدٌ، ولا مَحِيصٌ، ولا مَعْدِلٌ».

قالَهُ الإمامُ ابنُ كَثِيرٍ في «تَفسِيرِهِ» (٥/ ١٧٣).

* **(الوَرَىٰ)**؛ أيْ: الخَلائِق -كما تَقَدَّمَ برَقْم (١٧)-.

---

(١) انظُر «تَفسِير النَّسَفِيّ» (١/ ٣٦٦).

(٢) «التَّذْكِرَة الحمدُونِيَّة» (٥/ ٣٥٣) -لِبَهاءِ الدِّينِ البَغدادِيِّ-.

* (**ومَفْزَعِي**)؛ «(المَفزَع): المَلجأ الّذِي يَفزَعُ إلَيْهِ القَومُ» -كما في «شَمسِ العُلُوم» (٨/ ٥١٧٩) -لِلحِمْيَرِيِّ-.

○ (**فائدةٌ**) : **التضرُّع إلىٰ الله -تعالىٰ-:**

ومِنهُ -لَفظًا ومَعنًىٰ-:

يَا مَنْ يَرَىٰ مَا فِي الضَّمِيرِ ويَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّىٰ لِلشَّدائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ المُشْتَكَىٰ والمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ ... امْنُنْ فَإِنَّ الخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَىٰ فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَىٰ قَرْعِي لِبابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بابٍ أَقْرَعُ
ومَنِ الّذِي أَدْعُو وأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كانَ فَضْلُكَ عن فَقِيرٍ يُمْنَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... الفَضْلُ أَجْزَلُ والمَوَاهِبُ أَوْسَعُ[1]

○ (**فائدةٌ**) : **الاستِغاثَةُ بِهِ -سُبحانَهُ- وَحْدَهُ-:**

الاسْتِغاثَةُ: «طَلَبُ الغَوْثِ، وهُو: النُّصْرَةُ، وكَشْفُ الشِّدَّةِ» -كما فِي «المُفْرَدَات» (ص٦١٧) -لِلرَّاغِبِ الأَصفهانِيِّ-.

وفي «تاجِ العَرُوس» (٥/ ٢١٤) -لِلزَّبِيدِيِّ-: «طَلَبُ العَوْنِ، وهو التَّخلِيصُ مِن

(١) «البِدايَة والنِّهايَة» (١٦/ ٥٧٥) -لابنِ كَثِير-.
وانظُر «البُلدانِيَّات» (ص١٤١) -للسَّخاوِي-.

الشِّدَّةِ والنِّقمَةِ، والعَوْنُ علىٰ الفِكاكِ والشَّدائِدِ».

ومِنهُ: قَولُ اللهِ -تَعالَىٰ-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩].

والاسْتِعانَةُ: طَلَبُ العَوْنِ، وهِيَ شامِلَةٌ لِمَعْنَىٰ الاسْتِغاثَةِ؛ إلَّا أنَّ الاسْتِغاثَةَ مُستعمَلَةٌ في حالِ الشِّدَّةِ والكَرْبِ، أمَّا الاستْعانَةُ؛ فهِيَ أَعَمُّ مِن ذلِكَ.

وكِلاهُما مُتَضَمِّنٌ لِمَعنَىٰ الدُّعاءِ؛ إذِ «**الدُّعاءُ هُو العِبادَةُ**» -كما قالَ نَبيُّنا ﷺ- فيما رَواهُ التِّرمِذِيُّ (٢٩٦٩)، وأبُو داود (١٤٧٩)، وابنُ ماجَه (٣٨٢٨) -عنِ النُّعمانِ بنِ بَشِير-بِسَنَدٍ صَحيحٍ-.

وقال الحافِظُ أَبُو سُلَيْمان الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «شَأنِ الدُّعاءِ» (ص٤):

«ومعنَىٰ (الدُّعاء): اسْتِدعاءُ الرَّبِّ -عزَّ وجَلَّ- العِنايَةَ، واسْتِمدادُهُ المَعُونَةَ.

وحقيقتُهُ: إظهارُ الافْتِقارِ إلَيْهِ، والتَّبَرُّؤُ مِن الحَوْلِ والقُوَّةِ.

وهُو سِمَةُ العُبُودِيَّةِ، واسْتِشعارُ الذِّلَّةِ البَشَرِيَّةِ.

وفيهِ معنَىٰ الثَّناءِ علَىٰ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، وإضافَةُ الجُودِ والكَرَمِ إلَيْهِ».

وقال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ الحَنبَلِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- في «فَتْح البَارِي» (١/ ٢٠) -لَهُ-: «اعْلَمْ أنَّ أَصلَ (الدُّعاءِ)-في اللُّغَةِ-: الطَّلَبُ؛ فهو اسْتِدْعاءٌ لِمَا يَطلُبُهُ الدَّاعِي، ويُؤْثِرُ حُصُولَهُ:

فَتارَةً يَكُونُ الدُّعاءُ بالسُّؤالِ مِن اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، والابْتِهالِ إلَيْهِ؛ كَقَولِ الدَّاعِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي.

وتَارَةً يَكُونُ بالإِتْيانِ بالأَسبَابِ الّتي تَقتضِي حُصُولَ المَطالِبِ، وهُو الاشْتِغالُ بِطاعَةِ اللهِ، وذِكْرِهِ، وما يَجِبُ مِن عَبدِه أنْ يَفْعَلَهُ.

وهَذا هُو حقيقةُ الإيمانِ».

وهذا المعنَىٰ -كما تَقَدَّمَ- شامِلٌ لِمَعنَىٰ (الاستِغاثَةِ).

وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ-: «والدَّاعِي يَطلُبُ أَحَدَ شَيْئَيْنِ: إمَّا حُصُولَ مَنْفَعَةٍ، أو دَفْعَ مَضَرَّةٍ؛ فالاسْتِعاذَةُ، والاسْتِجارَةُ، والاسْتِغاثَةُ -كُلُّها- مِن نَوعِ الدُّعاءِ والطَّلَبِ»(١).

○ **(فائدةٌ): مِن مُخالَفاتِ الاعْتِقادِ:**

ومِن «أَظْهَرِ المُخالَفَاتِ -في تَوحِيدِ العِبادَةِ- هِيَ: دُعاءُ غَيْرِ اللهِ -تَعالَىٰ-: بأنْ يَتَوَجَّهَ إلَىٰ غَيْرِهِ مِن أَصنامٍ، وأَفلاكٍ، وأَمواتٍ، ومَلَكٍ، وجَانٍّ -ونَحوِ ذلِك- بالسُّؤالِ، والطَّلَبِ، والاسْتِغاثَةِ، والاسْتِعانَةِ -وما فِي معنَىٰ ذلِك مِمَّا هُو عِبادَةٌ، لا يَنْبَغِي صَرْفُها لِغَيْرِ اللهِ -تعالىٰ-.

والأَصْلُ في الدُّعاءِ والاسْتِغاثَةِ والاسْتِعانَةِ: أنْ لا يُصْرَفَ شَيْءٌ مِن ذلِكَ إلَّا إلَىٰ اللهِ -تعالىٰ-؛ لأَنَّهُ لا مُغِيثَ ولا مُعِينَ -علىٰ الإِطلاقِ- إلَّا هُو -سُبحانَهُ-.

لَكِنْ؛ يَخرُجُ مِن هذا المَعْنَىٰ ما كانَ سَبَبًا مُباحًا لَمْ يَنْهَ عنهُ الشَّارِعُ، ولَمْ يَعُدَّهُ مِن أَنواعِ الشِّرْكِ؛ كالاسْتِغاثَةِ والاسْتِعانَةِ (بالحَيِّ الحاضِرِ) فيما (يَقدِرُ عليْهِ)(٢):

(١) «الاسْتِغاثَة في الرَّدّ علىٰ البَكْرِيِّ» (٢/ ٤٥٢) -لابنِ تَيْمِيَّة-.
(٢) وهُما شَرْطانِ مُهِمَّانِ -جِدًّا-، مُجتمِعان لا يَفْتَرِقَان.

=

فهذِهِ مِن الأسْبابِ الّتِي جَعَلَها اللهُ -تَعَالَىٰ- بَيْنَ العِبادِ؛ يَتَّخِذُ فِيها بَعضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[1].

ومِن ذلِك: ما حَكاهُ اللهُ -تَعالَىٰ- عن مُوسَىٰ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥].

وكذلِكَ ما أَمَرَ بِهِ -سُبحانَهُ- مِن التَّعاوُنِ علىٰ البِرِّ والتَّقوَىٰ؛ كما في قَولِهِ -سُبحانَهُ-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[الأنفال:٧٢].

أمَّا ما لَمْ يَكُن كذلِكَ؛ فيَبْقَىٰ علىٰ الأَصْلِ؛ كسُؤالِ الأَمواتِ، والاسْتِغاثَةِ بِهِم، أَو سُؤالِ الأَحياءِ ما هُو مِن خَصائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ كغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وهِدايَةِ القُلُوبِ، وشِفاءِ الأَمراضِ -ونَحوِ ذلِكَ-»[2].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ-: «فالاسْتِغاثَةُ المَنْفِيَّةُ نَوْعان:

=
وإغفالُهُما -أَو الغَفْلَةُ عنهُما- مَضَلَّةٌ!

(١) كَمَا في قَولِ اللهِ -تعالىٰ-: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزُّخرُف:٣٢]؛ قال السَّمَرْقَنْدِيُّ في «بَحْرِ العُلُومِ» (٣/ ٢٥٦): «فَضَّلَ بَعْضَهُم علىٰ بَعْضٍ في العِزِّ والرِّياسَةِ؛ لِيَسْتَخْدِمَ بَعضُهُم بَعْضًا...».

(٢) انظُر: «الاستِغاثَة في الرَّدِّ علىٰ البَكْرِيِّ (١/ ٣٠٠) -لابنِ تَيْمِيَّةَ-.
وعنهُ: «شُبهات المُبْتَدِعَة في (تَوحِيدِ العِبادَة)» (١/ ٣٦١) -للدُّكتُور عبد الله الهُذَيل -بِتَصَرُّفٍ-.

أحدُهُما: الاسْتِغاثَةُ بالمَيِّتِ -مُطلَقًا- في كُلِّ شَيءٍ-.

والثَّانِي: الاسْتِغاثَةُ بالمَخْلُوقِ فِيمَا لا يَقدِرُ علَيْهِ إلَّا الخَالِقُ، فلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسألَ غَيْرَ اللهِ ما لا يَقْدِرُ علَيْهِ إلَّا اللهُ -لا نَبِيًّا ولا غَيْرَهُ-.

ولَا يَسْتَغِيثُ بمَخْلُوقٍ فِيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا الخالِقُ.

ولَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسألَ مَيْتًا، أو يَستَغِيثَ بِهِ في شَيْءٍ مِن الأَشْياءِ -سَواءٌ كانَ نَبِيًّا، أو غَيْرَهُ-»[1].

وقال الشَّيخُ صُنْعُ اللهِ الحَلَبِيُّ الحَنَفِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «والاسْتِغاثَةُ تَجُوزُ في الأَسبابِ الظَّاهِرَةِ العادِيَّةِ -مِن الأُمُورِ الحِسِّيَّةِ -في قِتالٍ، أو إدراكِ عَدُوٍّ، أو سَبُعٍ -أو نَحوِهِ-؛ كَقَوْلِهِم: يا لَزَيْد، يا لَلمُسْلِمِين[2]- بحَسَبِ الأَفعالِ الظَّاهِرَةِ بالفِعْلِ-.

وأمَّا الاسْتِغاثَةُ بالقُوَّةِ التَّأثِيرِيَّةِ -أو في الأُمُورِ المَعنَوِيَّةِ- مِن الشَّدائِدِ-؛ كالمَرَضِ، وخَوفِ الغَرَقِ، والضِّيقِ، والفَقْرِ، وطَلَبِ الرِّزْقِ -ونَحْوِهِ-؛ فمِن خَصائصِ اللهِ -تَعالَىٰ-، لا يُطْلَبُ فِيها غَيْرُهُ»[3].

(١) «الاسْتِغاثَة» (١/ ٥٩-٣٦٠).

(٢) انظُر -لِزامًا- «إيضاح شَواهِد الإيضاح» (١/ ٢٧٠) -لِأَبِي عَلِيٍّ القَيْسِيِّ-.

(٣) «سَيف الله علىٰ مَن كَذَبَ علىٰ أَوْلِياءِ الله» (ص٤٠).

-٤٣، ٤٤-

صَـلِّ عَلَـىٰ خَيْـرِ البَـشَرْ مِــنْ كُــلِّ أُنْثَـىٰ وَذَكَـرْ

مُحَمَّـــدٍ وَجْــهِ القَمَــرْ ذِي الجانِـــبِ المُمَنَّـــعِ

□ المَعنَىٰ الإجماليّ:

خَتَمَ النَّاظِمُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- (قَصِيدَتَهُ) بِالأَمْرِ بالصَّلاةِ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ، الّذِي هو خَيْرُ البَشَرِ -أَجمعِين- ذُكُورًا وإِناثًا- علىٰ الإِطلاقِ-.

صاحِبِ الوَجْهِ المُشْرِقِ الأَنْوَرِ البَدِيع، والحَقِّ المَصُونِ الرَّفِيع.

□ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ:

* (صَلِّ): (الصَّلاةُ) -في اللُّغَةِ- بمعنَىٰ: (الدُّعاء)[1]:

قال الإمَامُ النَّوويُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «المَجمُوع شَرح المُهذَّب» (١/ ٧٥): «أَصلُ (الصَّلاةِ) -في اللُّغة-: الدُّعاء.

هذا قَولُ جُمهُورِ العُلماءِ -مِن أَهلِ اللُّغَةِ- وغَيْرِهِم-.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أَصلُها: اللُّزُومُ..».

○ **(فائدةٌ): مَعنَىٰ (الصَّلاة علىٰ النَّبِيِّ ﷺ):**

قال الإِمَامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ في «جَلاءِ الأَفْهَام في الصَّلاةِ والسَّلام علىٰ خَيرِ

(١) «القامُوس المُحِيط» (٣٥٣) -لِلفِيرُوزآبادي-.

الأَنام» (ص٢٥٣) -تحتَ بابِ: (**بَيَان معنَىٰ الصَّلاةِ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ**) -ما مُلَخَّصُهُ-:

«وأَصلُ هذِهِ اللَّفْظَةِ [الصَّلاة] -في اللُّغَةِ- يَرجِعُ إِلَىٰ مَعْنَيَيْنِ:

- **أَحَدُهُمَا**: الدُّعاءُ والتَّبْرِيكُ.

- **والثَّانِي**: العِبادَةُ.

فمِنَ الأَوَّلِ: قَولُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقَولُهُ -تَعالَىٰ- في حَقِّ المُنافِقِينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة:٨٤].

وقِيلَ: إنَّ (الصَّلاةَ) -في اللُّغَةِ- مَعناهَا: الدُّعاءُ:

والدُّعاءُ نَوعانِ: دُعاءُ عِبادَةٍ، ودُعاءُ مَسألَةٍ.

والعابِدُ دَاعٍ؛ كَمَا أنَّ السَّائِلَ دَاعٍ.

وبِهِمَا فُسِّرَ قَولُهُ -تَعالَىٰ-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]:

قِيلَ: أَطِيعُونِي أُثِبْكُم.

وقِيلَ: سَلُونِي أُعْطِكُم.

وفُسِّرَ بِهِمَا قَولُهُ -تَعالَىٰ-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

والصَّوابُ: أنَّ الدُّعاءَ يَعُمُّ النَّوعَيْنِ...

فعلَىٰ هذَا؛ تَكُونُ (الصَّلاة) باقِيَةً علىٰ مُسَمَّاهَا في اللُّغَةِ -وهو الدُّعاءُ-.

والدُّعاءُ دُعاءُ عِبادَةٍ، ودُعاءُ مَسألَةٍ.

والمُصلِّي -مِن حِينِ تَكبِيرِهِ إلَىٰ سَلامِهِ- بَيْنَ دُعاءِ العِبادَةِ، ودُعاءِ المَسألَةِ؛ فهُو في صَلاةٍ حَقيقيَّةٍ؛ لا مَجازًا، ولا مَنقُولَةً!

هذِهِ صَلاةُ الآدَمِيِّ.

وَأمَّا (صَلاةُ الله) -سُبحانَهُ- علَىٰ عَبدِهِ؛ فنَوعان؛ عامَّةٌ وخاصَّةٌ:

-أمَّا العامَّةُ؛ فهي صَلاتُهُ علىٰ عِبادِهِ المُؤمنِين: قالَ -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[الأحزاب:٤٣].

ومِنهُ: دُعاءُ النَّبِيِّ ﷺ بالصَّلاةِ -علىٰ آحادِ المُؤمِنِين-؛ كَقَولِهِ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**»[1]...

- **والنَّوعُ الثَّانِي**: صَلاتُهُ الخاصَّةُ علىٰ أَنْبِيائِهِ ورُسُلِهِ -خُصُوصًا علىٰ خاتَمِهِم وخَيْرِهِم: مُحمَّد ﷺ-:

فاخْتَلَفَ النَّاسُ في معنَىٰ (الصَّلاة) -مِنهُ- سُبحانَهُ- علىٰ أَقوالٍ...

والرَّاجِحُ: أنَّ الصَّلاةَ لا بُدَّ فيها مِن كَلامٍ؛ فهِي ثَناءٌ مِن المُصلِّي علىٰ مَن يُصَلِّي علَيْهِ، وتَنوِيهٌ بِهِ، وإشارةٌ لِمَحاسِنِهِ ومَناقِبِهِ، وذِكْرُهُ:

ذَكَرَ البُخارِيُّ في «صَحيحِهِ»[2] عن أَبِي العالِيَةِ، قالَ: «صَلاةُ اللهِ علىٰ رَسُولِهِ:

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٩٧)، ومُسلمٌ (١٠٧٨) عن عبدِ الله بنِ أَبِي أَوْفَىٰ.

(٢) مُعَلَّقًا -مَجْزُومًا بِهِ- (٤٧٩٧).

وَوَصَلَهُ إسماعيلُ القاضِي -كَمَا هُو بَعْدَه-.

ثَناؤُهُ عليْهِ -عِندَ الملَائكَةِ-».

وقالَ إسماعِيلُ في «كِتابِهِ»(١): حَدَّثَنَا نَصْرُ بنُ عَلِيٍّ: حَدَّثَنَا خالِدُ بنُ يَزِيدَ، عن أَبِي جَعفرٍ، عن الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ، عن أَبِي العالِيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، قال: صَلاةُ الله -عزَّ وجَلَّ-: ثَناؤُهُ عليهِ، وصَلاةُ المَلائكَةِ عليهِ: الدُّعاء...

... فمعنَىٰ (الصَّلاةِ)؛ هو: الثَّناءُ علىٰ الرَّسُولِ، والعِنايةُ بهِ، وإظهارُ شَرَفِهِ وفَضْلِهِ وحُرْمَتِهِ -كما هُوَ المَعرُوفُ مِن هذِهِ اللَّفظَةِ-...

فاللهُ -سُبحانَهُ- أَمَرَ بالصَّلاةِ عليهِ -عَقِبَ إخبارِهِ بأَنَّهُ ومَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عليهِ-.

والمعنَىٰ: أَنَّه إذا كان اللهُ ومَلائكتَهُ يُصلُّونَ علىٰ رَسُولِهِ؛ فصَلُّوا أَنتُم عليه، فأنتُم أَحَقُّ بأنْ تُصَلُّوا عليهِ، وتُسلِّمُوا تَسلِيمًا؛ لِمَا نالَكُم بِبَرَكَةِ رِسالتِهِ، ويُمْنِ سَفَارَتِهِ: مِن شَرَفِ الدُّنيا والآخِرَةِ...

... والصَّلاةُ المَأمُورُ بِها -فيهَا- هي: الطَّلَبُ مِن اللهِ ما أَخْبَرَ بهِ عن صلاتِهِ، وصَلاةِ مَلائكتِهِ، وهي: ثَناءٌ علَيْهِ، وإِظهارٌ لِفَضْلِهِ وشَرَفِهِ، وإرادَةُ تَكْرِيمِهِ وتَقرِيبِهِ.

فهِيَ تَتَضَمَّنُ الخَبَرَ، والطَّلَبَ.

وقدْ ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ -في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ -الَّذِي رَواهُ مُسلِمٌ(٢)-: أَنَّهُ (**مَن صَلَّىٰ علَيَّ مَرَّةً صَلَّىٰ اللهُ عليهِ بِهَا عَشْرًا**)، وأَنَّهُ -سُبحانَهُ وتعالَىٰ- قالَ لهُ: (**إِنَّهُ مَن**

(١) «فَضْل الصَّلاةِ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ» (٩٥) -بِسَنَدٍ صَحِيحٍ-.
(٢) برَقْم (٣٨٤).

صَلَّىٰ عَلَيْكَ مِن أُمَّتِكَ مَرَّةً صَلَّيْتُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا) [١].

وهذا مُوافِقٌ للقاعِدَةِ المُستقِرَّةِ في الشَّريعَةِ: أنَّ (الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ)[٢]؛ فصَلاةُ اللهِ علىٰ المُصَلِّي علَىٰ رَسُولِهِ جَزاءٌ لِصلاتِهِ هو عليهِ.

ومَعلُومٌ أنَّ صَلاةَ العَبْدِ علىٰ رسُولِ الله ﷺ ليسَت هي رَحْمَةً مِن العَبدِ؛ لِتَكُونَ صَلاةُ اللهِ عليهِ مِن جِنسِها! وإنَّما هي ثَناءٌ علىٰ الرَّسُولِ ﷺ، وإرادَةٌ مِن اللهِ -تعالىٰ- أنْ يُعْلِيَ ذِكْرَهُ، ويَزِيدَهُ تَعظِيمًا وتَشريفًا:

فمَنْ أَثنَىٰ علىٰ رسولِ الله ﷺ: جزاهُ اللهُ مِن جِنْسِ عَمَلِهِ؛ بأنْ يُثْنِيَ عليهِ، ويَزِيدَ تَشريفَهُ وتَكريمَهُ.

فصحَّ ارْتِباطُ الجَزاءِ بالعَمَلِ، ومُشاكَلَتُهُ لَهُ، ومُناسبَتُهُ لَهُ...».

وقال الحافِظُ ابنُ كَثِيرٍ في «تَفسِيرِهِ» (٣/ ٥٠٦): «المَقصُودُ مِن هذه الآيَةِ: أنَّ اللهَ -سُبحانَهُ وتعالَىٰ- أَخْبَرَ عِبادَهُ بِمَنزِلَةِ عَبدِهِ ونَبِيِّهِ -في المَلَأِ الأعلَىٰ-: بأنَّهُ يُثْنِي عليهِ عِندَ المَلائكَةِ المُقرَّبين، وأنَّ المَلائكَةَ تُصلِّي عليهِ.

ثُمَّ أَمَرَ -تعالَىٰ- أهلَ العالَمِ السُّفْلِيِّ بالصَّلاةِ والتَّسلِيمِ عليهِ؛ لِيَجْتَمِعَ الثَّناءُ علَيْهِ مِن أَهلِ العالَمَيْن -العُلوِيِّ والسُّفلِيِّ- جَمِيعًا-».

* **(خَيْرُ البَشَرَ)**؛ كَمَا قالَ ﷺ عن نَفْسِهِ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيامَةِ**..» [٣]:

---

(١) انظُر «سِلسِلة الأحادِيث الصَّحيحة» (٨٢٩).

(٢) انظُر «إعلام المُوقِّعِين» (٢/ ٣٣٠) -لابنِ القَيِّم-.

(٣) رَواهُ مُسلمٌ (٢٢٧٨) عن أَبِي هُريرةَ.

قال القَاضِي عِيَاضٌ في «إكمال المُعلِم بفوائد مُسلم» (١/ ٥٨٢):

«(**السَّيِّد**): الّذِي يَفُوقُ قَوْمَهُ، والّذِي يُفْزَعُ إليهِ في الشَّدائِدِ: هُو سيِّدُهُم ﷺ -في الدُّنيا والآخِرَةِ-.

لكِنْ؛ خَصَّصَ القِيامَةَ؛ لارْتِفاعِ دَعْوَىٰ السُّؤْدُدِ[1] فِيها، وتَسلِيمِ الكُلِّ لَهُ ذلك، وكَوْنِ آدَمَ -ومَن وَلَدَ- تَحْتَ لِوائِهِ؛ كَمَا قالَ -تعالىٰ-: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]؛ أي: انْقَطَعَت دَعَاوَىٰ الدُّعاةِ في المُلْكِ -ذلِكَ اليَومَ-، وبَقِيَ المُلْكُ الحَقُّ للهِ -وَحدَهُ-: الّذِي قَهَرَ جَمِيعَ الجَبابِرَةِ والمُدَّعِينَ المُلْكَ، وأَفناهُم، ثُمَّ أَعادَهُم، وحَشَرَهُم عُراةً، فُقَراءَ إِلَيْهِ».

قال العِزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ في «بداية السُّول في تَفضِيلِ الرَّسُول ﷺ» (ص٣٣-٣٤):

«فَضَّلَ اللهُ -تعالَىٰ- نَبِيَّنا ﷺ مِن وُجُوهٍ:

أوَّلها: أنَّهُ سادَ الكُلَّ؛ قال ﷺ: «**أَنَا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فَخْر**»[2].

والسَّيِّدُ: مَن اتَّصَفَ بالصِّفاتِ العَلِيَّة، والأَخلاقِ السَّنِيَّة.

وهذا مُشعِرٌ بأَنَّهُ أَفضلُ مِنهُم في الدَّارَيْن:

- أمَّا في الدُّنيا؛ فلِمَا اتَّصَفَ به مِن الأخلاقِ العَظيمةِ.

---

(١) يجوزُ فتحُ (الدَّال) -الأُولَىٰ-، ويجُوزُ ضمُّها.

وانظُر «شَرح شافية ابن الحاجب» (ص٤٨) -للرَّضِيِّ الإستراباذي-.

(٢) رَواهُ أحمدُ (٢١٥)، وابنُ حِبَّان (٦٤٧٩)، والبَزَّارُ (٧٦) عن أَبِي بَكْرٍ -بِسَنَدٍ حَسَن-.

- وأمَّا في الآخِرَةِ؛ فلِأنَّ الجَزاءَ مُرَتَّبٌ علىٰ الأخلاقِ والأَوصافِ، فإذا فَضَلَهُم في الدُّنيا -في المَناقِبِ والصِّفات-: فَضَلَهُم في الآخِرَةِ -في المَراتِبِ والدَّرَجات-.

وإنَّما قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فَخْر**»؛ لَتَعْرِفَ أُمَّتُهُ مَنزِلَتَهُ مِن رَبِّهِ -عَزَّ وجَلَّ-.

ولَمَّا كان ذِكْرُ مَناقِبِ النَّفْسِ إنَّما تُذْكَرُ افْتِخارًا -في الغالِبِ-: أرادَ ﷺ أنْ يَقطَعَ وَهَم مَن تَوَهَّمَ -مِن الجَهَلَةِ- أنَّهُ يَذْكُرُ ذلِكَ افْتِخارًا؛ فقال: «... **ولا فَخْر**»...».

❍ (**فائدةٌ**): **رَسُولُنا ﷺ أَنْفَسُ الخَلْقِ**:

في تَفسيرِ قَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ(١)﴾ [التوبة: ١٢٨] ﷺ:

كأنَّهُ يَقولُ: «مِن خَيْرِكُم نَفْسًا، وأَطْهَرِكُم قَلْبًا، وأَصدَقِكُم قَوْلًا، وأَزْكاكُم فِعلًا، وأَثْبَتِكُم أَصلًا، وأَوفاكُم عَهْدًا، وأَمْكَنِكُم مَجْدًا.

مِن أَكرَمِكُم طَبْعًا، وأَحْسَنِكُم صُنْعًا، وأَطيَبِكُم فَرْعًا، وأَكثرِكُم طاعَةً وسَمْعًا.

مِن أَعلاكُم مَقامًا، وأحلاكُم كَلامًا، وأَوفاكُم زِمامًا، وأَزْكاكُم سَلامًا.

---

(١) وقِراءةُ: (مِن أَنْفَسِكُم) -بِفَتْحِ الفاءِ-: شاذَّةٌ!
«مِنَ النَّفاسَةِ»: «يَعنِي: مِن أَشْرَفِكُم، وأَعَزِّكُم».
كمَا في «المُحتَسِب» (١/ ٣٠٦) -لابنِ جِنِّي-، و«الدُّرّ المَصُون» (٦/ ١٤١) -لِلسَّمِين الحَلَبِيّ-.
نَعَم؛ مَعناهَا صحيحٌ -لا شَكَّ-؛ بل هو (الأَنْفَسُ) -صَلواتُ الله وسلامُه عليه-.

مِن أَجَلِّكُم قَدْرًا، وأَعظَمِكُم فَخْرًا، وأكْثَرِكُم شُكْرًا، وأَرْفَعِكُم ذِكْرًا، وأَعلاكُم أَمْرًا، وأَجملِكُم صَبْرًا، وأَحسَنِكُم خَبَرًا، وأَقرَبِكُم بِشْرًا.

مِن أَبعَدِكُم مَكانًا، وأعظَمِكُم شَأنًا، وأَرجَحِكُم مِيزانًا، وأوَّلِكُم إيمانًا، وأوْضَحِكُم بَيانًا، وأَفضَلِكُم لِسانًا، وأَظهَرِكُم سُلطانًا، وأَبْيَنِكُم بُرهانًا.

مِن أَرسَخِكُم قَدَمًا، وأَبْيَنِكُم عِلْمًا، وأَوصَلِكُم رَحِمًا، وأَبَرِّكُم قَسَمًا، وأَبْعَدِكُم كَرَمًا، وأَرعاكُم ذِمَمًا.

مِن أَسطَعِكُم نُورًا، وأَنْوَرِكُم سُرُورًا، وأَجمَلِكُم حُبُورًا، وأفضلِكُم -حيًّا ومَقبُورًا-»[1].

* **(وَجه القَمَر)**؛ عَلَىٰ ما صَحَّ -فِيمَا سُئِلَ عنهُ البَراءُ بنُ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أكانَ وَجهُ رَسُولِ الله ﷺ مِثلَ السَّيف؟ قال: «لا؛ بلْ مِثلَ القَمَرِ» -رواهُ البُخارِيُّ (٣٥٥٢)-.

وقَد نَقَلَ الزُّرقانِيُّ في «شَرْحِ المَواهِب» (٥/ ٢٤٧) عن الحافِظِ أَبِي الخَطَّابِ بنِ دِحْيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ -تعالىٰ- مِن كِتابِهِ «التَّنوِير» -قَولَهُ-:

«... ففِي هذا الحَدِيثِ مِن العِلْمِ: أنَّ التَّشبِيهَ مِمَّن لا يُحْسِنُهُ لا يَصلُحُ الإقرارُ علَيه؛ لأنَّ السَّائلَ شَبَّهَ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ بالسَّيفِ، ولَو شَبَّهَهُ بالشَّمْسِ كانَ أَوْلَىٰ، فرَدَّ عليهِ البَراءُ قَولَهُ، وقال: «بَل مِثلَ القَمَرِ»:

وأَبْدَعَ في تَشبِيهِهِ؛ لأنَّ القَمَرَ يَملأُ الأَرضَ بِنُورِهِ، ويُؤْنِسُ كُلَّ مَن يُشاهِدُه، ونُورُهُ

(١) «بُستان الواعظِين» (٤٠١) -للإمامِ ابنِ الجَوزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-.

مِن غيرِ حَرٍّ يُفزِعُ، ولا كَلَلٍ يَنزِعُ.

والنَّاظِرُ إلىٰ القَمَرِ مُتمَكِّنٌ مِن النَّظَرِ؛ بخِلافِ الشَّمسِ الّتي تُعْشِي البَصَرَ.

وفي رِوايَةِ مُسْلِمٍ[١] -مِن حَدِيثِ جابِرِ بنِ سَمُرَة-: وقالَ لَهُ رَجُلٌ: أكانَ وَجهُ رَسُولِ الله ﷺ مِثلَ السَّيْفِ؟ فقال: لا؛ بلْ مِثلُ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وكان مُستدِيرًا».

وقالَ أَبُو نُعَيْم الأَصبهانِيُّ في «دَلائلِ النُّبُوَّةِ» (ص٦٠٦):

«جَمالُ مُحمَّدٍ ﷺ -الّذِي وَصَفَهُ بِهِ أَصحابُهُ -لا غايَةَ وَراءَهُ؛ إذْ وَصَفُوهُ بالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ، أو: كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، و: أَحْسَنَ مِن القَمَرِ، و: وَجْهُهُ كأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ[٢]، يَسْتَنِيرُ كاسْتِنارَةِ القَمَرِ...» [٣].

وفِي «سُبُلِ الهُدَىٰ والرَّشاد» (١/ ٣٨١) -للصَّالحِيِّ-:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ البَشَرْ ... مِمَّنْ مَضَىٰ ومَنْ غَبَرْ
مَنْ حَجَّ مِنهُمْ واعْتَمَرْ ... أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِ القَمَرْ
مِنْ كُلِّ أُنْثَىٰ وَذَكَرْ ... مِنْ كُلِّ مَشْبُوبٍ[٤] أَغَرّ

* (**الجانِبِ المُمَنَّعِ**): «الجَنَابُ؛ هُوَ: الجانِب» -كما في «فَتْحِ المَجِيدِ شَرْحِ (كِتابِ التَّوحِيد)» (ص٢٥٤) -للشَّيخ عبدِ الرَّحمن بنِ حَسَنِ بنِ مُحمَّدِ بنِ عَبدِ الوهَّاب -رَحِمَهُمُ اللهُ-.

---

(١) (بِرَقْم: ٢٣٤٤).

(٢) كما رَواهُ مُسلمٌ (١٠١٧) -مِن حديث جَرير بنِ عبدِ الله البَجَلِيِّ-.

(٣) انظُر «كَشْف المُشكِل» (١/ ٤٣٤) -لابنِ الجَوزِيِّ-.

(٤) هُو الحَسَنُ.

والمَقصُودُ بِهِ -هُنا-: القَدْرُ، والعَظَمَةُ.

و(**المُمَنَّعِ**)؛ أي: المُصَان، المَحْفُوظ.

والمَقصُودُ: العِصْمَةُ.

ومِنهُ: قَولُ الشَّاعِرِ:

ذَرُوا فِي السُّرَىٰ نَحْوَ الجَنَابِ المُمَنَّعِ لَذِيذَ الكَرَىٰ واجْفُوا لَهُ كُلَّ مَضْجَعِ
واهْدُوا إذَا جِئتُمْ إلَىٰ خَيْرِ مَرْبَعِ تَحِيَّةَ مُضْنًىٰ هائِمِ القَلْبِ مُوْجَعِ[1]

○ (**فائدَةٌ**) : **العِصمَةُ -حَقيقةً ومعنًىٰ-:**

و«**العِصمَةُ -لُغَةً-**: المَنْعُ، والحِفْظُ.

واصْطِلاحًا: حِفظُ اللهِ -تعالَىٰ- أَنبِياءَهُ مِن الذُّنُوبِ -كَبِيرِها وصَغِيرِها-.

أي: أنَّ اللهَ -تَعالَىٰ- لا يُعْطِي للنَّبِيِّ الّذِي يُرسِلُهُ فُرصَةَ اقْتِرَافِ الذَّنْبِ؛ إذْ يَحفظُهُ مِن ذلِكَ.

وقد وَرَدَت هذهِ الكَلِمَةُ في القُرآنِ الكَرِيمِ -في مَواضِعَ عَديدَةٍ-، مِنها: حِوارُ نُوحٍ عليه السلام مع ابْنِهِ، حِينَما خاطَبَهُ -قائلًا-: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[هود:٤٢]، فأجابَهُ ابنُهُ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود:٤٣]:

فكَلِمَةُ: ﴿يَعۡصِمُنِي﴾ -الوارِدَةُ في هذِهِ الآيَةِ- تَأْتِي مِن فِعْلِ (عَصَمَ)، ومعناهُ: (حَفِظَ).

---

(١) «طَبَقات الشَّافِعِيَّة الكُبْرَىٰ» (٩/ ٢١٦) -للسُّبْكِيِّ-.

وأجابَ نُوحٌ عليه السلام ابنَهُ بجَوابٍ جاءَتْ فيهِ كَلِمَةٌ مِن الاشْتِقاقِ -نَفْسِهِ-، إذْ قالَ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وسَواءٌ أَجاءَت كَلِمَةُ (عاصِم) بنَفْسِ مَعناها، أمْ بمعنَىٰ (مَعصُوم)؛ فالأَمْرُ لا يَخْتَلِفُ كَثيرًا؛ إذْ هُناكَ (عاصِمٌ)، وهُناكَ (مَعصُومٌ)، والمعنَىٰ يَدُورُ حَولَ (العِصمَةِ).

فَـ(العِصمَةُ) لَهّا عِدَّةُ مَعانٍ؛ هي:

١- المَنْعُ.

٢- الحِفظُ.

٣- القِلادَةُ.

٤- الحَبْلُ.

وبالإمْعانِ في هذِهِ المَعانِي -جَمِيعِها-: تَرىٰ أنَّها تَرْجِعُ إلىٰ المعنَىٰ الأوَّل -الّذِي هو **المَنْعُ**-؛ **فالحِفظُ**: مَنْعٌ للشَّيءِ مِن الوُقُوعِ في المَكرُوهِ أو المَحظُورِ، **والقِلادَةُ**: تَمْنَعُ سُقُوطَ الخَرَزِ مِنها، **والحَبْلُ**: يَمْنَعُ مِن السُّقُوطِ والتَّرَدِّي.

وعلَىٰ المعنَىٰ الأَوَّلِ دارَ كَلامُ حُذَّاقُ المُفسِّرين؛ قالَ الإمامُ الطَّبَرِيُّ في تَفسِيرِهِ لِقَولِهِ -تَعالَىٰ-: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]: «وأَصْلُ العِصمَةِ: المَنْعُ؛ فكُلُّ مانِعِ شيءٍ؛ فهُو: عاصِمُهُ، والمُمْتَنِعُ بِهِ: مُعتصِمٌ بِهِ»[1].

(١) «مَوسُوعة بَيان الإسلام» (١٤/ ٤٧-٤٨) -لِمَجمُوعةِ باحِثِين -باخْتِصار-.

○ **(فائدةٌ): العِصمَةُ مِن دَلائلِ النُّبُوَّةِ:**

قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ في «الجَواب الصَّحيح لِمَن بَدَّلَ دِينَ المَسِيح» (٦/ ٢٧٤) -تحتَ عُنوان (كِفايَةُ اللهِ لهُ أَعداءَهُ، وعِصمَتُهُ لَهُ مِن النَّاس)-:

«وهذا فِيهِ آيَةٌ لِنُبُوَّتِهِ مِن وُجُوهٍ:

مِنْها: أنَّ ذلِكَ تَصدِيقٌ لِقَولِهِ -تعالَىٰ-: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ . إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ . ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحِجر:٩٤-٩٦].

فهذَا إخبارُ اللهِ بأنَّهُ يَكفِيهِ المُشرِكِينَ المُستَهزِئين، وأَخْبَرَ أنَّهُ يَكفِيهِ أَهلَ الكِتابِ؛ بِقَولِه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ .فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٦-١٣٧].

فأخْبَرَهُ اللهُ أنَّهُ يَكفِيهِ هؤلاءِ الشَّاقِّينَ لهُ مِن أَهلِ الكِتابِ، وأَخْبَرَهُ أنَّهُ يَعصِمُهُ مِن جَمِيعِ النَّاسِ؛ بِقَولِهِ -تعالَىٰ-:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة:٦٧].

فهذَا خَبَرٌ عامٌّ بأنَّ اللهَ يَعصِمُهُ مِن جَمِيعِ النَّاسِ[1].

---

(١) ولا يَتعارَضُ هذا مع ما ثَبَتَ مِن أنَّ النبيَّ ﷺ سُحِرَ -كما في «صَحِيحِ البُخارِيِّ» (٥٧٦٣)، و«صَحيح مُسلِم» (٥٥٩٩) -وغَيرِهما- مِن كُتُبِ الإسلام-:

=

فكُلٌّ مِن هذه الأَخبارِ الثَّلاثَةِ العامَّةِ قد وَقَعَ كما أَخْبَرَ.

وفي هذا عِدَّةُ آياتٍ:

مِنها: أَنَّهُ كَفاهُ أَعداءَهُ بِأَنْواعٍ عَجِيبَةٍ، خارِجَةٍ عن العادَةِ المَعرُوفَةِ.

ومِنها: أَنَّهُ نَصَرَهُ -مع كَثْرَةِ أَعدائِهِ، وقُوَّتِهِم، وغَلَبَتِهِم-، وأَنَّهُ كانَ -وَحدَهُ- جاهِرًا بمُعاداتِهِم، وسَبِّ آبائِهِم، وشَتْمِ آلِهَتِهِم، وتَسفِيهِ أَحلامِهِم، والطَّعْنِ في دِينِهِم.

وهذا مِن الأُمورِ الخارِقَةِ للعادَةِ.

والمُستهزِئُونَ كانُوا مِن أَعظَمِ ساداتِ قُرَيشٍ، وعُظَماءِ العَرَبِ، وكَان أَهلُ مَكَّةَ -أَهلُ الحَرَمِ- أَعَزَّ النَّاسِ، وأَشرَفَهُم -يُعظِّمُهُم جَميعُ الأُمَمِ-.

=

«إذْ مِمَّا لا شَكَّ فيه: أنَّ النبيَّ ﷺ بَشَرٌ لَهُ صِفاتُ البَشَرِ، ويَتَعَرَّضُ لِمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ سائرُهُم -مِن المَرَضِ والشِّفاءِ، والحُزْنِ والفَرَح، والعُسْرِ واليُسْر-؛ فلِمَاذا يُنكِرُونَ عليهِ أنْ يُسحَر، والسِّحرُ مَرَضٌ كَغَيْرِهِ مِن الأَمراض؟!

ثُمَّ؛ تَعَرُّضُ النَّبِيِّ ﷺ للسِّحرِ ثابِتٌ في أَصَحَّ كُتُبِ السُّنَّةِ، بَيْدَ أنَّ سِحرَهُ لا يَتعارضُ مع عِصمتِهِ؛ لأنَّهُ لَم يُؤثِّرْ في قواه العَقليَّةِ، أو صِفَتِهِ الشَّرعِيَّةِ، وإنَّما أَثَّرَ في شَيءٍ مِن نَشاطِهِ البَدَنِيِّ -فحَسْب-.

وإنَّ تَعَرُّضَ النَّبِيِّ ﷺ للسِّحرِ لا يَتعارضُ مع آيَةٍ واحدةٍ في القُرآنِ الكَريمِ؛ بل إنَّ بعضَ آياتِ القُرآنِ تُؤيِّدُ حُدُوثَ هذا الأَمرِ -مِثل: المُعوِّذَتَيْن-.

ولقد شاءَ اللهُ -تَباركَ وتعالىٰ- أنْ يَقَعَ هذا السِّحرُ علىٰ النبيِّ ﷺ لِحِكمَةٍ عَظيمةٍ، وهي أنْ تَستفِيدَ الأُمَّةُ، وتتعلَّمَ ماذا تَفعلُ إنْ حَدَثَ لِأحدِ أَفرادِها شيءٌ مِثلُ هذا».

«مَوسوعة بَيان الإسلام» (١٤/ ١٦٤).

أمَّا العَرَبُ؛ فكانُوا يَدِينُونَ لَهُم، وأمَّا غَيرُهُم مِن الأُمَمِ؛ فكانُوا يُعظِّمُونَهُم بِهِ؛ لا سِيَّما مِن حِينِ ما جَرَىٰ لِأهلِ الفِيلِ ما جَرَىٰ -كما كانَت الأُمَمُ تُعظِّمُ بَنِي إسرائِيلَ لَمَّا ظَهَرَ فيهِم مِن الآياتِ ما ظَهَرَ-».

وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في «دَرْء تَعارُض العَقل والنَّقل» (٧/ ٢٠٣):

«دَعاهُم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ مَعرِفَةِ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، وإلَىٰ طاعَتِهِ فيمَا كُلِّفَ تَبلِيغَهُ إلَيْهِم؛ بِقَولِهِ -تعالىٰ-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[المائدة:٩٢].

وعَرَّفَهُم أَمْرَ اللهِ بِإبلاغِهِ ذَلِكَ، وما ضَمِنَهُ لَهُ مِن عِصْمَتِهِ منهُم؛ بِقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧]:

فَعَصَمَهُ اللهُ مِنهُم -معَ كَثْرَتِهِم، وشِدَّةِ بَأسِهِم، وما كانُوا علَيه مِن شِدَّةِ عِنادِهِم، وعَداوَتِهِم لهُ-؛ حتَّىٰ بَلَّغَ رِسالَةَ رَبِّهِ إلَيهِم- مع كَثْرَتِهِم وَوَحْدَتِهِ، وتَبَرِّي أَهلِهِ مِنهُ، ومُعاداةِ عَشِيرَتِهِ، وقَصْدِ جَمِيعِ المُخالِفِينَ لهُ: حِينَ سَفَّهَ آراءَهُم فيمَا كانُوا عليهِ- مِن تَعظيمِ أَصنامِهِم، وعِبادَةِ النِّيرانِ، وتَعظيمِ الكَواكِبِ، وإنكارِ الرُّبُوبِيَّةِ[1] -وغَيْرِ ذلِكَ مِمَّا كانُوا عليه-؛ حتَّىٰ بَلَّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّىٰ الأمانَةَ، وأَوْضَحَ الحُجَّةَ في فَسادِ جَمِيعِ ما

(١) أيْ: في بَعض أَفعال الله -سُبحانه-؛ لا إنكار وُجوده -عزَّ وجَلَّ-:
كما في قولِهِ -تعالىٰ-: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾[التغابن:٧]، وقولِهِ -سُبحانَهُ-: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ . قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون:٨١-٨٣].
وأَمثالُهُما مِن الآياتِ كَثِيرٌ.

نَهاهُم ممَّا كانُوا عليهِ، ودَلَّهُم علىٰ صِحَّةِ جَمِيعِ ما دَعاهُم إلَىٰ اعْتِقادِهِ، وفِعْلِهِ -بِحُجَجِ اللهِ وبَيِّنَاتِهِ-..».

«**اللهمَّ صلِّ علىٰ محمدٍ، وعلىٰ آلِ مُحمَّدٍ، كما صَلَّيتَ علىٰ إبراهيمَ، وعلىٰ آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حَميدٌ مَجيد، اللهُمَّ بارِك علىٰ مُحمَّدٍ وعلىٰ آلِ مُحمَّدٍ، كما باركتَ علىٰ إبراهيم، وعلىٰ آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حَميدٌ مَجيد**»[1].

... واللهُ المُوفِّقُ؛ لا إلَهَ غيرُه، ولا رَبَّ سِواهُ.

(١) رواهُ البخاري (٣٣٧)، ومُسلم (٤٠٦) عن كَعْب بنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قُلْتُ:

هذا آخِرُ ما وَفَّقَنِي اللهُ -تَعَالَىٰ- إلَيْهِ-: مِن كِتابَةِ هذا «الشَّرحِ» -اللَّطِيفِ- علىٰ هذِهِ «**القَصيدةِ العَجلُونيَّة**» -المُبارَكَةِ- إنْ شاءَ اللهُ-.

جَاعِلًا هذا «الشَّرح» -ولله الحَمدُ- مَبْنِيًّا علىٰ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالحِ، والنَّقْل عن العُلماءِ الرَّبَّانِيِّين -رَحِمَهُمُ اللهُ- أَجمعِين-.

سائِلًا اللهَ -تَعَالَىٰ- أنْ يَنْفَعَ بِمَا كَتَبْتُ، وأنْ يُبارِكَ لِي فِي عِلْمِي وعَمَلِي، وأنْ يَتَقَبَّلَ مِنِّي، وأنْ يُثَبِّتَنِي، ويُحسِنَ خاتِمَتِي -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- سُبحانَهُ-.

وآخِرُ دَعوانَا أنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين.

وكَتَبَ

علي بن حسن الحلبي الأثري

أبو الحسن ، وأبو الحارث

عمَّان - الأُردُنّ في :

يَوْم الخَمِيس : العاشِر مِن شَهْر جُمادَىٰ الآخِرَة

سَنَةَ (١٤٣٨هـ)

ثُمَّ راجَعْتُها -غيرَ مَرَّةٍ- في مَجالِسَ؛

آخِرُها: ضُحَىٰ يوم الأحد: مُنتَصَف شَهْر صَفَر / سَنَة (١٤٣٩هـ).

-ولله الأمرُ مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ-.

فهرس الموضوعات

الموضــــــوع الصفحة
مقدمة ٥
نُبذَة تَاريخيَّة ١٣
(لطيفةٌ) ١٦
المقامة البصريَّة ١٨
(فائدةٌ) ٣٥
شُكرٌ .. و.. دُعاءٌ ٣٦
نَصُّ (القَصيدة) - كامِلةً - ٣٩
تَرْجَمَةُ النَّاظِمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- ٤٣
- ١ - ٦٣
❑ الشَّرحُ الإجمالي ٦٣
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيُّ ٦٣
- ٢ - ٦٨
❑ الشَّرحُ الإجماليّ ٦٨
❑ التَّفصيلُ اللُّغويّ ٦٨
-٣- ٧٠
❑ الشَّرحُ الإجمالِيّ ٧٠
❑ التَّفصيلُ اللُّغويّ ٧٠
-٤- ٧١
❑ الشَّرحُ الإجمالِيّ ٧١

الموضـــــوع الصفحة

❐ التَّفصِيل اللُّغَوِيّ ٧١
-٥- ٧٢
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ٧٢
❐ التَّفصيلُ اللُّغويّ ٧٢
-٦- ٧٤
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ٧٤
❐ التَّفصيلُ اللُّغوِيّ ٧٤
-٧- ٧٥
❐ الشَّرْحُ الإجماليّ ٧٥
❐ التَّفسيرُ اللُّغوِيّ ٧٥
❐ فائدةٌ: في (العُبُودِيَّة) ٧٦
-٨- ٧٨
❐ المَعْنَىٰ الإجماليّ ٧٨
❐ التَّفصيلُ اللُّغويّ ٧٨
❍ (فائدة): فِي حُكْمِ النُّزهةِ، والخُروجِ إلىٰ البَساتِينِ -ونَحْوِها- ٧٩
-٩- ٨١
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ٨١
❍ (فائِدَةٌ): في قِصَّةِ إسلامِ سَلمانَ الفارِسِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٨١
❍ (فائدةٌ): فِي عقيدةِ القَضاءِ والقَدَرِ ٨٦

الموضـــــــوع | الصفحة

❍ (فائدةٌ أُخرَىٰ): هل الإنْسانُ مُسَيَّرٌ، أمْ مُخَيَّرٌ؟ ٨٩
-١٠- ٩٢
❏ الشَّرحُ الإجمالِيّ ٩٢
❍ (فائدةٌ): في فَضْلِ التَّوبةِ ٩٢
-١١- ٩٤
❏ المعنَىٰ الإجمالِيّ ٩٤
❏ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ ٩٤
❍ (فائدةٌ): في فَضْلِ الصَّلاةِ ٩٤
❍ (فائدةٌ): في فَضْلِ قِيامِ اللَّيل ٩٥
- الأسبابُ المُيَسِّرَةُ لِقِيامِ اللَّيلِ ٩٦
❍ (فائدةٌ): في (الخَوْفِ والرَّجاءِ) ٩٨
-١٢- ١٠٠
❏ الشَّرحُ الإجمالِيّ ١٠٠
❍ (فائدةٌ): فَضْلُ انْشِراحِ الصَّدْرِ ١٠١
-١٣- ١٠٥
❏ الشَّرْحُ الإجمالِيّ ١٠٥
❏ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٠٥
❍ (فائدَةٌ): فَضْلُ (طُولِ القِيامِ، والسُّجُود) ١٠٥
-١٤- ١٠٨
❏ الشَّرحُ الإجمالِيّ ١٠٨

الموضـــــوع الصفحة

❑ التَّفصيلُ اللُّغويُّ ١٠٨
❍ (فائدةٌ): فَضْلُ (البُكاءِ مِن خَشْيَةِ اللهِ) ١٠٩
-١٥- ١١١
❑ الشَّرحُ الإجماليّ ١١١
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيُّ ١١١
❍ (فائِدَةٌ): خَطَرُ مُخالَفَةِ القُرآن.. ١١٢
-١٦- ١١٥
❑ الشَّرحُ الإجماليّ ١١٥
❍ (فائِدَةٌ): التَّحذِيرُ مِن البِدَع ١١٦
-١٧- ١١٩
❑ الشَّرحُ الإجماليّ ١١٩
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٢٠
❍ (فائدةٌ): القُرآنُ كَلامُ الله -تعالىٰ-.. ١٢٠
-١٨- ١٢٢
❑ المعنىٰ الإجماليّ.. ١٢٢
❑ التَّفصيلُ اللُّغَوِيّ ١٢٢
❍ (فائدةٌ): مَحاسِنُ الدِّينِ الإسلاميّ.. ١٢٣
-١٩- ١٢٦
❑ المَعنَىٰ الإجماليّ.. ١٢٦

الموضـــــــوع الصفحة

❐ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ ١٢٦
❍ تَنبيهٌ ١٢٧
❍ (فائدةٌ): في كَلامِ اللهِ -تعالىٰ- ١٢٨
-٢٠- ١٢٩
❐ المَعْنَىٰ الإجمالِيّ ١٢٩
❐ التفصيل اللغوي ١٢٩
❍ (فائدةٌ): حُكْمُ المُجادَلَةِ في القُرآنِ ١٣٠
-٢١- ١٣٤
❐ المعنَىٰ الإجمالِيّ ١٣٤
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٣٤
❍ (فائدةٌ): قَواعِدُ إثباتِ الصِّفاتِ للهِ -تعالىٰ- ١٣٥
-٢٢- ١٤٠
❐ المعنَىٰ الإجمالِيّ ١٤٠
❍ (فائدةٌ): إخلاصُ التَّوحِيدِ لله ١٤١
❍ (فائدةٌ): الاتِّباعُ الحَقُّ لِلحَقِّ ١٤٤
-٢٣- ١٤٩
❐ المعنَىٰ الإجمالِيّ ١٤٩
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٤٩
❍ (فائدةٌ): كَلامُ اللهِ -تعالىٰ- ١٥٠

الموضـــــــوع الصفحة

-٢٤- ١٥٤
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ١٥٤
❐ التَّفصِيلُ اللُّغوِيّ ١٥٤
❍ (فائدة): تَجَلِّي اللهِ -تعالىٰ- ١٥٥
❍ (فائدةٌ): كَلامُ اللهِ -سُبحانَهُ- بحَرْفٍ وصَوْتٍ ١٥٥
-٢٥- ١٥٨
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ١٥٨
❐ التَّفصيلُ اللُّغَوِيّ ١٥٨
❍ (فائدةٌ): في كَلامِ اللهِ -تعالىٰ- لِمُوسَىٰ عليه السلام ١٥٩
-٢٦- ١٦١
❐ المعنَىٰ الإجماليّ ١٦١
❐ التَّفصيلُ اللُّغوِيّ ١٦١
❍ (فائدة): في الاستِجابَةِ للهِ -تعالىٰ-، ولِرَسُولِه ﷺ ١٦٢
-٢٧، ٢٨- ١٦٣
❐ الشَّرْحُ الإجماليّ ١٦٣
❐ التَّفصيلُ اللُّغوِيّ ١٦٣
❍ (فائدةٌ): اسْتِواءُ اللهِ علىٰ عَرْشِهِ ١٦٤
-٢٩، ٣٠- ١٧٣
❐ الشَّرحُ الإجماليّ ١٧٣

الموضــــــوع — الصفحة

❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٧٤
❍ (فائدةٌ): الفَرْقُ بَيْنَ التَّكييفِ والكَيْفِ ١٧٤
❍ (فائدةٌ): اللهُ -سُبحانَهُ- في السَّماء ١٧٥
❍ (فائدة): في مَعِيَّةِ اللهِ -تعالىٰ- لِخَلْقِه ١٨٢
-٣١، ٣٢- ١٨٤
❐ المعنَىٰ الإجمالِيّ ١٨٤
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٨٤
❍ (فائدةٌ): ذَمُّ الهَوَىٰ ١٨٦
❍ (فائدةٌ): لا يُقاسُ اللهُ -تعالىٰ- بِخَلْقِهِ ١٨٧
❍ (فائدةٌ): مِن قَواعِدِ إثباتِ الأَسماءِ والصِّفات ١٨٩
❍ (فائدةٌ): تَعريفُ (الكُفْرِ) -في الشَّرْعِ- ١٩٢
❍ (فائدةٌ): العَلاقَةُ بَيْنَ المعنَىٰ اللُّغَوِيِّ، والمَعْنَىٰ الشَّرعِيِّ لِلكُفْرِ ١٩٣
❍ (فائدةٌ): أَنواعُ (الكُفْرِ)، وأَقسامُهُ ١٩٤
-٣٣، ٣٤- ١٩٦
❐ الشَّرحُ الإجمالِيّ ١٩٦
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ١٩٦
❍ (فائدةٌ): وَزْنُ أَعمالِ العِبادِ -يومَ القِيامَةِ- ١٩٩
❍ (فائدةٌ): حَولَ (اللِّسان) لِـ(المِيزان) ٢٠٤
-٣٥، ٣٦- ٢٠٦

الموضـــــــوع | الصفحة

❑ المعنَىٰ الإجماليّ.. ٢٠٦
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ٢٠٦
❍ (فائدَةٌ): الخَوْفُ مِن (جَهَنَّم) ٢٠٩
-٣٧، ٣٨-.. ٢١٢
❑ الشَّرحُ الإجمالِيّ ٢١٢
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ٢١٢
❍ (فائدَةٌ): عِظَمُ الجَنَّةِ ونَعِيمُها ٢١٣
❍ (فائدَةٌ): فَضْلُ قِيامِ اللَّيلِ ٢١٦
❍ (فائدَةٌ): الصَّالِحُونَ هُمْ أَهلُ قِيامِ اللَّيل ٢١٨
-٣٩، ٤٠-.. ٢٢٣
❑ الشَّرحُ الإجمالِيّ ٢٢٣
❑ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ٢٢٣
❍ (فائدَةٌ): الحُورُ العِين، وبَعضُ أَوصافِهِنَّ ٢٢٤
❍ (فائدَةٌ): وَصْفُ الجِنانِ، وبَعضُ نَعِيمِها ٢٢٨
❍ (فائدَةٌ): ما (الكَوْثَرُ) ٢٣١
❍ (فائدَةٌ): رُؤيَةُ اللهِ -تعالىٰ- أَعظَمُ نَعِيمِ أَهلِ الجَنَّةِ ٢٣١
❍ (فائدَةٌ): أَشجارُ الجَنَّة ٢٣٣
-٤١، ٤٢-.. ٢٣٤
❑ المعنَىٰ الإجمالِيّ.. ٢٣٤

الموضــــــــوع الصفحة
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ٢٣٤
❍ (فائدةٌ): التضرُّع إلىٰ الله -تعالىٰ- ٢٣٦
❍ (فائدةٌ): الاستِغاثَةُ بِهِ -سُبحانَهُ- وَحْدَهُ- ٢٣٦
❍ (فائدةٌ): مِن مُخالَفاتِ الاعْتِقادِ ٢٣٨
-٤٣ ، ٤٤- ٢٤١
❐ المَعنَىٰ الإجمالِيّ ٢٤١
❐ التَّفصِيلُ اللُّغَوِيّ ٢٤١
❍ (فائدةٌ): مَعنَىٰ (الصَّلاة علىٰ النَّبِيِّ ﷺ) ٢٤١
❍ (فائدةٌ): رَسُولُنا ﷺ أَنْفَسُ الخَلْقِ ٢٤٧
❍ (فائدَةٌ): العِصمَةُ -حَقيقةً ومعنًىٰ- ٢٥٠
❍ (فَائدةٌ): العِصمَةُ مِن دَلائلِ النُّبُوَّةِ ٢٥٢
فهرس الموضوعات ٢٥٩